قصص عالمية

تصميم الغلاف
عبد الله القصير

المشروع الوطني للترجمة

القصة العالمية

قصص عالمية

تأليف: مجموعة من المؤلفين

ترجمة: محمد نجدة راجي شهيد

الهيئة العامة السورية للكتاب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٣م

العنوان الأصلي للكتاب:
Global Stories
الكاتب: **A Group of Authors**
الناشر : **stories to growby,1892**
المترجم : محمد نجدة راجي شهيد

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

قصص عالمية / تأليف مجموعة من المؤلفين؛ ترجمة محمد نجدة راجي شهيد . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٣م.- ٤٤٠ ص: ٢٠ سم. (المشروع الوطني للترجمة. القصة العالمية).

١- ٨٠٨,٨٣ ط ش هـ ي ق ٢- العنوان ٣- شهيد
مكتبة الأسد

ما أهمية معرفة عادات الشعوب الأخرى وتقاليدها؟

قصص الكتاب مأخوذة كلها من مواقع متخصصة في أدب الأطفال العالمي على شبكة الإنترنت. وهي متاحة مجاناً بشكل قانوني؛ إذ إنها تقع في نطاق الملكية العامة، تبعاً لقوانين الملكية الفكرية. ويرد في نهاية الكتاب جدولاً يتضمن روابط القصص ومصادرها.

الهيئة العامة السورية للكتاب

مُقدِّمة

أحببتُ أن أقدِّم في هذا الكتاب شيئاً لم أجده في طفولتي. قصصاً من التراث في الأدب العالمي تُوصُف دائماً بأنها قصصٌ للأطفال لما تتضمّنه من خيالٍ ساحرٍ تجعلُ الطفل تائهاً بين التصديق والتكذيب.

إن قراءة هذه القصص المترجمة وأمثالها، التي تحملُ في طيّاتها مضامينَ تربوية واجتماعية إيجابية، تساعدُ الأطفال في نواحٍ عديدة. فهي من جهة تمكّنهم من الاطلاع على عادات الشعوب الأخرى وتقاليدها، مما يؤدي إلى تطويرِ مهاراتهم المعرفية. ومن جهة أخرى، تمنحهم فرصة لتقديرِ تراثهم الثقافي إضافة إلى تراث الآخرين، وتشجّعهم على التفكير وتنمية خيالهم، وعلى تكوين آرائهم الشخصية والتعبير عن أنفسهم على نحوٍ أفضل.

دمشق في ٢٢/٣/٢٠٢٢

محمد نجدة راجي شهيد

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفتى غوليش وأميرة فرنسا

عَرَفَ كيف يفرق بين حب المغامرة، والتورط في خطف أميرة

تأليف: يعقوب جوزيف

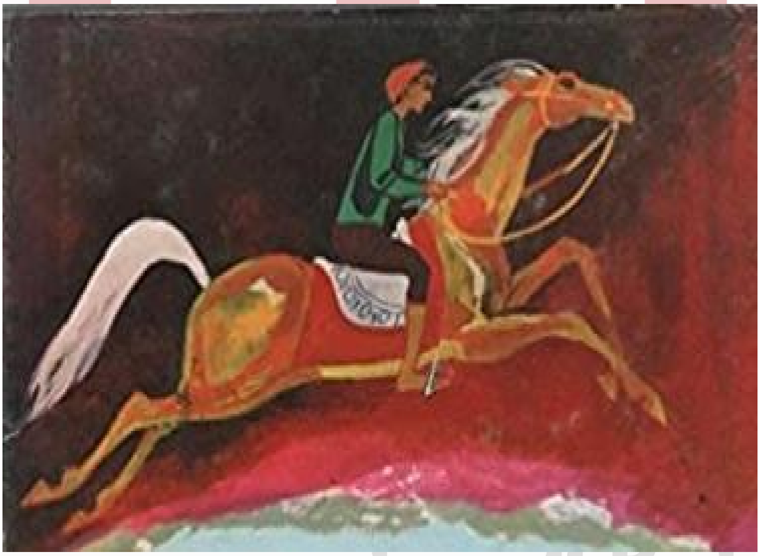

في يومٍ من الأيّام كان هناك في إيرلندا شاب اسمه غوليش، بيته في أقصى القرية، ويقعُ بالقربِ من حصنٍ قديم جداً لا يزال يُستخدمُ حتى اليوم. وفي إحدى الليالي أخذ غوليش ينظر، وهو

يتكئ على جدار الحصن، إلى القمر المنير وهو يدفعُ بضوئه الفضيّ الظلمة عن بيوت القرية وحقولها، وأخذ يقول لنفسه: «الحياة هنا تدعو للسئم والملل. كم أتمنى لو أستطيعُ فقط أن أكون في أي مكان آخر في العالم ما عدا هذا المكان!».

وفجأة سمع جلبة كبيرة تقتربُ منه تشبه ضجيج أناس كثيرين يركضون معاً. كان الصوتُ أشبه بدوامة من الرياح، ورأى أنها تتجه بقوة نحو الحصن.

ومن ثم سمعَ أصواتاً متداخلة، ولكنَّها جميعها تقولُ: «حصاني ولجامي وسرجي! حصاني ولجامي وسرجي!».

قال غوليش لنفسه: «من الواضحِ أنهم يستمتعون بوقتهم. سأنضمُّ إليهم». وبدأ يصرخُ بأعلى صوته: «حصاني ولجامي وسرجي! حصاني ولجامي وسرجي!». وفجأة ظهرَ أمامه حصان أصيلٌ عليه لجامٌ مصنوعٌ من الذهب وسرجٌ من الفضّة. وسرعان ما قفزَ غوليش على ظهرِه، وما إن استقر على أعلى الحصان حتى رأى بوضوح أن الحصن مملوء بخيول جميلة تتسابق يركبها فرسان خياليون قصار القامة.

وقال أحدهم لغوليش: «هكذا إذنْ! فهل ستذهب معنا الليلة يا غوليش؟».

فكّرَ غوليش قليلاً والريح تداعب خصائل شعره، وأجاب: «ولِمَ. ستكونُ مغامرة على الأقل».

وهكذا انطلقوا جميعاً على أحصنتهم يسابقون الريح، ولم يتوقفوا حتى وصلوا إلى شاطئ البحر الذي يفصل إيرلندا عن بلاد الغال (فرنسا حالياً).

ثم صرخَ كلُّ واحد منهم بصوت عال: «هيا فلننطلقْ فوق سطح الماء». وما إن انتهوا من قول هذه الكلمات، حتى ارتفعت الأحصنة عالياً في الهواء، وطارت بكل سرعتها فوق صفحة مياه البحر. وهكذا قالَ غوليش بصوت عال هذه الكلمات، وما إن انتهى من قول نفسها حتى ارتفع حصانه في الهواء، وطار بكل سرعته فوق صفحة مياه البحر. وعندما وصلت الأحصنة إلى الضفّة الأخرى من البحر ونزلتْ إلى اليابسة، قال أحدهم لغوليش: «هل تعلم أين أنت الآن يا غوليش؟».

فأجاب غوليش: «أبداً».

فقال: «أنت الآن في بلاد الغال. فالأميرة ابنة الملك ستتزوج الليلة. واسمها إيزابيلا وهي بكل تأكيد كنزٌ ثمين. وسوف نرى إذا كنا سنستطيع أن نخطفها. فإن كان الأمر كذلك، فيجب عليك أن تردفها وراءَك على ظهر حصانك، لأن قوانيننا لا تسمح لنا أن نردفها وراء أحد منا على ظهر حصانه. كما أنكَ بشريّ من لحمٍ ودمٍ وهي تستطيع من ثَمّ أن تمسكَ بك جيداً لكيلا تقع عن ظهر الحصان. فهل أنت راغبٌ في أن تقوم بما نطلبه منك يا غوليش؟».

لم يكنْ غوليش يتوقع مثل هذا الأمر. ولكنه أمعن التفكير فيه وفيمَ يمكن أن يتوقعه خلالَ هذه الرحلة ولا سيَّما بعد أن قطع معهم كل هذه المسافة الطويلة، ولذلك أجاب: «حسناً. سأقوم بذلك».

ترجّلَ الفرسان عن أحصنتهم بينما كانت الشمس تميل نحو المغيب، وقالَ أحدهم كلمة لمْ يستطعْ غوليش فهمها. وبعد ذلك وجدَ غوليش نفسه والفرسان الآخرين في داخل قصرٍ ما. وكان يُقام في هذا القصرِ حفلٌ كبيرٌ في قاعة ملكيّة كبيرة شديدة الإضاءة كما لو كنّا في النهارِ، وذلكَ بسببِ وجودِ عددٍ كبيرٍ من الشموع المضاءة في كل مكان داخل القاعة.

وكانت الفرقة الموسيقية، الموزّعة على طرفي القاعة من بدايتها حتى نهايتها، تعزف أجملَ الألحان والأغاني التي يُمكن للمرء سماعها. كان المدعوون الشباب وأفراد البلاط الملكي يرقصون ويتمايلون على هذه الأنغام الساحرة ويضاحك بعضهم بعضاَ. كان من الواضح أنهم يستمتعون بأوقاتهم في هذا الحفل الكبير.

جرى الاستعداد لهذا الحفل الكبير بشكلٍ متقن لدرجة لم تشهدْ مثله فرنسا خلال العشرين سنة الماضية. فالملكُ العجوز لم يبقَ لديه من أولاده على قيد الحياة سوى هذه الابنة الوحيدة، وهي ستتزوج ابنَ ملكٍ آخر في هذه الليلة. وكان من المقرّر استمرار الأفراح بهذا الزواج ثلاثة أيام بلياليها يكون في نهايتها الزواج، وهو الوقت نفسه الذي ظهر فيه غوليش.

كان غوليش ورفاقه الفرسان يقفون في مقدمة القاعة الملكية حيثُ كانتْ تقفُ الأميرة لإتمام إجراءات الزواج ومراسمه. ولكن لم يستطعْ أحد من الحضور أن يرى هؤلاء الفرسان، فيما عدا غوليش، بعد أن نطقوا بكلمات قليلة مبهمة غير مفهومة عند دخولهم القاعة الملكية جعلتهم غير مرئيين في أعين الحضور المشاركين في الحفل.

وسأل غوليش من حوله: «قولوا لي من فضلكم من هي الأميرة إيزابيلا من بين هؤلاء الحضور أمامنا؟».

فأجابَ أحد الحضور وهو يُشير بأصبعه: «ومن غيرها يُمكن أن يكون؟ ألا ترى الأميرة تقف هناك؟»

نظر غوليش إلى حيثُ كان الرجل يُشير بإصبعه، فرأى فتاة شابة مزيّنة بجميعِ أنواع الحليّ والمجوهرات الثمينة التي يمكنُ لأميرة أن ترتديها. ولكنه عندما أمعن النظر في وجهها رأى بوضوحٍ الدموع تترقرق في عينيها.

وقال غوليش لنفسه: «كيفَ يُمكنُ أن تشعرَ بالحزن في يوم زفافها. وجميعُ من حولها يستمتعون بفرح بالغ بوقتهم في هذه المناسبة».

فقالَ أحد الفرسان من رفاق غوليش: «إنها حزينة بلا شكٍّ لأن الزواجَ الان يتمُّ دون موافقتها، وهي لا تشعرُ أيضاً بالحبِّ نحو خطيبها الذي ستتزوجه الليلة. كان والدها الملك يعتزم أن يزوّجها هذا الأمير منذ أكثر من ثلاثِ سنواتٍ عندما كانتْ تبلغُ

الخامسة عشرة من العمر. عندها اعترضت على ذلك وطلبتْ من والدها التريث لبعض الوقت. فوافقَ والدها على ذلك وأعطاها مهلة سنة واحدة فقط. وفي نهاية هذه السنة وافقَ على تمديد المهلة لسنة أخرى، ثمَّ أتبعها بسنة أخرى غير قابلة للتجديد في أي حال من الأحوال. ولن يوافق على تمديد المهلة ولا حتى ليوم واحدٍ ولا سيَّما أنها بلغت الليلة الثامنة عشرة من العمر، وحان وقتُ الزواج.

وأضافَ القائل وهو يلوي بفمه بخبثٍ: «ولكنّها في الواقع ليستْ مضطرة للقلقِ حيالَ هذا الأمرِ أبداً، إذ إنها ستعود معنا عوضاً عن ذلك».

وعندما سمعَ غوليش بذلكَ شعرَ بضيقٍ شديد، وفكّرَ أن الأميرة إيزابيلا سوف تتزوج إما رجلاً لا ترغب به، وإما ستصبحُ رهينةً لرجلٍ من هؤلاء الفرسان الخياليون. ولم يستطعْ غوليش أن يتمالكَ نفسه وهو يلعنُ الحظَّ التعيس الذي جلبه إلى هذا المكان لمساعدة الأشخاص أنفسهم الذين يعتزمون خطفَ هذه الأميرة الشابة من منزلها ومن والدها.

حاولَ غوليش عن عبثٍ أن يفكّرَ بطريقة ينقذ بها هذه الأميرة الشابة من هذا المصير التعيس، ولكنه لم يتمكّن من الوصول إلى طريقة مرضية وفعالة لتحقيق هذا الغرض.

وفي هذه الأثناء دخل الأمير العريس القاعة، وأخذ يقترب من الأميرة لتبادل التحية، لكنها أشاحت وجهها عنه. ومع ذلك، أمسك بها بيده وسحبها وراءه باتجاه حلبة الرقص. وأخذا يرقصان معاً ويدوران حتى اقتربا كثيراً من المكان الذي يقف فيه غوليش حيث تمكّن غوليش أن يرى بكل وضوحٍ الدموع وهي تترقرق في عينيها.

وعندما انتهى الجميع من الرقص، جاءَ الملكُ والد الأميرة وقال إنَّ الوقت الآن هو الأنسب لبدء مراسم الزواج وعقد القران. ويُمكن للأمير العريس الآن أن يضع خاتم الزواج في إصبع ابنته الأميرة.

في ذلك الوقت، وَضَعَ أحد الفرسان رفاق غوليش غير المرئيين لجميع المدعوين في الحفل، قدمه أمام الأميرة ليعترض سيرها مما أدى إلى سقوطها على الأرض. وقبل أن تتمكّنَ من النهوض والوقوف مرة ثانية ألقى فارس آخر من رفاق غوليش

شيئاً كان يحمله في يده فوقها وهو يتمتم ببضع كلمات سحرية غير مفهومة. في تلك اللحظة اختفت الأميرة نهائياً عن أنظار الجميع بفعلِ هذه الكلمات السحرية الغامضة التي جعلتها غير مرئية إلا بالنسبة للفرسان رفاق غوليش حيث سارعَ أحدهم للإمساك بها وبتثبيتها في مكانها.

وسرعان ما بدأت تصدرُ جلبةً وضوضاء في القاعة. صراخ وبكاء، وبدأ الجميع بالبحثِ عن الأميرة الشابة التي اختفت من أمام أعين الجميع في لمح البصر بدون أن يروا من فعل ذلك. وفي تلكَ الأثناء، خرج غوليش والأميرة والفرسان الخياليون من القصرِ دون أن يُوقفوا بسبب التعاويذ الخفية التي يستخدمونها.

وأخذ جميع الفرسان الخياليين يقولون: «حصاني، لجامي، سرجي». وقال غوليش أيضاً «حصاني، ولجامي، وسرجي». وفي تلك اللحظة وجدَ حصانه يقفُ مستعدّاً أمامه. وقال أحد الفرسان الخياليين: «اقفز الآن فوق ظهر حصانك يا غوليش. وأردف الأميرة الشابة وراءَك. يجب علينا أن نذهبَ على الفور من هنا. فالصباح ليس ببعيد عنا الآن».

وهكذا انحنى غوليش من عن ظهر فرسه، ومدّ يده بثبات ليساعد الأميرة الشابة على الصعود إلى ظهر الفرس وراءه. وانطلق بعدها غوليش وجميع الفرسان الخيالين الآخرين بأقصى سرعتهم يسابقون الريح حتى وصلوا شاطئ البحر بسلام.

ثم أَخَذَ كلٌّ واحد منهم يقول بصوتٍ عال: «هيا أسرعوا فوق سطح الماء». ثم قال غوليش أيضاً: «هيا أسرعوا فوق سطح الماء». وما إن انتهوا من قول هذه الكلمات، حتى ارتفعت الأحصنة عالياً في الهواء، وطارت بكل سرعتها فوق سطح مياه البحر الزرقاء حتى وصلتْ عائدة بسلام إلى برِّ الأمان في الطرف المقابل من البحر عند شواطئ إيرلندا.

لم يتوقف الفرسان هنا، بل تابعوا سيرهم بأقصى سرعة إلى مكان قريبٍ من بيتِ غوليش عبارة عن حصنٍ ترابيّ قديم. ولمَّا اقتربوا من الحصن، احتضن غوليش الأميرة الشابة بثبات بكلتا يديه وقفزا معاً من على ظهر الحصان. وعندما رأى الفرسان ما قامَ به غوليش قالوا له: «ما هذا يا غوليش؟ لماذا تخدعنا؟ أنت مخادعٌ يا غوليش، ولن نسامحكَ على فعلتكَ هذه أبداً».

ولكن لم يكن في مقدور الفرسان الخياليين أخذ الأميرة الشابة من بين يدي غوليش بعد أن قفزا معاً من على ظهر الحصان.

ونادى أحد الفرسان الخياليين غوليش: «ما فائدة رحلتنا الآن إذنْ لفرنسا؟» وقال آخر: «هذا لا يهم الآن. ستدفع ثمن ذلك غالياً يا غوليش».

وقال فارسٌ آخر أيضاً وهو يمرُّ فوق الأميرة: «لن تستفيد يا غوليش من أخذك لهذه الأميرة الشابة». وأخذ يتمتم ببعض الكلمات السحرية الغامضة وهو يصفّق بكلتا يديه مرة واحدة، وقال: «فسوف تصاب الأميرة بالبكم منذ الآن. وماذا ستكون فائدتها عندئذ بالنسبة لك يا غوليش؟».

وقبل أن يتمكن غوليش من الرد، اختفى هو وبقية الفرسان الخياليين من أمام الحصن القديم ولم يعد يراهم أحد.

والتف غوليش نحو الأميرة إيزابيلا وقال لها: «الحمد لله أنهم ذهبوا عنا». ألا تفضلين البقاء معي بدلاً من البقاء معهم؟ فأدارت الأميرة برأسها نحوه بدون أن تقول أيّ كلمة. وأعتقد غوليش أنها لا تزال تعاني في داخلها الحزنَ والمتاعبَ. وحاولَ

هذه المرة أن يتابع حديثه معها بنعومة أكثر: «أخشى يا سيدتي أنه يتعين عليك أن تقضي هذه الليلة في منزل والدي القريب من الحصن. وإذا كان هناك أي شيءٍ أستطيع أن أقدّمه لك، فلا ترددي في طلبه. فقط اطلبيه مني وستجدينني خادمك المطيع».

بقيت الأميرة صامتة. كان وجهها شاحباً لكنها حافظت على رباطة جأشها.

وقال غوليش بطريقة تشجعها على الرد: «قولي لي يا سيدتي ماذا تريدينني أن أفعل. أنا لستُ واحداً من هؤلاء الفرسان الخياليين الذين حملوك بعيداً عن بلدك. فأنا ابن فلاح نزيه وشريف. وقد ذهبتُ معهم ولم أكن أعلم وجهتهم ولا غايتهم. وإذا كان بمقدوري الآن أن أعيدك إلى والدك، لما تَرددت للحظة في القيام بذلك».

ونظرَ غوليش إلى وجهها، ورأى أن شفتيها تتحركان كما لو أنها تريد أن تتحدث، ولكن دون أن يخرج أيّ صوت مسموعٍ من فمها.

وقال غوليش: «ولكنْ ألم أسمعكِ الليلة تتحدثين مع الأمير في القاعة الملكية في القصر؟ أم إن هذا الفارس الخيالي الكريه

أفقدكِ القدرة على الكلام عندما تمتمَ بهذه الكلمات الغامضة فوقك وصفق بيديه؟».

رفعت الفتاة يدها، ووضعت إصبعها فوق لسانها لكي تُري غوليش بأنها فقدت صوتها ولم تعد تستطيع أن تتكلم. لم يتحمّل غوليش رؤية منظر فتاة شابة وهي تعاني مثل هذه الحالة الصعبة.

وبدأ يفكر بما يتعين عليه عمله لمساعدة هذه الفتاة المسكينة للخروج من هذا الوضع الحرج. لم يكن غوليش في الواقع يريدُ أن يأخذ الأميرة الشابة معه إلى بيت أبيه. فعلى الرغم من الملابس الفاخرة التي كانت ترتديها، كان يعلم تماماً بأن والديه لن يصدّقا أنه قد ذهبَ إلى فرنسا وعاد برفقة ابنة الملك. في الواقع كان يخشى أن يضايق والداه الأميرة الشابة، ومن يدري لربما أهاناها.

وقال أخيراً: «الآن أعرف ماذا ينبغي لي أن أفعل. سآخذها إلى منزل جدتي». والتفتَ نحوَ الأميرة ليشرح لها أن جدته سوف تهتم وتعتني بها كما يجب. أمّا في حال كان هناك مكان آخر ترغب في الذهاب إليه بدلاً عن ذلك، فهو سيأخذها إلى هناك إذا كان يستطيع ذلك.

هزّتْ الأميرة رأسها موافقة. وهكذا سارا معاً نحو كوخ الجدة. كانت الشمس قد بدأت في الشروق عندما وصلا إلى باب الكوخ. وفي مثل هذا الوقت المبكّر تكون الجدة عادة مستيقظة تنظف الكوخ، وتحضّر وجبة الإفطار الصباحية.

قالتْ الجدة وهي ترحّب بغوليش وبمن معه: «غوليش. غوليش ألست أنت الشاب العطوف الودود الذي دَرَجَ على زيارتي دائماً؟» ولكن ما الذي أتى بك اليوم باكراً؟ وأخذت الجدة تنظر إلى الأميرة الشابة وإلى الملابس الثمينة التي كانتْ ترتديها، وقالت: «من تكون هذه الشابة الجميلة يا غوليش؟ قل لي كيف التقيتها؟ وكيف جئت معها؟».

وأجابَ غوليش: «لن أكذب عليك أبداً يا جدتي. إنها في الحقيقة ابنة ملك فرنسا». ثم روى لها كامل الحكاية، وكيفَ ذهبَ في الليل بصحبه فرسان خياليين قبل أن يعرف خطتهم بخطف ابنة ملك فرنسا. وكيف تمكّنَ أخيراً من إنقاذها من أيدي هؤلاء الأشرار الكريهين، ولكن أحدهم ألقى عليها لعنة سحريّة جعلتها خرساء. وهو لا يدري الآن ماذا يجبُ عليه أن يفعل لمساعدتها. شعرت الجدّة بدهشة كبيرة لدى سماعها ذلك

لدرجة أبقتها جامدة في مكانها وغيرَ قادرة حتّى على التفاعل مع حديثِ حفيدها.

وعندما طلب غوليش من جدّته الطيبة شاكراً أن تستضيف الفتاة مدّةً من الوقت، قالتْ الجدّة الطيبة إنَّها على استعداد لاستضافتها مهما تطاول أمد زيارتها. هذا على الرغم من أن كلاً من الجدّة وغوليش لا يعرفان تماماً المدّة التي يُمكن أن تمضيها الفتاة الشابة في الكوخ، أو كيف يُمكن لهما إعادتها إلى بيتها في فرنسا هذا إذا استطاعا ذلك أولاً.

وأتفق غوليش هو وجدّته على القول للجميع؛ إن الفتاة هي ابنة صديقة قديمة للجدّة جاءت للزيارة من بلد بعيد، وإنها غيرُ قادرة على الكلام. ووعدت الجدّة أن تبقي الآخرين بعيدين عن الأميرة قدر استطاعتها. وبالطبع كان يتعين على غوليش وجدّته أن يستبدلا ملابس الأميرة الفاخرة بملابسَ عادية بسيطة ترتديها الفتيات في المدينة. وقد أظهرت الفتاة بحركة عينيها استحسانها للفكرة.

غادرَ غوليش كوخ جدّته متوجهاً نحو بيت والده. وعندما سألته أمه أين كان طيلة الليلة الماضية بعيداً عن البيت، قال إن النعاس غافله وهو في الخارج ولم يستيقظ إلا في الصباح.

أثار وجودُ الأميرة الشابة الغريبة في بيت الجدّة العجوز الكثير من عجبِ الجيران وحيرتهم، ولا سيَّما أنها جاءتْ بشكل مفاجئ دون أن يعرف أحد من أين أتت ولماذا. واعتقد البعض أن زيارات غوليش المتكررة لجدّته تُعَدّ حدثاً مهماً وقصة تحكى بين الجيران. وهذا كان صحيحاً في الواقع. فقد كان غوليش يتردّد كثيراً على منزل جدّته ليتحدث مع ضيفتها الغريبة.

وبما أن هذه الفتاة لم تكن قادرة على الكلام، ابتكرا نوعاً من لغة الإشارة للحديث بعضهما مع البعض، وهي عبارة عن حركات معدودة تشمل تحريك اليدين والأصابع بطريقة محدّدة، وعن طريق الغمز بالعيون، وفتحِ الفم وإغلاقه، والضحك والابتسامة، إضافة إلى آلاف من الإشارات الأخرى. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى تمكّنا من فهم بعضهما بعضاً تماماً بهذه الطريقة المبتكرة.

كان غوليش دائمَ التفكير بالطريقة التي تمكنه من إعادتها إلى والدها في فرنسا. ولكنه لم يهتدِ إلى الطريق المناسب لكونه لم يسبق له من قبل أن سافر خارج بلده إيرلندا. وفي الليلة التي سافر فيها إلى فرنسا، كان ذلك على ظهرِ حصان سحري طارَ به في السماء. ولم يكن لدى جدّته أيضاً أي فكرة حول هذا الموضوع.

ومع ذلك، كتبَ غوليش عدداً من الرسائل إلى ملك فرنسا وأعطاها بعض التجّار الذين قالوا له إنهم يعتزمون السفر عبر البحار، وقد يتوجهون إلى فرنسا. ولكن كل هذه الرسائل لم تصل إلى مقصدها مع الأسف ولم يستلم الملك ولا واحدة منها.

ومرّتْ شهور عديدة على هذا النحو، وازداد حبُّ غوليش والأميرة بعضهما لبعض يوماً بعد يوم. وخشي الشاب لدرجة كبيرة أن تصل في النهاية إحدى هذه الرسائل إلى يد الملك بالفعل ويبدأ بعدها في البحث عن ابنته بحثاً جدّياً، ويأمر بعدها بإعادتها إلى فرنسا. ومع ذلك، واصلَ غوليش كتابة الرسائل الموجهة إلى فرنسا ولكن بعددٍ أقلَّ من السابق.

وهكذا انقضى عامٌ كاملٌ على هذا النحو. وفي أحد الأيام المصادفة لليوم الأخير من الشهر الأخير من فصل الخريف، وبينما كان غوليش مستلقياً بمفرده على العشب بجانب كوخ جدّته، تذكر فجأة عندما كان في الحصن في إحدى ليالي شهر تشرين الثاني الماضي وكيف سمعَ صوت اقتراب زوبعة كبيرة، وأصوات الفرسان الخياليين والضوضاء والجلبة التي كانوا يحدثونها خلال مسيرتهم نحو الحصن.

فقال لنفسه: «الليلة تصادفُ مرورَ عامٍ كاملٍ على هذا الحدث الذي جرى خلال تشرين الثاني الماضي. وسوف أقفُ الليلة كما فعلتُ في العام الماضي بالقرب من الحصن، فلعلَّ وعسى أن يأتي هؤلاء الفرسان إلى الحصن كما فعلوا في العام الماضي. وقد أسمع أو أرى منهم شيئاً يكون مفيداً لي أن أعرفه، أو يساعدني في استعادة الأميرة لصوتها وتصبحَ قادرة على الكلام مرة أخرى».

ولمَّا اشتدّت الظلمة في تلك الليلة، ذهبَ غوليش إلى الحصن القديم، وانتظر هناك حلول منتصف الليل. كانت ليلة هادئة كصفحة ماء البحيرة الراكدة عندما لا تكون هناك أيّ نسمة ريح تحرك الأمواج فيها. وانتظر هناك لساعة، وساعتين ثم لثلاث ساعات.

وبينما كان يوشك أن يغادر بعد يأسه من قدومهم، سمعَ جلبة وضوضاء تتناهى إلى مسامعه من بعيد وهي تقترب منه شيئاً فشيئاً. وأدرك غوليش ماهية هذه الأصوات. كانت في البدء أشبه بصوت الأمواج وهي تتكسّرُ على الشواطئ الصخريّة. ثمَّ أصبح الصوت مثلَ هدير سقوط مياه الشلالات الكبيرة من أماكن مرتفعة، وأخيراً أصبح الصوت مثلَ ارتطام عاصفة هوجاء بذرا

الأشجار. وبعدها اقتحمت العاصفة بقوة كبيرة جداً الحصن القديم، وأصبح الفرسان الخياليون ينتشرون في جميع جوانبه.

جرى كل ذلك في لمح البصر حتى إن غوليش انقطعت أنفاسه وهو يراقب كل ذلك. ولكنّه استعاد قوته ووعيه على الفور، وأخذ يسترقُ السمعَ بحرص شديد.

وما إن اجتمع الفرسان الخياليون في داخل الحصن القديم حتى علتْ أصواتهم وارتفع ضجيجهم وصراخهم. وكان كلُّ واحد منهم يصرخ بأعلى صوته: «حصاني ولجامي وسرجي». لكن أحدهم أخذ يصرخ بأعلى صوته: «غوليش. هل هذا أنت ثانية يا بني. كيفَ أنت الآن؟ كم أرغبُ في رؤيتكَ مرّة أخرى لكي أعرفَ كيفَ تتدبّرُ أموركَ مع الأميرة؟ كم أرغبُ في رؤيتكَ لأشمتَ بكَ وأقولَ لك لا فائدة ترجى الليلة من قيامك بمناداة فرسك، فلن تتمكن من خداعنا مرة أخرى».

وقال آخر: «ألستَ تتكلّمُ عن الشاب الصبور الذي رافقنا السنة الماضية والذي يتحمل مشاق العناية والاهتمام بامرأة لم تقلْ له طوال العام أيّ كلمة حتى ولو كانت كيف أنت؟».

وقال آخر: «لقد انقلب السحر على الساحر وهو يُعاني ويدفع ثمن ذلك الآن. فهو لا يعلمُ حتى بوجود نبتة خضراء غريبة تنمو في حديقة بيته إذا ما غلاها وسقاها للأميرة لبَطُلت لعنة التعويذة السحرية، واستعادت كامل صوتها كما كان من قبل».

وقال آخر: «دعونا ننسَ أمر هذا الشاب وننطلق في طريق العودة قبل نهاية الهزيع الأخير من الليل». وهكذا ارتفع الجميع في الهواء عائدين من الطريق الذي أتوا منه. وقف غوليش في مكانه يفكّرُ بكل ما سمع ورأى. وأخذ يتساءل فيما إذا كان هناك بالفعل نبتة خضراء غريبة في حديقة بيته يُمكن أن تعيدَ للأميرة صوتها وتجعلها قادرة على الكلام مرة أخرى. وقال في نفسه: «أمِنَ المعقول أن يكون ما يقولون صحيحاً؟ سوفَ أبحثُ عن هذه النبتة في حديقة الدار فور شروق الشمس وأتأكّدَ بنفسي».

نهضَ غوليش مع خيوط الفجر الأولى، وذهبَ مباشرة للبحثِ عن نبتة غريبة في حديقة البيت وما حوله. كان يحاولُ العثور على أيّ عشبة غريبة غير مألوفة أو معروفة لديه من قبل. وبالفعل لم يمضِ عليه وقت طويل في البحث حتى عثرَ على نبتة غريبة طويلة تنمو عند طرف البيت تماماً شمَّ منها غوليش رائحة الحياة.

فوقفَ بجانبها وهو يتأملها عن قربٍ من جميع الجوانب. فلاحظَ وجود سبعة أغصان صغيرة تتفرع عنها سبع أوراق تنمو على طول كل غصن تنزُّ منها عصارةٌ بيضاء اللون. وقالَ في نفسه: «إنه أمرٌ غريب حقاً أنيّ لم ألحظْ وجود هذه النبتة من قبل. وإذا كان في هذه النبتة حقاً أي فائدة طبية ما فسوف يكون أمراً غريباً أيضاً».

أخرجَ غوليش سكينته، وقطع هذه النبتة الغريبة، وحملها إلى داخل البيت. وهناك أزال الأوراق عتها وقطّع ساقها إلى قطع صغيرة. عندها خرج منها سائل أبيض كثيف.

وضع قطع الساق والأوراق ضمن اناءٍ صغير فيه قليل من الماء. ووضعَ الإناء فوق النار حتى بدأ الماء في الغليان وتغيّرَ لونها. ثمَّ برّد الماء وسكبِ قليلاً من السائل في فنجان. وفجأة خطرَ في ذهنه أنه ربما تكون هذه النبتة سامة، وأن يكون هؤلاء الأقزام قد أحسّوا بوجوده وتعمّدوا الحديث بحريّة على أنهم وحدهم، وذلك بغرضِ خداعة وجعله يحضّر هذا المشروب السام لقتل الأميرة.

فوضع الفنجان على الطاولة، وجعل قطرات منه على أعلى إصبعه ليتذوّقها برأس لسانه. في الواقع لم يشعرْ بوجود مرارة في السائل، بل كان له طعمٌ حلو ومقبولٌ مما شجّعه على شربِ القليل جداً منه في البدء ليقوم بعدها بشرب كمية أكبر فأكبر تباعاً حتى شرب نصف محتوى الفنجان تقريباً. شعرَ غوليش بالنعاس الشديد، وراح يغط بعدها في سبات عميق حتى صباح اليوم التالي.

وعند الفجر، ذهبَ مباشرة إلى بيت جدّته وهو يحمل السائل في يديه. لم يشعر غوليش يومئذ بمثل هذه الثقة بالنفس وبالحيوية والقوة والمعنويات العالية وبالفرح والمرح من قبل. كان متأكداً لدرجة كبيرة بأن هذا السائل الذي شربَ منه يوم أمس هو الذي منحه كل هذه القوة والحماس الذي يشعرُ بهما الآن.

ولّما وصلَ إلى البيت وجدَ جدّته والأميرة في الداخل تنظّفان البيت وترتبان محتوياته. وكانتا تشعران بالدهشة والغرابة الشديدين لعدمِ زيارة غوليش لهما طيلة يوم أمس حتى شعرا بالقلق الشديد على سلامته.

روى غوليش كلَّ ما حصل معه يوم أمس وهو يؤكد لهما أن هذا الشراب سوفَ يمنح الأميرة الشابة قوة كبيرة ولن يشكّلَ أيّ خطرٍ عليها لكونه قد جرّبه يومَ أمس، وشعرَ بعدها بتحسن صحته وقوته. وقدّمَ غوليش الفنجان المملوء بالسائل الأبيض للأميرة الشابة الذي تناولته لتغطَّ من بعد ذلك في نومٍ عميق فوق سريرها.

بقي غوليش وجدّته أمام سرير الأميرة طوال الليل حتى تستيقظ من نومها تتنازعهما خواطرُ الأملِ والخوف، بين الآمال والتوقعات في إنقاذها وبين مخاوف الفشل وإمكانية إيذائها عوضاً عن ذلك.

نامت الأميرة بعمقٍ طيلة الليل. وعندما أشرقت الشمس، استيقظت الأميرة أخيراً. وفركت عينيها وبدت للوهلة الأولى وكأنها لا تعرفُ أينَ هي.

كان غوليش والجدة يشعران بقلقٍ شديدٍ لدرجة التوتر في انتظار ما إذا كانتْ ستتمكن من الكلام مرة أخرى. وبادرها غوليش بالقول: «هل نمت جيداً أيتها الأميرة؟».

فأجابتْ بقولها: «نعم لقد نمُّت جيّداً. شكراً لك».

ولم يكدْ غوليش يسمع منها ذلك حتى أطلق صرخة فرحٍ مدوية، واقترب منها ليجثو أمامها على ركبتيه وهو يقول: «أيتها الغالية. تكلّمي مرة أخرى من فضلك».

وقالت الأميرة الشابة إنها تعرفُ أن غوليش هو الذي غَلَى النبتة الغريبة وأحضر لها السائل لتشربه، وإنها تشعرُ بعظيم الامتنان له إزاء ذلكَ ولكل اللطافة التي أظهرها نحوها، ولحسنِ الاهتمام بها ورعاية شؤونها منذ اليوم الأول الذي جاءت فيه إلى إيرلندا. وأكّدتْ له أنها لا يُمكن أن تنسى له هذا المعروف مدى حياتها أبداً.

كان غوليش يشعر بعظيم الراحة والغبطة لدرجة أنه كان مستعداً بعدها للموت بسعادة ورضا. وقامت الجدّة وأحضرت الطعامَ، وجلسَ الجميعُ في جوّ مفعمٍ بالمرح والبهجة يتناولون الطعامَ بشهية.

ودأبَ غوليش بعد ذلك على زيارة الأميرة عدة مرات. وكان يقضي في بيت جدّته معظمَ أوقاته حتى اعتقد الجميع أنه من الأفضل أن يتزوجها. وهكذا كان. وكان حفلُ زفافها الأفضل في كل المدينة.

وصادف أن وصلتْ بالفعل إحدى الرسائل التي كان قد أرسلها غوليش إلى ملك فرنسا الذي أرسل على الفور رسولاً ليعرفَ مكان ابنته، وقد وجدَ هذا الرسول أنها قد تزوجت وتعيشُ حياة سعيدة مع زوجها. فعادَ رسول الملك على الفور لإعلامه بذلك.

وقد شعرَ الملك بالغبطة والفرح الشديدين لسماع أن ابنته ليستْ فقط على قيد الحياة، وتتمتع بصحة جيدة، بل لكونها قد تزوجتْ وتعيشُ حياة زوجية سعيدة أيضاً، لا سيَّما أنه كان يعيشُ في حزنٍ كبيرٍ منذ اليوم الأول لاختفاء ابنته بشكلٍ غامضٍ ظنّاً منه أن اختفاءَها هو عقابٌ من الله على إجباره إياها على الزواج من رجل لا تريده. فأرسلَ على الفور هدية زواجٍ ملكيّة كبيرة مع رسالة تحملُ أجمل أمنياته لابنته بالسعادة الدائمة، واعداً إيّاها بزيارتها مراراً في الأيام القادمة.

وكما يقولون، لو بحثتَ في جميع أرجاء العالم لما وجدت زوجين أكثر سعادة وهناءة من غوليش والأميرة إيزابيلا(*).

* * *

(*) المصدر: يعقوب جوزيف ١٨٩٢ - إيرلندا.

الأم العجوز

حكاية شاب سعى للنجاة بأمة من مصير محتوم، فهل نجح في النهاية في ذلك؟

تأليف: باتسو ماسو

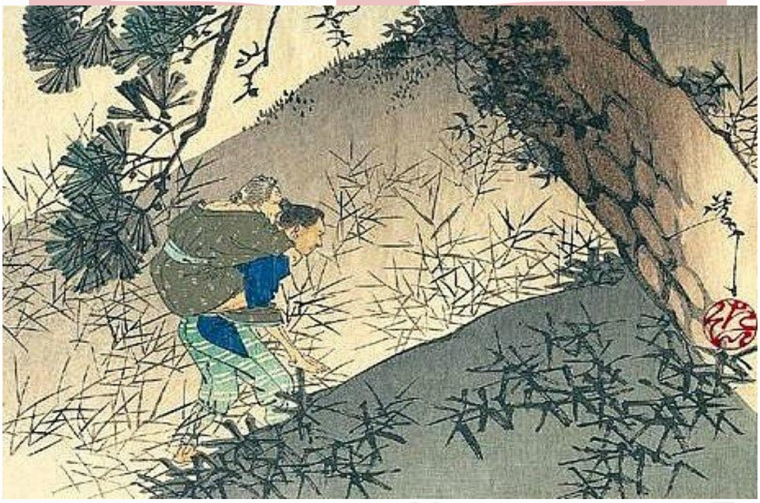

عاشَ في قديم الزمن على سفح جبل أوباتسوياما في مقاطعة شاينغ مزارعٌ فقيرٌ وأمّه العجوز التي كان يحرصُ أشدَّ الحرص على العناية بها والاهتمام بشؤونها بعد وفاة والده. وكانا يملكان

قطعة أرضٍ تنتج لهما ما يكفيهما من الطعام. كما كانا متواضعين ومسالمين إلى درجة كبيرة ويعيشان حياة هادئة وسعيدة إلى أن جاء يومٌ تعيسٌ قَلَبَ حياتهما فجأة رأساً على عقب.

كان يحكم المنطقة في ذلك الوقت حاكمٌ مستبدّ. وعلى الرغم من كونه في الحقيقة محارباً شجاعاً، كان يتخوّفُ كثيراً من أي شيء يُمكن أن يؤدي إلى تدهور الصحة وفقدان القوة والعزم. وهذا ما حمله على إصدار إعلان صارمٍ في منتهى الوحشية لجميع السكان يقضي بالتخلص على نحو فوري من جميع المسنين في المنطقة.

كانت تلك الأيام التي نتحدّثُ عنها في قصتنا تتّصفُ بالفعلِ بالهمجيةِ والظلمِ المتوحّش، ولذلك لم تكنْ عادة التخلي عن العجائز في أماكن نائية أو مقفرة ليموتوا وحدهم ممارسة نادرة أو قليلة الحدوث، فقد كان يُنظَر إليهم على أنهم عبء على كاهل المجتمع يستنزفُ مدّخرات الأسرة وينبغي التخلص منه. وكان المزارع المسكين، حاله في ذلك مثل حال الآخرين، يُحبُّ أمه لدرجة القداسة. ولذلك ملأ إعلان حاكم المنطقة الصارم والفوري قلبَهُ بالخوفِ والحزنِ الشديدين.

لم يكنْ أحد من السكان يتجرأ على مخالفة أوامر وإعلانات حاكم المنطقة، فقد اعتادوا تنفيذها بطاعة عمياء وبدون أي تردد. ولذلك أخذ المزارع يستعدُّ بشكلٍ يائسٍ وحزين، والألم يعتصر قلبه، لما كان يعدُّ في ذلك الوقت أفضلَ أنواع الموت الرحيم.

وفي اليوم التالي، أخذ المزارع قبلَ غروب الشمس وبعد أن انتهى من عمله اليومي كالمعتاد في الحقل، حفنة من الأرز الأسمر الذي يُشكِّل عمادَ الغذاء لعامة الناس، وشَرَعَ بطهيها وتنشيفها جيداً ثمّ رَبطها ضمن قطعة قماش مربعة الشكل، ووضعها في صُرَّة حملها على كتفه مع حبةٍ من نبات اليقطين الطويل المجوفة بعد أن ملأها بالماء البارد والعذب. ثمَّ حمل أمه العجوز التي لا حول لها ولا قوة على ظهره، وبدأ رحلة الصعود المضنية إلى أعلى جبل أوباتسوياما الذي يعني باللغة المحلية جبل الموت.

كان الطريق طويلاً ومرتفعاً جداً يتقاطع مع طرقاتٍ ضيقةٍ ومتعرجةٍ أخرى شَقّها الصيادون والحطابون على مر الزمن. وكان المزارع وأمه في بعض الأحيان يضلّان طريقهما ويسيران على غير هدى، ولكنه رغمَ ذلك لم يتراجع في سيره، فلا يهم سواء سَلكَ هذا الطريق أم غيره ما دام يأخذه في النهاية إلى أعلى

الجبل. كان المزارع يصعدُ الجبلَ بعزمٍ وثبات يريد أن يصلَ إلى القمّة الجرداء مهما كلّف الثمن.

كان سكّان المنطقة يُطلقون على هذا الجبل اسم أوباتسوياما الذي يتم فيه عادة التخلص من المسنين بتركهم على قمّته العالية الجرداء التي يلفّها الغموضُ والكآبة والوحشة القاتلة، ليموتوا وحدهم في النهاية بسبب الجوع أو الجفاف أو انخفاض حرارة الجسم، أو بمزيج مروع يشمل كل ما سبق... والنتيجة موتٌ مؤكدٌ وبطيءٌ يصاحبه ألمٌ شديدٌ.

وعلى الرغم من كِبر سنّها، لم تكنِ الأم العجوز ضعيفة البصر لدرجة كبيرة لكيلا ترى بوضوح كل ما حولها، لكنّها لاحظتْ تخبّطَ خطوات ابنها أثناء انتقاله من طريق إلى أخرى، فأخذ قلبها المحبُّ لولدها المزارع يخفق بشدة بسبب خوفها الشديد عليه. إذ لم يكن ابنها يعرفُ بشكلٍ كافٍ الطرقات الجبلية المتشابهة والمتشعبة التي كان يسير عليها طيلة الوقت بحواس شاردةٍ وهو يحمل أمه على ظهره، ولذلك ستكون عودته إلى البيت عند سفح الجبل بمفرده محفوفةً بالمخاطر الكثيرة.

كان خوفُ الأم الشديد على ولدها المزارع عندما سيعود بمفرده إلى البيت يملأ صدرها. ولذلك عمدتْ إلى مدّ يدها التي ترتجف من شدة الضعف والوهن لتقطفَ البراعم والأوراق الخضراء من غصون الأشجار كلّما تمكّنتْ من ذلك، وتلقيها بهدوء على طولِ الطريقِ الصاعدِ لقمة الجبل لترشد ابنها المزارع عند العودة إلى الطريق الصحيحة ليسيرَ عليها ولا يضلّ في طرقات الجبل المتشابهة والمتشعبة. وهكذا أصبحَ امتداد طريقهما الذي سارا عليه للوصول إلى قمة الجبل مفروشاً بأوراقِ وبراعمِ الأغصان الخضراء.

كان صوتُ الأم يرتعشُ من شدة القلق والخوف على ابنها المزارع وهي تُرشده كيف يسيرُ على الطريق الصحيحة للعودة إلى البيت بسلام عند سفح الجبل. وحمل صوتها الخفيض في طياته محبّة فطرية صادقة لولدها لا تخالطها الأنانية أو البغضاء في شيء وهي تقول كلماتها الأخيرة لترشده لطريق العودة بسلام قبل أن تواجه الموت بمفردها بقلبٍ منكسرٍ في هذا المكان الموحش.

فقالت له: «افتح عينيك جيداً يا بني فطرقات الجبل ملأى بالمخاطر. انظر جيداً أمامك، واتبع الطريق المفروش بأوراق وبراعم أغصان الأشجار الخضراء التي سترشدك إلى الطريق الصحيح

للوصول بأمان إلى البيت عند سفح الجبل». التفت المزارع إلى الخلف، وأخذ ينظر بعيون ملأى بالدهشة تارة إلى امتداد الطريق المفروش بأوراق أغصان الأشجار الخضراء وبراعمها، وتارة أخرى إلى أمه العجوز المسكينة ويديها الذابلتين المتجعدتين اللتين عملتا بمحبة صادقة على تقديم الرعاية له منذ الصغر.

شعرَ بأن عاطفة أمه الفطرية ومحبتها له قد تغلّبتْ على عاطفته ومحبته لأمه. فانحنى أمامها حتى كاد يلامس جبينه التراب، وقالَ بصوت مرتفع: «يا أمي الحنونة، لقد حطّمتْ عاطفتك الحنونة قلبي. لن أتركَكِ هنا وحيدةً أبداً. سنتبع معاً أوراق أغصان الأشجار الخضراء وبراعمها لنعود إلى البيت، ونموت معاً عندما يشاءُ القدر».

وحمل أمه على ظهره مرة ثانية. وشعرَ هذه المرة بأن حِمله قد أصبح أخفَّ الآن، وأخذ يحثُّ الخُطا في النزول من أعلى الجبل على ضوء شعاع القمر الذي كان يرتجف من شدة البرد حتى وصل إلى الكوخ الصغير عند سفح الجبل. ووضع والدته في حجرةٍ صغيرة جداً مخفية أسفل أرض المطبخ مخصصة لوضع المؤونة، وحَرصَ على أن يُزوّدها بكل ما تحتاج إليه.

كانت المخاوف تنتابه طيلة الوقت من أن يكتشف أحد مكانها. وهكذا مرّت الأيام وبدأت الطمأنينة تسري في داخله وتعطيه الأمان الزائف إلى أن أرسلَ حاكمُ المدينة الرسلَ من جديدٍ وهم يحملون أمراً غير معقولٍ أيضاً يهدفُ منه فيما يبدو إلى تعزيز مكانته وسلطته في المنطقة، وكان هذا الأمر هو أن يقدّم كل واحدٍ من السكّان حبلاً مصنوعاً من الرماد. اهتزت مدينة المزارع المسكين بأكملها من شدة الخوف مثل باقي مدن المنطقة. فالأوامر يجب أن تُطاع وتنفذ على الفور.

وفي الليلة نفسها، ذهبَ المزارع إلى أمه المختفية عن الأنظار وهمس برفق في أذنها بطلب حاكم المنطقة الجديد والخوف يملأ صدره. فقالتْ له: «أمهلني يا بنيّ حتى الغد لأرى كيف يُمكن أن نتدبر هذا الأمر».

وفي صبيحة اليوم التالي أخبرته بما يتعين عليه القيام به، قائلة: «انقع حبلاً عادياً في المياه المالحة ليومين متتالين وجفّفه جيداً بعد ذلك. ثم مُدّه على طولِ صفٍّ من الأحجار المسطّحة وأشْعِل النار به في ليلة لا تكون فيها الرياح قوية. وإذا احترق احتراقاً كاملاً،

حافَظَ على شكله، وهذا سيكون حبلاً من الرماد يُمكنك تقديمه إلى الحاكم».

سارعَ المزارع، ودعا جميع جيرانه للاجتماع على الفور، وشرحَ لهم طريقة عمل حبلٍ من الرماد. ووضع حبلاً عادياً، كان قد نقعه في المياه المالحة وجفّفه جيداً، فوق صف من الأحجار المستوية وأشعل النار به. وعندما خمدت النيران كان هناك فوقَ صفِّ الأحجار المسطّحة حبلٌ من الرمادِ بكامل تفاصيله من الألياف والعقد.

وعندما ذهب المزارع إلى حاكم المنطقة حاملاً حبل الرماد، نظر الحاكم بإعجابٍ ودهشة شديدين إلى كلٍّ من المزارع وحبل الرماد الذي أتى به. وشعر بالسعادة لذكاء المزارع وأثنى عليه مطولاً أمام الجميع، ومنحه العديد من القطع الذهبية. وسأله برفقٍ ولينٍ عن كيفيةِ صنعه للحبل ومن أين استمدَّ فكرته. فقال المزارع: «...يجب عليّ أن أقول الحقيقة»، وانحنى أمام حاكم المنطقة طيلة الوقت وهو يروي حكايته.

كان الحاكم يستمعُ بهدوء وروية طيلة الوقت ثم أطرقَ برأسه وهو يُمعنُ التفكيرَ بما سمعه. وأخيراً رفع رأسه وقال:

«مقاطعة شاينغ تحتاج إلى ما هو أكبر من قوة الشباب. آه ما كان لي أن أنسى القول الشائع عندما يشتعل الرأس شيباً: «مع تاج الثلج تأتي الحكمة».

ومن تلك اللحظة أُلغي هذا الأمر الذي يتصف بالظلم المتوحش، وأصبحت الحكاية أيقونة خالدة في التراث الشعبي الياباني يتحدّثُ بها الناس حتى يومنا هذا(*).

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

(*) المصدر: باتسو ماسو - اليابان.

شقيق الباشا في بغداد

الوعد الصادق... شيمة النبلاء

تأليف: جان أورين

كان يا ما كان أمٌّ عجوز عندها ولدان اثنان. وكان الولد الكبير باشا من أسياد مدينة بغداد. ولمّا كَبُر الولد الصغير بدأ الناس يقولون

له: «ألستَ محظوظاً بِكَون شقيقك باشا في مدينة كبيرة كبغداد».
فكان الولدُ الصغير يردّ عليهم بقوله إِنَّهُ لا يعلم أن لديه شقيقاً في الأساس ليكونَ بهذه الصفة والمكانة المرموقة في بغداد. وكانوا يُصرُّون عليه بالقول: «نعم لديك شقيق كبير. ولكنّ يبدو أن أمك لم تخبرك عنه لأنها تخشى أن ترحلَ عنها أنت أيضاً كما رحلَ شقيقك من قبل».

وفي اليوم التالي ذهب الشاب إلى أمهِ وقال لها: «أصحيحٌ ما يقوله الناس لي: إنَّ لي شقيقاً أكبر مني؟» فأجابت الأم على الفور: «نعم يا بني. ما قالوه لك صحيح، ولكن هؤلاء لا يقولون لك ذلك حبّاً بكَ أو رغبة في مصلحتك».

وهكذا أخذ الشاب يطلب من أمه يوماً إثرَ يومٍ أن توافقَ على سفره للالتحاق بشقيقه في بغداد، واستمرت الأم في الرفض حتى شعرت في يوم من الأيام بأنها لم تعد قادرة على ثنيه عن طلبه هذا. وقالت له: «حسناً يا بني. لك ما تريد، ولكن ليس قبل أن تُقسمَ أمامي بأن تعودَ على الفور إلى البيت في حال التقيت رجلاً أجرد بلا لحيهٍ وشارب في الطريق».

وهكذا انطلق الشاب في رحلته صوب بغداد يُلهيه الأمل بحياة أفضل هناك. وبعد مسيرة ثلاثة أيام التقى رجلاً أجرد بلا لحية وشارب. وهكذا عاد أدراجه على الفور إلى البيت كما طلبتْ منه أمه. وبعدَ انقضاء مدّة قصيرة من الزمن انطلق من جديد في رحلته صوبَ بغداد. وبعد مسيرة سِتة أيام التقى مرة ثانية رجلاً أجرد بلا لحية وشارب في الطريق، ولكنه قرّر في هذه المرة ألا يعود إلى البيت، بل أن يواصلَ سيره في رحلته الى بغداد.

فسأله الرجل الأجرد عن وجهته، فأجابه الشاب بدون اكتراث مفشياً سره دون أنْ يدري بأنه يريد أن يزورَ شقيقه الباشا في مدينة بغداد. فقالَ الرجل الأجرد: «وأنا أيضاً أريدُ التوجّه صوب بغداد. فدعنا نُهوّن على أنفسنا من وعثاء السفر ونَسِرْ معاً على طول الطريق المؤدي إلى هناك».

وهكذا بدأا السيرَ على طول الطريق، وبعد مسيرة طويلة شعرَ الشاب بالعطش. فأخذه الرجل الأجرد الى بئر ماء لا يوجد عليها دلو ولا حبلٌ لرفع الماء. فقال له: «سأربطك إلى حزامي وأنزلك إلى داخل البئر حتى تستطيع أن ترتوي من الماء ما تشاء». وهكذا نزل الشاب إلى داخل البئر وشربَ من مائه

ما يكفيه، ونادى بعدها على الرجل الأجرد في الأعلى لكي يُخرجه من البئر.

لكنَّ الرجل الأجرد هذا ردّ عليه بأنه سوف يفعل ذلك في حال وافقَ أن يستبدلا ملابسهما منذ الآن وصاعداً بحيث يصبحُ الرجل الأجرد هو الشاب شقيق باشا بغداد، وأن يُقسم الشاب قسماً قاطعاً على هذا. وأمام هذا الابتزاز على حياته، لم يكنْ أمامَ الشاب من خيارٍ سوى القبول.

وهكذا ساعد الرجل الأجرد الشاب على الخروجِ من داخل البئر ليواصلا بعدها السير على طولِ الطريق صوب بغداد حتى وصلا قصر الباشا الذي فَرِحَ بقدوم شقيقه فرحاً كبيراً وأحسن استقباله وضيافته.

وفي صباح اليوم التالي، قال الرجل الأجرد للباشا الذي قدم نفسه بالطبع بوصفه شقيقه: «هل لديك مشكلة تواجهك هنا في بغداد؟ تستطيع أن تستخدم مرافقي الشاب، فهو شجاعٌ يستطيع القيام بكل المهام مهما صَعُبتْ». كان الرجل الأجرد يريد في الواقع أن يتخلص من الشاب شقيق الباشا الحقيقي خشية أن يُفشي السر ويُخبر الباشا بحقيقته. فقال الباشا: «هناك تنّينٌ ضخمٌ

ذو رأسين يُغير علينا بين فترة وأُخرى. فلعلّه يستطيع أن يقتله ونتخلّصَ منه ومن شروره إلى الأبد».

وعندما سمع الشاب ذلكَ قال للرجل الأجرد: «أعطني هراوتين غليظتين وأشعلوا المشاعل في ساحة القصر». وحضَّر الباشا على الفور ما طلبه الشاب الذي ذهبَ إلى الساحة حاملاً الهراوتين. استقطب ضوء المشاعل التنّينَ وعندما اقترب من الساحة رأى الشاب واقفاً في منتصفها حاملاً الهراوتين، فهجمَ عليه يريد أن يلتهمه، ولكنّ الشاب عاجلَ التنين بضربةٍ قوية على كلّ رأس من رأسَيْه ليصرعه على الفور.

سرى خبرُ قتل الشاب للتنين كالنار في الهشيم، ومنحهُ الباشا ميدالية ذهبية، وأصبح معجباً بالشاب لدرجة كبيرة في حين شعر الرجل الأجرد بالانزعاج الشديد لأنه كان لا يزال يخشى أن يُفسد عليه الشاب هذا الأمر، ويُخبر الباشا بالحقيقة، وبأنه هو شقيقه الحقيقي.

وسأل الرجل الأجرد الباشا من جديد: «هل لك أي أمنيات أخرى؟». فأجاب الباشا: «أجل. لقد خطبتُ منذ مدّةٍ ابنة ملك

بلاد فارس. وكنتُ كلما أُرسل جنودي إلى هناك عادوا خائبين. أرسل الشاب إلى هناك». وهكذا انطلق الشاب على رأس مجموعة قوامها سبعة وتسعون من الجند بكامل عتادهم وخيولهم.

وفي الطريق صادفَ الشاب مع جنوده رجلاً يجلسُ على ضفّة نهر، ويبتلع كل ما فيه من ماءٍ في جوفه ثم يعيده إلى النهر مرة ثانية. توقّفَ الشاب وجنوده وأخذوا ينظرون من أعلى ظهور خيولهم باستغراب شديد إلى هذا الرجل وما يفعله، ذلك أنه لم يرَ أحدهم من قبلُ رجلاً يستطيعُ أن يبتلع هذا المقدار من المياه.

وأخيراً تقدّم الشاب من الرجل وسأله: «ماذا تفعل يا هذا؟» فأجاب الرجل: «أجلسُ هنا كما ترى على ضفّة النهر وألعبُ بالماء، إذ لا يوجدُ عندي شيء آخر أقوم به». فسأله الشاب: «ما رأيكَ إذن أن تأتي معي؟». فأجاب الرجل: «نعم. أرغب في ذلك». وهكذا انطلق الرجل معهم في مسيرتهم نحو بلاد فارس.

وفي الطريق التقى الشاب رجلاً آخر يلهو مع بعض الأرانب. إذ كان يطلقها ثم يُطاردها ليمسكها من جديد. فسأل الشاب الرجل: «ماذا تفعل يا هذا؟». فأجاب: «لا يوجد شيءٌ آخر

أفعله غير ما رأيتَ». فسأله الشاب: «ما رأيك إذن أن تأتي معي؟» فأجاب الرجلُ على الفور: «نعم. أرغب في ذلك حقاً». وانضم إلى البقية في رحلتهم.

ولمّا توقفوا عن المسير طلباً لبعض الراحة تحت أشجار البلوط، وجدوا في أعلى إحداها عشّاً فيه عدد من صغار الصقر، وثعباناً مرقطّاً يتلوّى في صعوده على جذع الشجرة يريد أن يلتهم ما في العش. ولمّا رأى الشاب ذلك، تسلّقَ الشجرةَ على الفور وقتل الثعبان. في تلك اللحظة وصلتِ الأم وحاولت أن تفقأ عينَ هذا الشاب الذي أنقذ صغارها من موت محقق ظنّاً منها بأنه يريد بهم شرّاً، لكن الصغار بدؤُوا يصرخون. وقال أحدهم لأمه: «لا. لا يا أمي. لقد أنقذنا الرجلُ منَ الثعبان الغادر». فقالت الأم للشاب: «لقد أنقذتَ أبنائي من الثعبان. فما عساي أن أقدّمَ لكَ مقابل ذلك؟».

فردَّ عليها الشاب بأنه لا يريدُ شيئاً في الواقع مقابل معروفه. فنزعت الأمُّ ريشة كبيرة من جناحها وقالتْ: «خُذْ هذه الريشة. وإذا احتجتني يوماً فما عليك سوى أن تحرقَ الريشة، وستجدني أمامكَ على الفور لمساعدتكَ وتنفيذ كل ما تطلبه مني». فأخذ

الشاب الريشة ودسّها في جيبه، ثم انطلقَ الجميع ليواصلوا سيرهم نحو هدفهم المنشود.

وفي الطريق أيضاً مروا بوادي النمل. والتفوا حوله لكيلا يحطّموا مساكنَ النمل وهم لا يشعرون. فخرجتْ عليهم ملكة النمل وسألتهم: «لماذا لم تعبروا من الوادي كما يفعلُ غيركم؟» فأجابَ الشاب: «خِفتُ أن أحطم ومن معي مساكِنكم بسنابكِ خيلنا من دون أن نشعر. لا أريدُ أن أتسبّبَ لكم بأيّ أذى مهما كان». فقالتْ ملكة النمل: «تقديراً لنبلكَ وعرفاناً بالجميل، سوف أقدّمُ لكَ ورقة الشجرِ هذه. وإذا احتجت لمساعدة يوماً فما عليك سوى أن تشعل النار بالورقة، وسوفَ آتي لمساعدتك على رأسِ كاملِ الجيش الذي لم تسبّبْ له أيّ أذى».

وبعد مسيرة عدة أيام أخرى، وصلَ الشاب على رأس مجموعته إلى مشارفِ قصر الشاه، وقال له بهدوءٍ وروية: «لقد جئتُ يا سيدي لاصطحاب كريمتكم الأميرة إلى خطيبها الباشا في بغداد». فأجابَ الشاه بصوت صارم: «لكَ ما تريدُ ولكن فقط إذا تمكّنَ أحدكم من تناولِ ثلاثمئة طبقٍ من الطعام». وهي كمّيةٌ كبيرةٌ من الطعام لن تستطيعَ كامل مجموعة الشاب تناولها

حتى ولو أرادوا ذلك. فتقدّمَ على الفور الرجلُ الذي كان يجلسُ على ضفة النهر، ويبتلع كل مائِهِ ثم يُعيده إليه، وأعرب عن استعداده للقيام بذلك. فأرسل الشاه في طلبِ ثلاثمئة طبق من الطعام، فتناولها الرجل الواحد تلو الآخر حتى آخر طبق وبدون أن يُبقي ولو فتاتاً.

بدأ القلقُ يتسرّبُ إلى قلب الشاه. فقال: «إن استطاع أحدكم أن يفوز في حلبة السباق مع أسرع خيولي في الإسطبل ويأخذ قصب السبقِ في آخر الحلبة فسوف يتمكّن من اصطحاب الأميرة إلى خطيبها في بغداد». فتقدّم على الفور الرجل الذي كان يطلقُ الأرانب في البرية ثم يعيد الإمساك بها من جديد، وقال للشاب: «لا تقلق. سوفَ أفوزُ في السباق وآخذ قصب السبق من أجلك».

وعندما وصلت الخيول المطهمة إلى ميدان السباق، قال الرجل لفُرسان الشاه: «سوف أعطيكم الفرصة لتنطلقوا قبلي، وسوف أنطلق من بعدكم». وهكذا انطلق الفُرسان في حلبة السباق، ثم انطلق بعد ذلك الرجل الذي كان يطارد الأرانب في البرية بأقصى سرعته حتى لحقَ بالفُرسان وتساوى في الركب

معهم قبل أن يتجاوزهم جميعاً بعد ذلك ويأخذ قصب السبق. وعندما أظهر الرجل للشاه قصب السبق الذي أخذه كعلامة على فوزه بالسباق، أصبحَ الشاه يشعر بمزيدٍ من القلق ولكنه مع ذلك كان مصمّماً على عدم إرسال ابنته لخطيبها في بغداد.

وقال الشاه بعد ذلك: «لدي مخزن مملوء بخليط من القمح والشعير والشوفان. يجبُ عليك أن تَفرزَ هذه الحبوب كلّ على حدةٍ خلال ثلاثة أيام، وإلا فلن أسمحَ لك باصطحاب ابنتي الأميرة إلى خطيبها الباشا». شعر الشاب ببعض اليأس لأنه كان يدركُ مدى صعوبة هذا العمل لدرجة الاستحالة خلال هذه الفترة القصيرة. فتذكّر على الفور ورقة الشجر التي أعطته إيّاها ملكة النمل، فأشعل فيها النار على الفور لكي يستدعيها لمساعدته كما عرضتْ عليه.

وعلى الفور ظهرتْ أمامه ملكة النمل وسألته عما يريد. فأخبرها بحكاية مخزن الحبوب، فاستدعت جميع أفراد النمل الذين تمكّنوا من انهاء العمل المطلوب خلال ثلاثِ ساعات فقط. فأرسل الشاب رسالة للشاه تقول: «فُرِزَت الحبوب إلى ثلاث مجموعات

منفصلة. الآن يتعين على جلالتكم إعطائي كريمتكم الأميرة خطيبة الباشا كما وعدتم».

أخذَ الشاه يتساءلُ في استغرابٍ شديدٍ كيف تمكّنَ هذا الشاب من إنجازِ هذه المهمة المستحيلة خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة جداً. فذهبَ بنفسه إلى المخزن ليتأكّد مما قاله الشاب بأمّ عينه. وقد أُصيبَ بالدهشة عندما رأى الحبوبَ وقد فُرزت بالفعل إلى ثلاث مجموعاتٍ منفصلة.

فقال الشاه من جديد: «لا يزال لدي طلب آخر. يوجدُ في سفح أحد هذه الجبال المجاورة كهفٌ فيه نبعٌ ماؤه يُحيي الموتى بمجرّد سكبِ قطراتٍ منه على وجوههم، أريدكَ أن تحضرَ لي زجاجة ماءٍ من هذا النبع».

تذكّرَ الشاب ريشة أم صغار الصقور، فاشعل النار فيها لكي يستدعيها لمساعدته كما عرضتْ عليه. فظهرت أمامه الأم وسألته عما يريد. فأخبرها بحكايةِ الماء الذي يجبُ عليه إحضاره من الجبال وهو يشير بإصبعه إليها. فطارت الأم على الفور نحو الجبال وعادتْ للشاب بقارورة الماء قبل أن يرتد إليه طرفه وسلمته إيّاها. فقدّم الشاب على الفور قارورة الماء إلى الشاه في

القصر الذي أعطاها على الفور لابنته. وافقَ الشاه بعد ذلك على مغادرة ابنته للحاق بخطيبها الباشا. وهكذا انطلق الجميع في موكبٍ مهيبٍ عائدين إلى بغداد.

كان الشاب والأميرةُ وجميع من في الموكبِ يغنّونَ ويمرحون طوال الطريق وهم سعداءُ بإنجاز المهمة الصعبة حتّى وصلوا بوابة قصر الباشا. سمعَ الرجل الأجرد ضحكاتهم وأصوات الفرح والمرح الصادرة عن الموكب، فخرجَ لاستقبالهم. وعندما شاهدَ الشاب وقد عادَ بسلامٍ وأمان من مهمته الصعبة، شعرَ بالضيقِ والغضبِ الشديدين. وسَحَبَ من شدّة غضبه سيفه في غفلة من الحراس وضربَ الشاب في مقتلٍ. وعندما وجدَ الباشا أن الرجل الأجرد هذا قد قتلَ الشاب الذي كان معجباً بقدراته ومهاراته، أصيب بالحزن لدرجة كبيرة لم يستطع معها الأكل أو النوم. وقد رفض معاقبة الرجل الأجرد نظراً لاعتقاده الخاطئ بأنه شقيقه الأصغر.

في هذه الأثناء، رشَّت الأميرة دون معرفة الباشا، قطرات المياه السحرية من القارورة فوقَ وجه الشاب الذي عادت الحياة إليه على الفور. وفي صبيحة اليوم التالي ذهبَ الشاب إلى

بوّابة قصر الباشا ووقف أمام الحرّاس ملثماً، وقال لهم: «أريد مقابلة الباشا لأتحدث إليه حولَ أمرٍ مهمّ ». لم يتمكن الحراس من التعرف عليه من وراء لثامه فردّوه قائلين له إن الباشا حزينٌ جدّاً لوفاة الشاب وليس في وضع يستطيعُ فيه مقابلة أحد.

أصرَّ الشاب على طلبه. وفي النهاية استجاب الحراس لطلبه وأخبروا الباشا بوجودِ شابّ عندَ بوّابة القصر يطلبُ مقابلته لأمرٍ مهمّ. أوعز الباشا للحراس بالسماح بدخول الشاب. ولمّا وقف الشاب وهو محتفظٌ بلثامه أمامَ الباشا في مجلسه قال متسائلاً: «إذا قطعَ رجلٌ ما على نفسه وعداً، ثم قُتِلَ بعدَ ذلك، فهو لا يستطيعُ الرجوعَ إلى الحياة، أليسَ كذلك؟» فأجابَ الباشا: «بكلِّ تأكيد لا يستطيعُ الرجوعَ إلى الحياة».

وثم سأله الشاب مرة ثانية: «ولكن إذا عادَ هذا الرجل المقتول إلى الحياة، فهل يبقى مُلزَماً بالوفاء بوعده أم يصبح في حِلٍّ منه؟». فأجاب الباشا: «بل يُصبح في حِلٍّ منه بكل تأكيد. فالمرءُ لا يبقى مُلزَماً بوعدٍ قطعه على نفسه بعدَ وفاته».

فقال الشاب: «حسناً. أستطيعُ الآن أن أخبركَ بما لم أستطع أن أخبركَ به من قبل ذلك أنني مُتُّ من قبل وعدت إلى الحياة

من جديد. الآن أستطيعُ إخبارك بأنني أنا شقيقك الحقيقي وليسَ الرجلَ الأجرد الذي وعدته بألّا أخبرَ أحداً على الإطلاق بحقيقته طالما بقيتُ حيّاً». ثم نزع الشاب لثامه من على وجهه، وروى كل ما جرى معه خلال رحلته إلى بغداد.

شعرَ الباشا بسرورٍ عظيمٍ لسماعه كلَّ ذلك وعانق شقيقه، وأقام وليمة كبيرة على شرفه دعا إليها كبارَ وجهاء المدينة. ثم طلبَ من حاشيته إشعال نار عظيمة في فرن القصر ليُلقى في أتونها الرجل الأجرد الشرير وهو حيٌّ جزاءَ ما اقترفت يداه الآثمتان والملوثتان بالدماء. وهذا ما كان(*).

* * *

(*) المصدر: جان أورين جارنك - ألبانيا.

وفاة موظف حكومي

ماذا يُمكن أن يفعل الخوف بالإنسان؟

تأليف: أنطوان تشيخوف

السورية للكتاب

مجرد عطسةٍ وسلسلة اعتذارات لم تُقبل أودتْ بحياة موظف مسكين.

في إحدى الأمسيات اللطيفة، كان هناك موظف حكومي اسمه إيفان دميتريتش يتميز بالدماثة واللطافة، يجلس في الصف الثاني من مقاعد المشاهدين في صالة مسرح المدينة أركاديا. كان ينظر بين الفينة والأخرى من خلال عدسة مقربة يُمسكها بيده إلى خشبة المسرح ليتابع عن قرب أحداث مسرحية أجراس كورنفيل.

كان يُحدق في شخصيات المسرحية وهي تؤدي أدوارها المختلفة وهو يشعر بقمة السعادة والهناء. ولكن فجأة... في القصص كثيراً ما يُصادف المرء هذه العبارة «ولكن فجأة». في الحقيقة غالباً ما يكون الأدباء محقين في ذلك، فالحياة ملأى بالمفاجآت بالفعل! لكن فجأة تجعدت ملامح وجهه، واختفت عيناه، وتوقف تنفسه. نزع إيفان العدسة المقربة عن عينيه، وانحنى إلى الأمام قليلاً و... «أبتشي!!» وعطس كما يُمكن أن تتخيلوا.

في الواقع ليس من المستهجن أبداً أن يعطس المرء في أي مكان لأنه فعل لا إرادي. وهكذا فإننا نرى الفلاحين يعطسون وكذلك رؤساء الشرطة وأحياناً حتى المستشارون الخاصون. كل الرجال يعطسون في الواقع. ولذلك لم يشعر إيفان بأي ارتباك أو حرج. وهكذا مَسَحَ وجهه بمنديله، ونظر حوله بشكل خاطف

مثل أي رجل مهذب ليرى ما إذا كان قد أزعج أي شخص بسبب هذه العطسة.

ولكن بعد ذلك غلب عليه الارتباك وحتى القلق عندما رأى رجلاً عجوزاً يجلس أمامه في الصف الأول من مقاعد المشاهدين وهو يمسح بعناية رأسه الأصلع وعنقه بقفازه، ويغمغم لنفسه بصوت خفيض بشيء غير مفهوم. استطاع إيفان بسهولة أن يتعرف شخصية هذا الرجل العجوز. فقد كان الجنرال بريزالوف الذي يعمل بصفة مدنية في وزارة النقل.

فكر إيفان في نفسه: «لقد أصبته حقاً برذاذ العطس. وعلى الرغم من كونه ليس رئيسي المباشر في العمل، يظل ذلك العمل محرجاً لي بالفعل. لا بدَّ لي من الاعتذار».

فقام إيفان من مقعده، وسعل برفق للفت الانتباه ثم انحنى بكامل جسمه إلى الأمام نحو الجنرال ليهمس في أذنه قائلاً: «عفواً يا سيدي لقد أصبتكم بنثار عطستي بشكل غير مقصود البتة...».

فأجاب الجنرال: «حسناً لا تهتم لذلك. لا تهتم لذلك».

وعاد إيفان وقال من جديد: «اعذرني بحق السماء فأنا... لم أقصد ذلك».

فأجاب الجنرال: «أوه، من فضلك، اجلس في مقعدك! ودعني أتابع العرض!».

كان إيفان يشعر بالحرج الشديد، وابتسم ببلاهة واضحة ثم جلس في مقعده ليتابع من جديد عرض المسرحية أمامه على خشبة المسرح. كان يحدق في شخصيات المسرحية ولكنه لم يعد يشعر بالسرور والهناء. فقد بدأ يشعر بالفعل بالهمّ وعدم الارتياح الشديدين بسبب القلق الشديد الذي أخذ يُساوره من تبعات عمله.

وخلال فترة الاستراحة بين فصول المسرحية، ذهب إلى الجنرال بريزالوف، ومشى بجانبه. وبعد أن تغلب على حيائهِ بادره بالقول: «صاحب السعادة. لقد أصبتكم بنثار العطس عن غير قصد، سامحني... وكما ترى... فأنا لم أفعل ذلك من أجل...».

فقال الجنرال وهو يُحرك شفته السفلى بفارغ الصبر: «أوه، هذا يكفي... لقد نسيت ذلك، وأنت لا تزال تصر على هذا الهراء! يكفي يا هذا».

وقال إيفان في نفسه وهو ينظر بريبة إلى الجنرال: «لقد نسي فيما يبدو، ولكن هناك شعاع شرير يلمع في عينيه. هو لا يريد التحدث. ولكن يجب علي أن أشرح له أنني لم أفعل ذلك حقاً عن قصد، وإن هذا هو قانون الطبيعة. وإلا فسيعتقد أنني قصدت أن أبصق عليه. يبدو أنه لا يعتقد ذلك الآن، لكنه قد يفكر ذلك لاحقاً!».

وعند عودته إلى المنزل، أخبر إيفان زوجته عن تصرفه في المسرح المخالف للسلوك الحسن. وقد صدمه كثيراً أن زوجته تبنت نظرة تافهة للغاية بشأن الحادثة عندما اعتبرتها طبيعية جداً تحدث مع كل الناس وفي كل مكان، ولا داعي للقلق على الرغم من أنها كانت في أعماقها خائفة بعض الشيء، وهذا أمر طبيعي أيضاً، لكنها اطمأنت كثيراً عندما علمت أن الجنرال بريزالوف يعمل في مكان مختلف.

وقالت: «مع ذلك، كان من الأفضل لك أن تذهب وتعتذر، وإلا فسيعتقد أنك لا تعرف كيف تتصرف كما يجب في الأماكن العامة».

فقال إيفان: «هذا كل ما في الأمر! لقد اعتذرت بالفعل، لكنه أخذ الأمر بطريقة غريبة... لم يقل كلمة ذات معنى. لم يكن هناك وقت للتحدث بصورة لائقة كما ينبغي».

وفي اليوم الآتي، ارتدى إيفان ثياباً رسميةً جديدةً، وقص شعره، وشذب لحيته، وذهب إلى مكتب الجنرال بريزالوف ليشرح له الأمر من جديد. كان يحاول طوال الطريق اختيار أنسب الكلمات وأرقّها لتقديم اعتذاره. دخل غرفة استقبال الجنرال وهو يَتَوجّس شراً، ورأى هناك عدداً من مقدمي الالتماسات ومن بينهم الجنرال نفسه، الذي بدأ في الاستماع بغير اكتراث إلى الشكاوى المختلفة وفي طرح بعض الأسئلة التوضيحية عن هذه الشكاوى.

وعندما جاء دور الموظف المسكين إيفان. رفع الجنرال عينيه ونظر إليه بطريقة توشي بضيق الصدر والتذمر. فقال إيفان: «صاحب السعادة. بالأمس في مسرح أركاديا، إذا كنت تتذكر، عندما عطست و... تناثر رذاذ العطس مصادفةً...».

فقال له الجنرال بنبره عالية: «ما هذا الهراء... وماذا يُمكنني أن أفعل لك».

وفكر إيفان في نفسه وقد امتقع لونُ وجهه: «إنه لن يتكلم. وهذا يعني أنه غاضب... لا، لا يُمكن تركه على هذا النحو... سأشرح له الأمر من جديد».

وبعد أن أنهى الجنرال حديثه مع آخر الملتمسين، هم بالتوجه عائداً إلى مكتبه. عندها استجمع إيفان كامل قواه وتقدم خطوة نحوه وهو يتمتم: «صاحب السعادة! إذا كنت أجرؤ على إزعاج سعادتكم، فهذا ببساطة نابع من شعور عميق وصادق بالأسف الشديد!... لم يكن الأمر مقصوداً على الإطلاق. وأرجو منك بلطف أن تصدقني يا سيدي».

أصبح وجه الجنرال بغيضاً جداً وهو يلوح بيده بغير اكتراث. وقال له وهو يُغلق الباب خلفه: «ولماذا أصدقك، أنت بكل بساطة تسخر مني يا سيدي».

وفكر إيفان في نفسه في استغراب شديد: «وأين السخرية في ذلك؟ لا يوجد شيء من هذا القبيل بكل تأكيد! إنه جنرال، لكنه لا يستطيع أن يفهم. وإذا كان هذا هو الحال، فلن أعتذر من جديد لهذا المُتبجِّح بعد الآن! ليأخذه الشيطان معه إلى الهلاك. سأكتفي

هذه المرة بكتابة رسالة له، لكنني لن أذهب للقائه مرة أخرى. وأقسم بالله سبحانه إنني لن أفعل ذلك».

كان إيفان يُفكر بذلك أثناء عودته إلى المنزل. لكنه في النهاية لم يكتب هذه الرسالة إلى الجنرال على الرغم من أنه كان يمعن التفكير مراراً وتكراراً في كتابتها. لم يتمكن في النهاية من صياغتها كما يريد. كان إيفان قد فكر في كتابة خطاب إلى الجنرال ثم تراجَع نظراً إلى يقينه بعدم جدوى الكتابة في مثل هذا الموقف الظالم. لا بدَّ إذن من المواجهة الشخصية. إن الكلمة المنطوقة تقتضي نظر العين في العين، وإسماعَ الطرفِ الآخرِ الكلماتِ، وربما الاستعانة بحركات اليدين. وكلها عناصر تسهم في الدفاع عن النفس أكثر من الكلمة المكتوبة. ولذلك كان عليه العودة في اليوم الآتي لمقابلة الجنرال ليشرح له هذا الأمر شخصياً.

وقال للجنرال بصوت خفيض: «لقد تجرأت وغامرت بإزعاج سعادتكم بالأمس». رفع الجنرال عينيه المستفسرة إليه اللتين كانتا تقدحان شرراً وتُنْبئَان بسوء العاقبة». ليس لأسخر منكم كما يسركم قول ذلك. كنت أعتذر لكم عن إصابتكم بنثار العطس... ولم أكن أحلم قط بالسخرية منكم. وهل كنت أجرؤ على ذلك

حتى ولو أردت. وإذا كان علينا أن نسخر بعضنا من بعض، فلن يكون هناك احترام للآخرين، بل سيكون هناك...».

وصاح الجنرال: «انصرف من هنا يا هذا!». وقد تحول لون وجهه فجأة إلى اللون الأرجواني، وبدأ جسمه يرتجف من قدميه حتى أعلى رأسه من شدة الغضب.

وسأل إيفان بصوت خافت يشوبه خوف واضح: «ماذا؟».

وقال الجنرال من جديد وهو يضرب الأرض بقدمه بقوة من شدة الغضب: «انصرف من هنا يا هذا».

بدا في هذه الأثناء أن شيئاً ما قد تلاشى في معدة إيفان. لم يعد يرى شيئاً أو يسمع شيئاً، وأخذ يتلمس طريقه نحو الباب وهو يترنح في مشيته. وخرج إلى الشارع، وأخذ يسير بحواس شاردة طوال الطريق حتى وصل إلى المنزل منهكاً ومتعباً لدرجة كبيرة، وألقى نفسه بكامل ثقله فوق الأريكة دون أن يخلع ثيابه الرسمية على غير عادته. وسرعان ما أَسْلَم الروح إلى بارئها(*).

* * *

(*) المصدر: أنطون تشيخوف - روسيا.

مئزر الحذّاء

حين يبيع الإنسان روحه للشيطان من أجل لقمة العيش

تأليف: باركر فيلمور

كان يا ما كان حذّاءٌ لا يَكسبُ في يومه إلا أقلَّ القليلِ من المالِ، وعانى هو وعائلته في صمت لمدّة طويلة من الزمن حتّى عضّهُم الجوع. اشتكت الزوجة وتذمّرتْ من هذه الحالة البائسة التي تعيش فيها مع أولادها وهم يتضورون جوعاً ويبيتون وبطونهم خاوية لا يجدون ما يأكلون.

وبدافعٍ من اليأسِ الشديد قرَّرَ الحذّاء أن يبيعَ روحه للشيطان مقابل أنْ يُعطيه ما يكفي حاجته وأولاده، ومن ثَمَّ يعفيه من مذلّة سؤال الناس أعطوه أم منعوه. دخلَ الشيطان على الفور في بازار مساومة مع الحذّاء وقال له: «كم تريد مقابل أن تبيعني روحك؟» فأجاب الحذّاء: «ما يكفي من العمل الذي يؤمِّنُ حياة كريمة لي ولأولادي. لا أريدهم أن يُعانوا الجوع والحرمان بعد الآن».

وافقَ الشيطان على ذلك ووقَّع الحذّاء العقد. ولم تمضِ مدّة طويلة حتى ازدهرت تجارته وتحسنت أحواله كما يحبُ ويرضى، وأصبح يعيشُ في رخاءٍ وسعادة.

وفي إحدى الليالي مرَّ بالقرب من كوخ الحذّاء الصغير عددٌ من الرهبان كانوا عائدين من قدّاسٍ أُقِيمَ في قرية مجاورة وأدركهم الليلُ وهم لا يزالون في الطريق، فطلبوا من الحذّاء أن يستضيفهم عنده حتى صباح اليوم الآتي. أحسنَ الحذّاء استقبالهم، وأكرمَ مثواهم، وجعلَ زوجته تُعِدُّ لهم أطيبَ الطعامِ لوجبة العشاء. وعندما حان وقتُ النومِ قدّمَ لهم سريرهليناموا عليه، وصعدَ لينامَ مع زوجته وأولاده على القشِّ في العليَّة.

وفي الصباح طلب من زوجته أن تُحَضِّرَ للضيوفِ إفطاراً شهيّاً. وبعد تناول الإفطار رافقهم حتى أطراف القرية مودعاً قبل أن يدعهم ليكملوا طريقهم نحو مقصدهم. وبينما كان يستدير ليعود أدراجه نحو كوخه همس أحد الرهبان لباقي رفاقه: «لقد أكْرَمَنَا هذا الرجلُ الفقيرُ، وقَدَّمَ لنا أفضلَ ما عنده، ألا يجب علينا أن نَرُدَّ له جميل صُنعه؟».

هزّ البقية رؤوسهم موافقين، والتفت الراهب الأول نحو الحذّاء وهو يقول: «أيها الرجل الطيب. سنكافِئُك اليوم مقابل ما أبديته نحونا من لطفٍ وكرم. اطلب ثلاثَ أمنياتٍ شخصية وسندعو الرب أن يحققها لك في أقرب الآجال».

شكر الحذّاءُ الراهبَ وقال: «حسناً إذنْ. هذه هي أمنياتي: الأولى، ألا يستطيع أيّ من يجلس على كرسي الحذّاء الذي أعملُ عليه أن يقوم عنه إلا بإذني. والثانية، أن يظلَّ كلُّ من يقف عند نافذة كوخي وينظر إلى ما بداخله واقفاً هناك حتى أسمح له بالذهاب. والثالثة، أن يظلَّ كلُّ من يهز جذع شجرة الإجّاص في حديقة الكوخ لتتساقطَ ثمارها ملتصقاً بجذعها حتى أطلقه».

فقال الراهب: «حسناً. لكَ ما أردتَ بإذن الرب». وهكذا ودع الحذّاء الرهبان عند مفترق للطرق حيث تابع الرهبان رحلة العودة إلى بلدتهم، وعاد الحذّاء إلى كوخه والسرورُ والبهجة تغمران قلبَه.

وهكذا مرت الأيام والسنون. وأخيراً أتى الشيطان في ظُهر أحد الأيام ووقفَ أمام الحذّاء وقال: «كيف حالك أيها الحذّاء، لقد حان موعد الأجل بيننا، فهل أنت جاهز؟» فأجاب الحذّاء: «هل لك أن تدعني أولاً أتناولُ ولو لقمة من طعامي! ويُمكنك خلال ذلك أن تجلس هنا على الكرسي الذي أعمل عليه لترتاحَ قليلاً».

كان الشيطان متعباً بالفعل لكونه كان يجوبُ بِقاعَ الأرضِ ذهاباً وإياباً منذ شروق الشمس، ولذلك كان سعيداً جداً لدعوة الحذّاء وجلس على الفور على الكرسي.

وبعد أن انتهى الحذّاء من تناول وجبة الغداء، قال: «حسناً. أصبحت الآن جاهزاً. هلمَّ إليّ». حاولَ الشيطان أن ينهضَ عن الكرسي ولكنه بالطبع لم يتمكن من ذلك. حاول أن يُحرِّكَ نفسه تارة على اليمين وتارة أخرى على اليسار للنهوض عن الكرسي،

فلم يفلحْ أيضاً. حاول مرّة أخرى أن ينهضَ بدون فائدة على الإطلاق حتى شعر بألم شديد في عظامه. لم تفلح أيّ طريقة اتبعها للنهوض عن الكرسي. وبقي جالساً رغماً عنه.

وأخذ الشيطان يصرخُ في خوفٍ شديد: «ساعدني في النهوضِ عن هذا الكرسي اللعين، وسوف أُمدِّدُ لك موعد الأجلِ الذي بيننا سبعَ سنوات أخرى. أقسمُ إنني سأفعلُ ذلك».

قام الحذّاء وسمحَ للشيطان بالنهوض عن الكرسي بعد أن أعطاه هذا الوعد. وغادر الشيطان كوخ الحذاء، وانطلق بأسرع ما يستطيع لا يلوي على شيء. وكان الشيطان صادقاً في وعده، إذ لم يعد لكوخ الحذّاء إلا بعد سبع سنين. وعندما عاد كان ذكياً بما يكفي لكيلا يجلسَ على كرسي الحذاء مرة ثانية حتى إنه لم يغامرْ بدخول الكوخ مطلقاً، ولذلك وقف عند نافذة كوخ الحذّاء وناداه قائلاً: «كيف أنت أيها الحذّاء. ها أنا ذا هنا مرة ثانية. لقد حان موعد الأجل بيننا، فهل أنت جاهز؟».

فأجاب الحذّاء: «سأكون جاهزاً خلال دقائق. دعْني فقط أستكمل الخياطة النهائية للحذاء الذي بيدي».

وعندما انتهى الحذّاء من خياطة الحذاء الذي بين يديه، وضعه جانباً على الطاولة، وودّع زوجته للمرة الأخيرة، وقال للشيطان: «حسناً. أصبحتُ جاهزاً الآن. دعنا نذهب». وعندما أراد الشيطان أن يبتعدَ عن النافذة وجد نفسه مثبّتاً بمكانه بقوة قاهرة. وشعرَ كما لو أن قدميه قد التحمتا بالأرض. وأخذ الشيطان يصرخ في فزعٍ ظاهرٍ: «يا عزيزي الحذّاء الطيب. ساعدني أرجوك. أنا لا أستطيع أن أُحَرِّكَ قدميَّ قيدَ أنملة».

فأجاب الحذّاء: «ما هذا العبثُ الذي تقومُ به؟» الآن أنا جاهزٌ للذهابِ معك وأنتَ لستَ كذلك. ماذا تقصدُ من خُدعتكَ هذه؟ فقال الشيطان: «فقط ساعدني على أن أصبحَ حراً من جديد وسوف أفعل أي شيء تريده. سوف أعطيك سبع سنوات أخرى لحلول الأجل. أقسم إنني سأفعل ذلك». فقال الحذّاء: «حسناً إذن. سوف أساعدك الآن للمرة الأخيرة. وتذكّر الآن: لن أدعك تخدعني للمرة الثالثة».

وهكذا حرّرَ الحذّاء الشيطان من النافذة. وانطلق الشيطان هارباً دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة. وبعد انقضاء هذه السنين السبع ظَهَرَ الشيطان مرة ثانية. ولم يقتربْ حتى من الكوخِ في

هذه المرة، إذ رأى أنه من الأفضل أن يقفَ في الحديقة تحت شجرة الإجّاص. وأخذ ينادي على الحذّاء: «كيف أنت أيها الحذّاء. لقد حان موعد الأجل بيننا، وأنا هنا لكي آخذكَ معي. فهل أنت جاهز؟».

فأجاب الحذّاء: «نعم. لحظة من فضلك ريثما أضع أدواتي والحذاء الذي بيدي جانباً. وإذا كنت تشتهي تناولَ شيءٍ من ثمار شجرة الإجّاص التي تقف تحتها، فهزَّ إليك بجذعها ليتساقط عليك بعض ثمارها الناضجة حلوة المذاق».

وهزَّ الشيطان جذعَ الشجرة إليه، وبالطبع عندما حاولَ التوقف ليلتقط بعض ثمارها من على الأرض، لم يستطع ذلك. وظل يهز بجذع الشجرة إليه حتى سقطت كل ثمارها على الأرض، وبعدها سقطت كل أوراقها أيضاً.

وعندما خرج الحذاء من الكوخ ليلتقي الشيطان في الحديقة، ورأى ما حل بالشجرة والشيطان ما يزال يهز بجذعها إليه دون توقف، تظاهرَ بالغضبِ الشديدِ وقال: لماذا تهز جذع الشجرة إليك طوال الوقت حتى تساقطت كل ثمارها على الأرض. توقف عن ذلك على الفور. هل تسمعني؟ توقف عن ذلك.

فأجاب الشيطان بصوت مرتجف من شدة الخوف: «ولكني لا أستطيعُ التوقفَ عن ذلك».

فقال الحذّاء وهو يتظاهرُ بالدهشة والاستغراب الشديدين: «سوف أرى كيف يُمكنني مساعدتك». وسارعَ في العودة إلى الكوخ ثم قَفَلَ عائداً إلى الشيطان عند الشجرة وهو يحمل بيده كرباجاً مصنوعاً من الجلد المجدول، وشرعَ بجلدِ الشيطان بكل قوته على رأسه وكتفيه دون رحمة أو شفقة.

وصدرَ عن الشيطان صرخاتٍ مرعبة سمعها جميعُ أهلِ القرية الذين أسرعوا ليستطلعوا حقيقة ما يجري في حديقة الحذّاء. وصرخ الشيطان في أهل القرية: «ساعدوني. ساعدوني. أبعدوا هذا الرجل عنّي».

ولكن أهلَ القرية اعتقدوا أن الحذّاء كان يقوم بالشيء الصحيح لمعاقبة رجل مُؤذٍ أسقطَ كل ثمارِ شجرة الإجَّاص على الأرض حتى أوراقها، وطالبوا الحذّاء أن يواصل ضربه بشكل أقوى وأشد.

وأخذ الشيطان يئن من شدة الوجع والألم: «آه يا رأسي المسكين. آه يا كتفي المسكين. إذا تمكَّنتُ من الإفلاتِ من هذه

الشجرة اللعينة، فلن أعودَ إلى هنا ثانية. أقسمُ إنني لن أفعل بكل تأكيد».

شعر الحذّاء بالسعادة لما قاله الشيطان، وأخذ يضحك كثيراً في سرِّه، ثمَّ أطلقَ بعدها سراحَ الشيطان الذي فَرَّ من المكان بسرعة البرق.

كان الشيطان صادقاً في وعده، فلم يعدْ أبداً إلى كوخ الحذّاء. وهكذا عاشَ الحذّاء بسرور وسعادة دون متاعب أو قلقٍ حتى مرحلة متقدمة من العمر. وكان قد أوصى قبل وفاته بدفن مئزره معه في قبره، وقد نفذّ أبناؤُه رغبته تلك.

وبعد وفاة الحذّاء بوقت قصير، صَعَدَ إلى الفردوس الأعلى، وأخذ يطرقُ البوابة الذهبية بلطفٍ. فتحَ القديس بطرس البوابة التي صدرَ عنها صريرٌ خفيف. وأخذ ينظر بحذر ليرى من الطارق. وعندما رأى الحذّاء هز برأسه وقال: «أيها الحذّاء المسكين. لا مكان لك في الجنة. فأنتَ بعتَ روحك في الحياة الدنيا لحاكم المكان الآخر، وعليك الآن الذهاب إلى هناك». وأغلق بعدها البوابة الذهبية وقفلها بإحكام.

تنهد الحذّاء في أسى وحسرة ظاهرين وقال لنفسه: «حسناً. يتعين عليّ الآن إذنْ أن أذهب إلى حيث يقول القديس بطرس». وهكذا نزل إلى جهنم وهو مقطَّبُ الجبين. وعندما رآه الشيطان الذي أغراه ببيع روحه عرفه على الفور، وأخذ ينادي رفاقه الشياطين: «كونوا حذرين يا إخوتي ها قد أتاكم هذا الحذّاء المخادع. أغلقوا كل البوابات بإحكام. لا تدعوه يدخل أبداً. ولو دَخلَ فسوف يُخرجنا جميعاً من هنا». وهكذا اندفعت الشياطين في ذعر وخوف شديدين نحو بوابات جهنم وقفلتها واضعةً القضبان الحديدية عليها. ولمّا وصل الحذّاء المسكين لم يتمكن من الدخول.

انتظر الحذاء عند بوابات جهنم، وطرق عليها مراراً وتكراراً يُغريه الأمل بالدخول ولكن عن عبث.

وقال الحذّاء لنفسه: «يبدو أنهم لا يرغبون بوجودي هنا. أعتقد أنه يتعين عليّ في هذه الحالة أن أحاول مرة أخرى الدخول إلى الجنة». وهكذا عاد أدراجه إلى القدّيس بطرس ليقول له إنَّ أبواب جهنم قد أوصدت دونه بإحكام. فأجابه بقوله: «هذا لا يهم. وكما قلتُ لك من قبل لا مكان لك هنا في الجنة».

عاد الحذّاء مرة ثانية إلى جهنم. ولمّا رأته الشياطين قادماً وقد بدتْ عليه علاماتُ الإرهاق والاكتئاب، أغلقوا جميع البوابات بإحكام مرة ثانية في وجهه. وأعاد الحذّاء الكَرّة ووقفَ أمام بوابات جهنم الموصودة في وجهه بإحكام بلا طائل. فعاد أدراجه بدافع من اليأس إلى البوابة الذهبية، وشرعَ يطرقها بقوةٍ جعلتِ القديس بطرس يعتقدُ أن هناك شخصاً ما ذا مقامٍ رفيع يقف على الباب، ففتح البوابة على مصراعيها، وبسرعة البرق قذف الحذّاء بمئزره وبقوة إلى داخل الجنة، وانسلَّ إلى الداخل من تحت ذراع القديس بطرس، وجلس على الفور القرفصاء فوق المئزر.

حاولَ القديس بطرس بحماسٍ كبيرٍ إخراج الحذّاء خارج الجنة، لكن الحذّاء المسكين أخذ يصرخُ ويقول: «لا يُمكنك أن تلمسني. لا يُمكنك أن تلمسني فأنا أجلس فوق أملاكي الخاصة. أرجوك دعني وشأني».

وأثارَ الحذّاءُ جلبةً ضخمةً نجم عنها حدوث هرجٍ ومرجٍ أدى إلى قدومِ كلِّ الملائكة والقديسين على عجل لرؤية ما يحدث. وأخذ الحذّاءُ يشرح لهذا الجمع الكريم كيف ولماذا

يتعين عليه البقاء في مكانه في الجنة لأن الشياطين لن تسمح له بدخول جهنم.

تشاور الجمع الكريم بعضهم مع بعض على عجل، وقال القديس بطرس إنّه لا يُمكن السماح للحذّاء بالبقاء في الجنة. ولكن معظمهم كانوا ينظرون إلى الحذّاء بعيونٍ ملأى بالعطفِ والشفقة، وقالوا للقديس بطرس: «دعه يبقى حيث هو الآن، وهو لن يُزعِجَ أي أحدٍ طالما بقي جالساً هناك عند البوابة»(*).

* * *

(*) المصدر: باركر فيلمور - جمهورية التشيك.

الفتى الفقير

لم يتهرب من مسؤولياته تجاه أسرته
بل تحملها لدرجة التضحية بالذات

تأليف: مايت كريمنتز

في يوم من الأيام حدثَ أمرٌ ما. ولولا حدوثه حقاً ما كان ليُروى ويُقال.

كان هناك أم عجوز على درجة من الفقر والبؤس لدرجة أن الذباب لا يمكثُ في داخل بيتها. توفي زوجها منذ سنوات عديدة

مما زادَ من سوء حالتها. وكان لديها ولد وبنت. وكان الولد شجاعاً لا يهاب شيئاً لدرجة أنه يستطيع أن يمسكَ بالأفاعي ويقطع ألسنتها، كما كانت البنت ريتا على درجة من الجمال حتى إن أبناء الإمبراطور والعديد من الأمراء الوسيمين في جميع الممالك المجاورة كانوا ينتظرونَ بفارغ الصبر أن تكبرَ بما فيه الكفاية حتى يتمكنوا من الذهاب إليها وخطب ودها.

ولكن عندما بلغتِ الفتاة سن السادسة عشرة، وقعَ لها ما يقعُ عادة لباقي الفتيات الجميلات أمثالها في مثل هذه السن، إذ أتى تنينٌ شرير وخطفها حاملاً إياها بعيداً إلى شواطئ بلد آخر.

ومنذُ ذلك اليوم، ازدادَ تعلّقُ الأم بولدها مئات بل آلاف المرات عن قبل، ذلكَ لأنه أصبحَ الآن ولدها الوحيد ومصدر سعادتها الوحيد أيضاً في الحياة. كانت ترمقه دوماً بنظراتِ الحبِّ والعطفِ وترصدُ عليه كل حركاته خوفاً على حياته، ولمْ تسمحْ له بالابتعاد عنها ولو خطوة واحدة. ولكن بمقدار ما كانتْ تحبّه كانت تشعرُ بحزنٍ شديدٍ في نفس الوقت على ابنتها المفقودة.

وحاولَ الولد، وهو يرى أمه في حالة مستمرة من الحزن والألم، أن يشدَّ من عزمه ويُصبح قوي البنيان ليكون عوناً لأمه

وسنداً لها. وكان يعدُّ الأيامَ حتى يكبرَ ويصبحَ قوياً بما فيه الكفاية ليبحثَ عن شقيقته المفقودة في الممالك المجاورة عبر طرق مليئة بالعقبات والمخاطر لم يسلكها أحدٌ من قبل. وما إن بلغَ الثامنة عشرة من العمرِ حتّى صنع حذاءً من جلد البقر ونعلاً من الفولاذ، وذهبَ إلى أمه وقال لها:

«أماه. لم أشعرْ قطّ بالراحة والاستقرار وأنا أراكِ فريسة المرض والحزن بسببِ تفكيركِ الدائم بشقيقتي. لقد قرّرتُ أن أغادرَ وأبحث عنها في هذا العالم الكبير، ولن أعودَ قبلَ أن أعرف مكانها وأخبارها. لا أعلمُ حقاً ما إذا كنت سأجدها، لكني على الأقل أتمنّى ذلك، كما أتمنّى أن يُشكل هذا الأمل مصدر عزاء وراحة لك».

كانت الأم مرغمة، لدى سماعها لما قاله ولدها، على أن تتحكّم بمشاعرها وهي تجيبه بقولها: «حسناً يا بني. قمْ بكل ما تستطيع للعثور على شقيقتك. وسوفَ أراكَ مرة أخرى عندما تعود. ولكن إذا لم تعدْ فلن أبكي على فراقكَ لأن الرحلة التي تعتزم القيام بها طويلة حقاً. ولذلك إذا غبتَ عنّي مدّةً طويلة يبقى لدي الأمل دائماً بعودتك سالماً».

حضَّرت الأم ثلاثة أرغفةٍ من الخبز الممزوج بالحليب المحلّى فوق رماد المدفأة. وكان الرغيف الأول من الحنطة، والثاني من الشعير، والثالث من الذرة. ووضع الفتى الأرغفة الثلاثة في حقيبته، ثمَّ ودّعَ أمه وخرجَ ليبدأ رحلته.

ووقفَ عند بابِ البيت مدّةً وجيزة ليلقي بنظرة نحو الاتجاهات الجغرافية الأربعة، ثم ملأ كفّه من ترابِ عتبة البيت ونثرها عالياً في الهواء، ثم أخذ يتوجه في الاتجاه الذي حملتِ الريحُ فيه حفنة التراب.

وهكذا بدأ الفتى الفقير رحلته وهو يسير ويسير بكامل قوّته، ويبتعد أكثر فأكثر عن قريته. كان يسير عبر بلدان غنية بالخيرات حتى وصلَ إلى أرضٍ بورٍ لا يوجد فيها زرع ولا تجري فيها ماء، وكان قد بدأ يشعرُ بالتعب، فجلسَ يستريحُ لبعض الوقت، وأخرجَ الأرغفة الثلاثة من حقيبته. وبدأ في تناولِ جزءٍ من رغيفِ القمح لأنه الأطيب. وشعرَ وهو يتناول الرغيف بأن قوّته قد عادتْ إليه.

واصل الشاب الفقيرُ طريقه. وسارَ طيلة النهار عبر هذه البراري الجرداء الواسعة حتّى حلولِ الليل لمّا وصلَ إلى غابة

واسعة مترامية الأطراف تشبه في اتساعها البراري الجرداء التي كان يسيرُ فيها طوالَ اليوم، ولكنها كانت كثيفة وكئيبة ولا تهب في أرجائها الريح.

وعندما دخلَ الغابة، وجدَ امرأة عجوزاً تجلسُ بجانبِ جذعِ شجرة مقطوعة. كانتِ العجوزُ حدباء وعلى وجهها تجاعيد حفرتها السنون تشبه الأخاديد. شعرَ الشاب الفقيرُ بسعادة كبيرة لدى رؤيته هذه العجوز لأنه مضى عليه وقت طويل في رحلته لم يقابلْ خلالها أيّ مخلوق، ولم يسمع فيها كلام البشر. فبادرها بالتحية وهو يقول: «أهلاً يا أمي. ولكن كيف لي أن أفهم وجودك هنا بمفردك. وماذا تفعلين في هذه الغابة الموحشة؟».

فقالت العجوز وهي تتنهد: «يا لكَ من شابٍّ لطيف. كنتُ أسيرُ في الغابة عائدة إلى بيتي القريب من هنا، ولكني لم أستطعْ إكمال سيري ذلك لأن قدَميَّ لم تعد قادرتين على حملي».

شعرَ الشاب بالشفقة على المرأة العجوز وهو يستمعُ لما قالته. وتقدّمَ منها ليسألها عن المكان الذي جاءتْ منه، والمكان الذي تقصده، وما غايتها من الذهاب إلى هناك. لم يكنِ الشاب التعيس يعلم أن هذه المرأة العجوز كانتْ ساحرة الغابة تنتظر

دائماً عند أطرافها لمقابلة الذين يضلّونَ طريقهم ويتجولون في هذه المناطق المعزولة، لتقومَ بخِداعهم بكلمات جميلة تقودهم بعدها إلى هلاكهم.

ولمّا رأى الشاب الفقير ضعف هذه المرأة العجوز والحالة المزرية التي تبدو عليها، تذكر زوادته المؤلفة من الأرغفة الثلاثة في حقيبته، وقامَ على الفور، كما لو أنه كان سيعود إلى البيت في اليوم الآتي، بتقديم أحد الأرغفة لها لعلها تُكسبها بعض القوة وتقوى على النهوض والسير قليلاً نحو بيتها.

فأجابت ساحرة الغابة، وهي تضمر في داخلها نوايا أخرى نحو الشاب: «شكراً لك. ولكن كما ترى لا يوجد في فمي أسنان لأمضغَ الرغيفَ الذي قدّمته لي. ولكن إذا كنتَ تريدُ أن تقدّمَ لي المساعدة حقاً، فهل لكَ أن تحملني على ظهرك إلى بيتي؟».

وقال لها الشاب بحسنِ نيّة: «ألا تأكلين شيئاً من الرغيف أولاً؟ أعتقد أن الجوع هو الذي أنهكَ قواكِ وجعلك ضعيفة للغاية كما تبدين الآن. وإذا لم يساعدكِ تناولُ هذا الرغيف في استعادة قوتك ونشاطك، فسوفَ أحملكِ على ظهري كما ترغبين».

ولمّا رأتْ ساحرة الغابة رغيفَ الخبزِ المصنوعِ من القمح، أخذتْ تحدّقُ فيه وهي تشعرُ بسرورٍ بالغ. كان هناك شيء ما حول هذا الرغيف - لا أعلم ما هو - جعلَ الساحرة التي لا تأكلُ طعامَ البشر تشتهي أخذ لقمة منه. وما إن فعلت حتى بدأ قلبها يخفقُ بشكلٍ هادئ وبدأ الظلامُ الكامن في قلبها يتلاشى. وشعرتْ بعد أن تناولتْ ثلاثَ لقيمات من الرغيف بأنها عادتْ مخلوقاً بشرياً مرّة أخرى.

وقالتْ له بعد أن أعادت له ما تبقى من الرغيف: «اعلم يا بني أنني ساحرة الغابة، وأعرفُ تماماً من أنتَ ومن أينَ أتيتَ وإلى أين أنت ذاهب. تنتظرك مهمة كبيرة أمامك لأن شقيقتك في العالم الآخر الذي لا يستطيع سكان هذه الأرض الوصولَ إليه إلا عبرَ طريقٍ واحدٍ لا غير».

فسألها الشاب بلهفة: «وما هو هذا الطريق؟».

كانت الشكوك حول قدرة الشاب على عبورِ الطريقِ تساور الساحرةَ العجوز وهي تنظر نحوه، وقالتْ له: «إنني لا أنصحك بأخذ هذا الطريق. سيكون من المؤسف جدّاً أن تفقد حياتك وأنت في مقتبل العمر. ولكنْ من يدري، فقد يُحالفكَ الحظ ولا سيَّما وأني

أرى أنكَ تملكُ قلباً رقيقاً، ومنْ يملكُ ذلكَ يستطيعُ أن ينجحَ في الكثير من الأمور، إضافة إلى ذلك، فأنا أعرفُ أنهُ لنْ يهدأ لكَ بالٌ حتَّى تعثرَ على شقيقتك. اسمعني جيّداً، بعيداً جداً من هنا، وبعد أن تعبرَ ست بَرَارٍ جرداء موحشة وستَّ غابات، سوفَ تلتقي عند أطراف الغابة السابعة، التي تمتدُّ حدودها حتّى العالم الآخر، بساحرة عجوز تملك قطيعاً من الأحصنة من بينها حصان مسحورٌ يستطيعُ أن يوصلكَ إلى الجانب الآخر. ولكنَّكَ لن تستطيع أخذ الحصن إلا إذا خدمتَ الساحرة ورعيتَ قطيعها لمدَّة سنة كاملة».

كان هذا بالضبط ما يريد الشاب أن يعرفه. ولذلك لم يضيّع وقته. فقام على عجل بشكر ساحرة الغابة للمعلومات الواضحة التي قدمتها له. وأنطلقَ على الفورِ ليواصلَ طريقه حسبَ إرشاداتها.

كان الشاب يسيرُ مثل جنديّ في مهمّة عاجلة، وبطريقة تتّصفُ بالسرعة والعجالة مثل مسافرٍ يريدُ الوصولَ إلى بيته في وقتٍ مبكر. ولكنه بدأ يشعرُ بأن قواه بدأتْ تضعف، ولذلك سارعَ إلى قضمِ لقيماتٍ من رغيفِ الخبز ليستعيدَ على الفورِ كاملَ قوّته ونشاطه مرة ثانية.

وبينما كان يُغادرُ أطرافَ الغابة السادسة ويعبر بالقرب من جدولِ ماءٍ رقراق، رأى دبوراً كبيراً يحاول أن ينجو بنفسه من وسطِ الماء. شعرَ الشاب بالشفقة نحو هذا الدبور المسكين والضعيف. فقامَ بمسكِ غصنِ شجرةٍ يابسةٍ من طرف وبمدِّ طرفه الآخر نحو الدبور كي يتمكن من الخروج من الماء والوقوف على الغصن ويطيرَ بعدها في الهواء.

خرج الدبور من الجدول واقترب من الشاب وحطَّ على كتفه بلطفٍ وأخبره بأنه ملك الدبابير في العالم، ثمَّ قال له: «رافقتكَ السلامةُ وحسنُ الحظِّ أينما ذهبتَ. خذْ شعرة من أسفلِ جناحي الأيمن واحتفظ بها. وإذا احتجتَ إلى مساعدتي فما عليك سوى أن تهزَّ هذه الشعرة وسوفَ آتيكَ في أيّ جزءٍ قد تكونُ فيه من العالم».

أخذ الشاب الشعرة ولفّها في قطعة قماشٍ صغيرة وضعها في جيبِ قميصه، وتابعَ من بعدها رحلته الطويلة. ولا أحدَ يعلم كم مضى عليه وهو يسيرُ عبرَ البراري والقفار حتّى وصلَ إلى بحيرة كبيرة رأى على شاطئها سمكة كبيرة وهي تتقافزُ على الأرض اليابسة. شعرَ الشاب بالشفقة على هذا المخلوق الضعيف

الذي يكادُ يموت من الاختناق. فأمسك الشاب السمكة بكلتا يديه وقذفها إلى ماء البحيرة.

وقامت السمكة بالسباحة على عجل حول شاطئ البحيرة وبالتنفس بعمق تحت الماء مرتين أو ثلاثاً لتستعيدَ قوتها ونشاطها، ومن ثم عادت نحو الشاب وأخبرته بأنها ملكة الأسماك في العالم، وقالتْ له: «رافقتكَ السلامة وحسنُ الحظ أينما ذهبت. خذْ حرشفة من أسفل جناحي الأيمن واحتفظ بها. وإذا احتجتَ إلى مساعدتي فما عليك سوى أن تفركَ هذه الحرشفة وسوفَ آتيكَ في أيّ جزءٍ قد تكونُ فيه من العالم».

أخذ الشاب الحرشفة من جسم الملكة، التي كانتْ مصنوعة من المجوهرات كباقي حراشفها، ووضعها في قطعة القماشِ بجانبِ شعرة الدبور. وتابع رحلته الطويلة. ولا أحدَ يعلمُ كم مضى عليه وهو يسير عبر البراري والقفار حتّى وصلَ إلى أرض البور السابعة التي كانت بلا زرعٍ ولا ماءٍ كالأراضي البور السابقة.

وهناك وجدَ في طريقه خلداً واقفاً فوق الأرضِ وعاجزاً عن الحركة بسبب العمى الذي أصابه بعد تعرّضه لضوء النهار بشكلٍ مفاجئ، وكان يحاولُ العودة إلى جحره حيث يوجد أطفاله الذين

يتضورون من الجوع. كان منظره يثيرُ الشفقةَ بالفعل. فقامَ الشاب بحملِ الخلد وبوضعه برفقٍ أمامَ الجحر في التلة القريبة ليعود إلى بيته.

وقالَ له الخلدُ وهو يشعرُ بالامتنان نحو الشاب: «رافقتكَ السلامةُ وحسنُ الحظِ أينما ذهبت. خُذْ مخلباً من قدمي اليمنى واحتفظ به. وإذا احتجت إلى مساعدتي فما عليك سوى أن تحفرَ الأرض به، وسوف آتيكَ في أيّ جزءٍ قد تكونُ فيه من العالم».

أخذ الشاب المخلب ووضعه في قطعة القماش نفسها، وواصل سيره عبر الأرض اليباب المترامية الأطراف نحو الغابة الخفية التي تمتدُّ على حدود العالم الآخر. ولا أحد يعلم الأيام والليالي التي قضاها في سيره هذا سوى الله سبحانه. ولكن وفي صبيحة أحد الأيام، استيقظ من نومه بجنبِ صخرة استراح عندها يوم أمس، ورأى بعيداً في الأفقِ شعلة من النار مثل التي يُشعلها الرعاة عند حظيرة الأغنام. كان هذا بيت الساحرة التي تملكُ الحصان المسحور.

شعرَ الشاب بالسعادة الغامرة عندما وجدَ نفسه بالقربِ من حافة نهاية العالم. وازدادتْ سعادته في مساء اليوم الثالث عندما

وصل أخيراً إلى بيت الساحرة، الذي كان في وسط الأرض اليباب عند طرف الغابة تماماً التي تمتدُّ إلى أبعدَ مما يستطيعُ أن يراه، وفوق سهلٍ واسع الأرجاء مغطى بالعشب الأخضر تتخلله جداول الماء الرقراق، ولكن في وسطِ هذا السهل كان هناك عدد من الأعمدة منصوبة عالياً وفي أعلى كل عمود كان هناك جمجمة بشرية.

كان كوخُ الساحرة يقعُ وسطَ هذه الأوتادِ المرعبة مع شجرة حورٍ باسقة أمامَ الباب وعلى اليمين واليسار أشجار الصفصاف الوردية. كل ذلك يثبتُ أن الساحرة العجوز التي قابلها في بداية رحلته كانتْ على حق، فالمنظر لم يكنْ مدعاة للبهجة والسرور. استجمع الشاب قوته وشجاعته وتقدّمَ نحو باب الكوخ الذي بدا مهجوراً في وسط هذه الأرض اليباب.

كانت الساحرة تجلسُ على كرسي بثلاثِ قوائم عالية في المدخل، وأمامها مرجلُ ماءٍ كبيرٌ موضوعٌ على منصبٍ حديدي كبيرٍ فوقَ نارٍ تشتعلُ بدون دخان. وكانتْ تمسكُ في يدها اليمنى عظمة ساق لأحدِ العمالقة لتستخدمها في تحريك الأعشاب التي كانت في المرجل. وعندما بادرها الشاب بإلقاء التحية، نظرت إليه

بإمعان من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه. وردت قائلة: «أهلاً وسهلاً أيها الشاب الشجاع. كنتُ أتوقّعُ قدومكَ منذُ مدّة طويلة لأن هذا المرجل مضى عليه وقتٌ طويلٌ وهو يهتزُّ من شدة غليان الماء ويُخبرني باستمرار بأنكَ لا تزال على الطريق».

شعر الشاب بالسعادة لحسن استقبال الساحرة، ولمْ تبدُ له من النوع الشرير وهي تنظر إليه بلطف وتتحدث بنبرة حسنة. كانت الساحرة أيضاً سعيدة لقدوم الشاب ولكن ليس لمساعدته، بل لأسبابٍ أخرى سنعرفها حالاً.

اتفقت الساحرة مع الشاب أن يقوم برعاية قطيع الأحصنة لمدَّة سنة كاملة، وستدفعُ له مقابل ذلك في آخر السنة حصاناً يستطيعُ أن يختاره بنفسه. ولكن إذا أضاعَ القطيع فيتعين على الشاب في هذه الحالة أن يدفع رأسه للساحرة ثمناً لذلك. إذ كانت الساحرة تستعينُ بالجماجم المعلّقة على الأوتاد لكي تحمي نفسها والكوخَ من هجمات الأقزام الشريرة. وقد استبقت الساحرة كل ذلك بالمبادرة بشكل فوري إلى وضعِ وتدٍ في الأرض علقّتْ في أعلاه قبعة الشاب الشجاع.

قبِلَ الشاب بعرضِ الساحرة، ثمَّ تناول لقيمات من الطعام التي قدّمته له لكيلا يذهب لرعاية القطيع وهو جائعٌ وتَعِب. وبينما كان الشاب يتناول هذه اللقيمات قامت الساحرة بسوقِ قطيع الخيول إلى وراء الكوخ وبهشّهم بعظمة الساق التي تحملها وهي تذكّرهم بألّا يشربوا الماء من النبع خلالَ النهار لأن لها تأثيراً مخدّراً في ذلك الوقت. لكن الشاب لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك.

ولمّا وصل الشاب إلى المراعي مع القطيع وقت الظهيرة، أصابه عطش شديد جعله يقفُ عندَ أول نبع ماءٍ يراه. وشرب على الفور الماء منه حتى ارتوى تماماً ولكنه سرعان ما غطَّ في نومٍ عميقٍ على حافة النبع.

ومع الخيوط الأولى لفجرِ صباحِ اليوم الآتي، استيقظ الشاب من نومه ليجد أن كاملَ القطيعِ قد اختفى دون أثر. وبدأ بالركضِ باحثاً عن القطيع دونَ جدوى. ووقفَ الشاب وحيداً يندب حظّه ويفكّرُ فيما عساه أن يفعل وقد فقدَ القطيعَ، ومن ثُمَّ سوف يفقدُ حياته بسببِ ذلك. ثمَّ تذكّرَ الدبور وما قاله له حول استعداده لمساعدته متى أراد وأينما كان، فأخرج قطعة القماش

وأخذ منها الشعرة، وهزّها عدّة مرّات. فأتى الدبور ومعه عددٌ كبيرٌ من الدبابير حجبَ ضوءَ الشمس بشكلٍ كامل، وأخبره بما حصل، فقال الدبور للشاب المسكين: «لا تقلق أبداً. إذا كان القطيعُ لا يزال على وجه الأرض فسوفَ نعيده إليك قبلَ شروقِ شمسِ يوم الغد». وانطلقتِ الدبابير يبحثون في كلِّ مكان عن القطيع.

ولم يمضِ كثيرٌ من الوقتِ حتّى رأى الشاب القطيعَ يأتي من بعيدٍ مثيراً سحابة كبيرة من الغبارِ وحوله الدبابير توجّه القطيعَ نحو الشاب عن طريقِ لدغه بشكل مستمر. شكرَ الشاب الدبابير على مساعدتهم، وعادَ بعدها والقطيعُ إلى كوخ الساحرة كما لو لم يحدث أي شيءٍ في يومه هذا على الإطلاق.

نظرت الساحرة العجوز إليه بارتياب شديد وهو يقولُ لها أن عمله هذا اليوم كان على أحسن ما يرام، وأنهُ قد تمكّنَ من رعاية الأحصنة كي تأخذ حاجتها من العشبِ والماء في المرعى. وفي الليلة الآتية، فضّل الشاب ألّا يتناول أي شيءٍ من طعام الساحرة لأنه باتَ يعتقدُ أن هذا الطعام قد سبّبَ له العطشَ الشديدَ في الليلة الماضية.

ولكن عندما ساقَ القطيع إلى المراعي، شعرَ مرّة أخرى بعطشٍ حارقٍ استهلك قواه بمجرّدِ أن رأى ماء النبع الصافي، وكانت مياه الينابيع تتدفق من تحت قدميه وحيثما ذهبَ في المراعي إلى أن وصلَ إلى مرحلة لم يعدْ يتمكّن فيها من ضبطِ نفسه، فأنحنى فوق نبع الماء ليروي ظَمَأَه وهو مطمئنّ إلى مساعدة ملك الدبابير وقت الحاجة، ولكنه سرعان ما غطَّ في النوم على الفور بعد أن شربَ أقلَّ القليل من الماء.

ومع الخيوط الأولى لفجرِ صباحِ اليوم الآتي، استيقظ الشاب من نومه مرّة أخرى ليجدَ القطيع قد اختفى من جديد، ولمَّا استدعى ملك الدبابير وجيشه مرّة أخرى، عادَت الدبابير إليه خالية الوفاضِ، وقالت له إنهم لم يستطيعوا إيجاد القطيع على سطح الكرة الأرضية، لذلكَ فلا بدَّ أن يكون قد اختبأ في مكان ما تحت سطح البحر.

تذكّرَ الشاب ملكة الأسماك التي ساعدها أثناء رحلته، فأخرج الحرشفة التي كان يحتفظ بها في قطعة القماشِ وحكّها برفقٍ، وما إن انتهى من ذلكَ حتى ظهرتْ له ملكة الأسماك في حوض النبع الذي بجانبه، وسألته عمّا يريد وعن أوامره، فأخبرها بمشكلته.

وفجأة بدأتْ مياه الأرض جميعها في البحيرات والأنهار والمحيطات تفورُ وتندفع بقوة، وذلك بسبب حركة الأسماك فيها كما أمرتهم الملكة، وفي الوقتِ نفسه كانتْ الدبابير تطيرُ فوق أسطح البحار والبحيرات والمحيطات على أهبة الاستعداد للانقضاض على القطيع وتوجيهه نحو الشاب حالما ترغمه الأسماك على الظهور من تحت مياه البحر.

ولَمْ يَكَدْ يتمكن الشاب من تجميع القطيع وإعادته إلى الحظائر قُربَ بيت الساحرة حين بدأت الشمس في الشروق.

نظرت الساحرة بغضب إلى الشاب وقالتْ له مرة ثانية إنه قد أحسنَ العمل في رعاية القطيع والاهتمام به كما تريد، ولكنها ذهبتْ إلى الخيول غاضبةً وأشبعتها ضرباً بعظمة الساق التي تحملها. إذ لم يبقَ سوى يومٍ واحد وستنتهي المدّة التي اتفقت عليها مع الشاب على رعاية قطيع الخيول، وستضطر بعدها إلى إعطاء الشاب أجره المتّفق عليه. وقد تستغربون من قولي إن المدّة المتّفق عليها والبالغة سنة توشكُ أن تنتهي بعد ثلاثة أيّام فقط من بدايتها، ولكنَّ هذا ليس غريباً، ذلكَ لأن السنة عندَ السحرة تساوي ثلاثة أيام وليالٍ عند البشر.

كان الشاب أيضاً يعرفُ ذلك تماماً حقَّ المعرفة، ولذلكَ كان سعيداً عندما ذهبَ إلى المرعى مع القطيع في اليوم الآتي، وبدأ يأكلُ من رغيفِ الخبز المصنوع من القمحِ وهو يسوق القطيع، وكان كلَّما قضمَ شيئاً من الرغيفِ كانتْ قواه تزدادُ وعطشه ينطفئ. فأصبحَ كلّما رأى ماء الينابيع في المرعى، ويشعرُ بالعطشِ يقضمُ بعضاً من الرغيف، حتى أنهاه كلّه، وبات يتعيّنُ عليه الآن أن يتناولَ رغيفَ الشعير، ولكنه فضّلَ ألّا يفعل ذلكَ لأنه لا يزال أمامه رحلة طويلة وشاقة، وخشي أن ينتهي زاده قبل ذلك. فقرّر أن يتوقفَ عن الأكل ويستسلمَ لعطشه ويشربَ من ماء النبع دون أن يخشى من ضياع القطيع لأنه كان واثقاً من قدرة الدبابير والأسماك على مساعدته. وكالعادة شربَ القليلَ من مياه النبع الباردة والصافية، وغطَّ بعدها في نوم عميق.

وعندما استيقظ من نومه هذه المرّة كانتِ الشمس تعتلي وسط السماء. وهزَّ الشعرة لاستدعاء الدبابير للبحثِ عن القطيع، ولكنَّ أسرابَ الدبابير عادت بأنباء عدم العثور على القطيع على سطح الأرض، فقامَ بحكِّ حرشفة ملكة الأسماك لاستدعاء الأسماك للبحثِ عن القطيع، ولكنَّ الأسماك عادت أيضاً بخفّي حُنين.

فتذكّر الشاب الخلدَ الذي ساعده أثناء رحلته، فأخرجَ مخلب الخلدِ وبدأ بحفرِ الترابِ به لاستدعائه. فأتى ومعه عشيرته بأكملها فأخبره الشاب بما حدثَ وطلب منه مساعدته، فأنطلق الخلدُ على الفور مع عشيرته يبحثون عن القطيعِ تحتَ الأرض، وانطلقت أسراب النحل تحلّقُ فوق الخلدان، وانطلقت الأسماك تحرسُ المياه لمنعِ القطيع من النزول إليها.

وعندما بدأتِ الخيوطُ الأولى من أشعّة الشمسِ تلامسُ ذرا أشجار الصفاف أمامَ الكوخ، وصلَ القطيع إلى الشاب بفضل مساعدة أصدقائه، إذْ كانتِ الأسماكُ تمنع القطيع من النزول في الماء، والخلدان تمنعه من العودة إلى تحت الأرض، وأسراب الدبابير كانتْ توجهه للسير بلسعاتها.

شكرَ الشاب جميعَ أصدقائه على ما قدموه له من مساعدة أنقذته من الوقوع في ورطة أمام الساحرة العجوز. وعادَ إلى بيت الساحرة وشمس الغروب كانت لا تزال فوق الكوخ. نظرت الساحرة العجوز إليه بغضبٍ، ولكن دون أن تنبس ببنت شفة.

وهكذا حان وقتُ وفاء الساحرة بوعدها وإعطاءِ الشاب الحصان الذي يختاره، وبدا الشاب حائراً وهو يفكّرُ في كيفية اختيار أفضلِ حصان في القطيع. وكانت الساحرةُ قد بدأت في استعجاله لكي يختارَ الحصان الذي يريده.

وهكذا جال الشاب بينَ الخيول حيثُ لاحظَ وجودَ مُهر مريض منهك القوى شعرَ نحوه بالشفقة لأنه بدا منبوذاً من قبلِ القطيع ولا أحد يقتربُ منه، لكنه لمْ يفكّرْ في الواقع في اختياره، وذلكَ لحاجته إلى حصان قوي يُعينه في رحلته. ولكنّه كان كلّما دارَ بين الأحصنة يجدُ نفسه يقف مرّة أخرى أمام هذا المهر الضعيف، ولأن الشاب كان طيّبَ القلب كما نعرفُ لم يستطعْ أن يتجاهله أكثر من ذلك، فقرّرَ أن يأخذه وقال لنفسه إنه حتى لو لم يستطعْ أن يستفيد منه كثيراً في رحلته، فإنه في نهاية المطاف سيكون على الأقل قد أسدى لهذا المخلوق الضعيف معروفاً، وساعده على التماثل للشفاء بعد أن يهتم به ويرعاه كما يجب.

وقال لنفسه: «من يدري. لعلي إذا نظّفت شعره بالفرشاة ومشطته واعتنيت بطعامه فقد يصبح حصاناً جيداً أستفيد منه كما يجب».

وعندما وقعَ اختيار الشاب على هذه المهر، امتقع لون الساحرة العجوز حتى أصبحَ مسوداً من شدة الغيظ. إذ كان هذا المهر هو أفضل ما في القطيع، ولكنه كان يُعاني مرضاً ألمَّ به. ولكن ما عساها أن تفعل؟ كانتْ مرغمة على أن تفي بوعدها. ولكنها نصحته كاذبة أن يختار حصان آخر أفضل، وإلا فأنه سيصبح بلا حصان عما قريب، ولكنها في النهاية أعطته الحصان الذي وقع اختياره عليه مع أدوات العناية به من فرشاة ومشطٍ ومحسة وغيرها.

ومع ذلك تبقى الساحرة ساحرة بحكم طبيعة تكوينها. فما إن استوى الشاب على ظهر المهر وغادرَ مودّعاً، ذهبت من فورها إلى حيث يوجد مرجل الماء الكبير الموضوع على منصب ثلاثي القوائم، ووضعته جانباً، واعتلت المنصب، وغيرّت شكل وجهها وجسمها، وطارتْ على ظهر المنصب لتطارد بسرعة البرق الشاب المسكين للإمساك به وقتله واستعادة حصانها منه. شعر الشاب المسكين بوجود شيء مرعب يُطارده. واستعمل على الفور المهماز ليحث المهر على العدو بأقصى ما يستطيع.

وقالَ المهر للشاب: «لا فائدة ترجى من حثي على العدو بأقصى سرعة. فنحن لا نستطيع أن نسبقها في كل الأحوال طالما كنا

نحن في الأراضي التي تسيطرُ عليها. ولكن ألقِ المشط وراءك ليشكل عائقاً في طريقها».

أدركَ الشاب على الفور أنه قد أحسنَ الاختيار عندما أخذ هذا المهر المريض. وأخرج المشط من الحقيبة وقذفه بقوة إلى الوراء، وسرعان ما تحوّلَ المشطُ إلى سورٍ طويلٍ وعالٍ لم تستطع الساحرة أن تعتليه أو تتجاوزه مما أجبرها على أن تلتفَّ حوله لمسافة طويلة لكي تتمكن من متابعة مطاردتها للشاب مما مكنه من كسبِ الوقت ليجعل المسافة بينه وبينها تصبحَ أطول فأطول.

ثمَّ قال المهر: «والآن ألقِ الفرشاة».

فألقى الشاب الفرشاة والتي تحوّلتْ على الفور إلى غابة كثيفة من الشجرِ الأخضر الطويل مما أعاق كثيراً تقدم الساحرة العجوز.

ثمَّ قالَ المهر للمرة الثالثة: «ألقِ الآن المحسّة (أداة لتنظيف جسم الحصان). وعندما نظر الشاب وراءَه بعد ما ألقى المحسّة رأى غابة كبيرة من السكاكين والسيوف، وبدت الساحرة في وسط كل ذلك تحاول بكل جهدها أن تمر عبر هذه الغابة مما أدى إلى تقطع جسدها بالكامل إلى قطع صغيرة كاللحم المفروم».

ولمّا وصل الشاب إلى الغابة السابعة والأخيرة حيث ينتهي عالم مملكة الساحرة، هزَّ المهر جسمه، وتعافى من العلل التي أصيبَ بها، وأصبحَ حصاناً جميلاً بجناحين لم يرَ أحدُ مثلَه قَطّ.

وقالَ الحصان: «والآن تشبّث بقوة على السرج. سوف أحملكَ بشكلٍ لم يسبق لأحد من أمثالك الشجعان أن مرَّ به من قبل، سنذهبُ من هذا العالم إلى العالم الآخر معاً، لأن لدي أنا أيضاً شقيقة أبحث عنها هناك».

أصيبَ الشاب بالدوار من شدّة سرعة طيران الحصان فوق الغابة وهبوطه بسرعة في العالم الآخر من خلال فتحة كبيرة في الجزء الآخر من الغابة. ولمَّا استعاد تركيزه وجدَ نفسه على شاطئ العالم الآخر مع حصانه الذي هزّ جسمهِ مرّة ثانية ليتحول إلى أميرٍ وسيم بجدائل شعر طويلة، وهو يقول: «رافقتكَ السلامةُ وحسنُ الحظ أينما ذهبت لأنك حررتني من لعنة تعويذة ساحرة الغابة الشريرة».

«وأعلم أنني ابن الإمبراطور الأحمر وقد خرجت للبحث عن شقيقتي، ولكني ولسوء حظي التقيتُ عند طرفِ الغابة بالساحرة

الشريرة التي اشتكت من عدم قدرتها على مواصلة المشي ورجتني أن أقلّها ورائي على ظهر حصاني. ولكنني عندما قمتُ بذلك بدافع من الشفقة حولتني بسحرها إلى حصان وحكمتْ عليّ بأن أبقى رهين هذا الشكل حتى يأتي رجلٌ شجاع يختارني لكي أذهب به إلى العالم الآخر، حينئذ أعود إلى شكلي البشري، وقد كان ذلك على يديك يا صديقي».

شعرَ الشاب بسرور وغبطة كبيرين لأنه لم يعدِ الآن وحيداً في مهمته للبحث عن شقيقته. فأخذ رغيف خبز الشعير وقسمه إلى شطرين أعطى ابن الإمبراطور الأحمر قسماً واحتفظ لنفسه بالقسم الآخر، وتعاهدا على أن يكونا أشقاء حتى الموت. ذاقَ الأمير طعم رغيف الخبز وعندما تناوله شعر بازدياد في قوته وبازدياد محبته للشاب الشجاع. وروى كلٌّ واحدٍ لصاحبه قصصه وتجاربه، ومن ثم تابعا طريقهما بجدٍّ وعزمٍ كبيرين.

وهناك في الأفق البعيد عند نهاية الشريط الساحلي ارتفعت أبنية تلمع من شدة الإضاءة. كانت المدينة جميلة حقاً لدرجة أن المرء كان يرغب حقاً في التجول في جميع أنحائها للأبد. وكانت الأبنية، التي اعتقد البطلان أنها يجب أن تكون قصور التنانين، تشعُّ بالضوء،

والمساحات الخضراء منتشرة في كل مكان مع الورود والزهور الفواحة والطيور بريش ملونٍّ جميلٍ وحيوانات أليفة.

وكان الرجال في هذه المدينة لا يدركهم الهرم بل يبقون تماماً في العمر نفسه الذي يدخلون فيه المدينة، وذلك لأنه لا وجود للزمن هنا، فلا توجد شمس تشرقُ أو تغيب، ولكنَّ الضوء كان يشعُّ من السماء نفسها. وعندما وصلَ البطلان الشقيقان إلى مشارف هذه القصور الجميلة بعدَ مسيرة ثلاثة أيام، توقفا عندها لبرهة من الوقت لأن جمالها كان يُبهر الناظرين ولاسيّما أبراجها العالية وجدرانها المبنية من الأحجار الناعمة كالمخمل والمغطّاة بألواح مجففة من الثلج بفعل الشمس. لكن هذه القصور كانت تبدو مهجورة وفارغة.

دخل الشاب والأميرُ أحد هذه القصور وتجوّلا في جميع أرجائه وغرفه وقاعاته الكبيرة المزودة بأغلى أنواع المفروشات. لم يجد الشاب والأمير التنانين في الداخل كما ظنّا، واعتقدا لبرهة أن التنين صاحبَ القصرِ ربما يكون قد خرج للصيد، فقررا الانتظار لحين عودته. وقام كل واحد منهما بالاستلقاء على أريكة فاخرة

وبالاسترخاء لبعض الوقت عندما نهضا فجأة من مرقدهما مدهوشين لما يسمعانه.

كان ينساب من إحدى غرف القصر صوت فتاة رائعة الجمال تغني أغنية عاطفية جميلة بعنوان «يا عزيزي» كلماتها مؤثرة لدرجة كبيرة تؤثر حتّى على الحجرِ الأصمِّ، وتجعلُ من يستمع إليها كما لو أنه في الفردوس الأعلى. لم يستمعا طويلاً للأغنية، بل أنطلقا نحو مصدر الصوت بشكل عاجل.

وكان هذا ما شاهدوه. في أحد أطراف القصر كان هناك برجٌ زجاجي يوجد فيه فتاة تغزل على مغزلها وهي تبكي. وكانت دموعها المنهمرة على وجنتيها تتحول على الفور إلى جواهر ولآلئ. كانت فتاة رائعة الجمال. ولو كانتْ في العالم الحقيقي لتقاتل الرجال على خطب ودها والزواج منها. وعندما نظرا إليها وقفا مدهوشين بلا حراك لمدّة من الوقت وهما يحدّقان بها. وعندما لاحظتِ الفتاة وجودهما توقفت عمّا تفعله مكتفية بالنظر إليهما في دهشة كبيرة.

لم تكن هذه الفتاة شقيقة أيّ من بطلينا. ولكن كما يحدثُ عادة في مثل هذه الحالات، اعتقد كلُّ منهما أن الفتاة هي شقيقة الآخر.

وقال الشاب مخاطباً الأمير: «سأبقى هنا. وبإمكانك أن تستمرَّ في البحث وتنقذ شقيقتي وتتزوجها». وأجاب الأمير: «لا. سأبقى أنا هنا. وبإمكانك أن تستمرَّ في البحث وتحرير شقيقتي لأن هذه الفتاة ستصبح زوجتي».

وسرعان ما فهما أن الفتاة الجميلة لم تكن شقيقة أيٍّ منهما. وأصبحا على وشك أن يتقاتلا على البقاء والفوز بودِّ هذه الفتاة الجميلة.

وقالت الفتاة: «قفا ولا تتقاتلا. يجبُ أن تعرفا حقيقة حالتي قبل أي شيء. أنا لستُ من البشر، روحٌ بلا جسدٍ، ولقد فقدتُ كياني المادي منذ أن خطفني التنين صاحبُ القصر هذا وحبسني هنا، ولا أستطيعُ استعادة كياني المادي حتى أعود إلى عالمي، وسأتلاشى تماماً في حال ماتَ التنين قبلَ خروجي من البرج. وحتّى ذلك الحين، سأبقى أغزلُ وأغنّي وأبكي لأنني أفكّرُ في أمي التي كانت تقوم بذلكَ في طفولتي. ويجبُ أن تعرفا أن شقيقتيكما هما أسيرتان لدى الشقيقين الكبيرين لصاحب هذا القصر».

وما إن سمع الشاب والأمير كل ذلك، قرّرا أن يُغادرا على الفور لكيلا يُضيعا المزيد من الوقت. وقالتْ لهما الفتاة: «توقفا.

ربما كنتما تعتقدان أنه بإمكانكما التغلّب على التنين بالإرادة القوية فقط. ولكنْ يجبُ أن تعرفا أن التنين الأم قد وضعتني هنا كي تشجّع ابنها الأصغرَ على خطفي كي يثبت جدارته، وإلا فلن يستطيع الزواج منّي، ولأنه يجبُ على الأشقاء الثلاثة أن يتزوجوا في اليوم نفسه، فهم جميعاً ينتظرون الشقيق الأصغر كي يخطفني ويثبت جدارته، وحتّى ذلكَ الوقت، لا تزالُ هناك فرصة لإنقاذ شقيقتيكما عن طريق منع التنين الأصغر من خطفي. لأنه أن حدثَ واستطاع خطفي، فسوف يتزوج التنانين الثلاثة مني ومن شقيقتيكما وسيكون الأوان قد فات على إنقاذهما.

«وإن كنتما تبحثان عن التنين الأصغر، فأنه سيعود كعادته من الصيد ويقفُ بجانب البرجِ هنا منتظراً الفرصة لكي يستطيعَ خطفي. ولذلك ابقيا هنا واعملا على التغلب عليه هنا. وعليكما الانتباه إلى أمرٍ مهمٍّ وهو أنكما لن تستطيعا التغلّبَ عليه خارج فناء القصر هذا لأنه حينئذ يصبح خفيّاً لا يمكنُ لأحدٍ مشاهدته. وهو عندما يعودُ إلى القصرِ يضربُ البوّابة بهراوته الغليظة مما يجعلُها تصطدمُ بقوّةٍ بجدرانِ الممرَّ، ويجعلُ الأرض تهتزُّ ويجعلُ أيَّ إنسان فاقداً لوعيه من هولِ الصدمة. لذلكَ عليكما أن

تثبّتا البوابة في مكانها على مفاصلها بحيث لا تتراجع البوابة بقوةٍ عندما يضربها بهراوته. وإذا كنتما تستطيعان ذلك فابقيا وإلّا فغادرا على بركة الله، لأنه سيكونُ من المؤسف حقاً أن تفقدا حياتكما على يديه».

نظر الشاب والأميرُ بعضهما إلى بعض، وهما يدركان أن هذا العمل يجب القيام به في كل الأحوال والظروف. وقرّرا البقاء على بركة الله. وبينما ذهب الشاب ليثبّتَ البوابة في مكانها، سحبَ الأميرُ سيفه وتربص بالتنين في فناء القصر منتظراً قدومه. ويُمكن للمرء أن يدركَ على الفور مقدارَ خوفِ بطلينا مما هو آتٍ.

ولم يمضِ سوى القليل من الوقتِ حتّى سمعا صوت اصطدام الهراوة بالبوابة يُخيلُ لسامعه بأن نهاية العالم قد حانتْ. واعتقد الشاب أن قلبه سوفَ ينفطرُ من هول الموقف، لكنّه تمكّنَ رغمَ ذلك من تثبيتِ البوابة في مكانها. ولمّا رأى التنين أن البوابة لم تنفتح على مصراعيها كالعادة، وقف يستطلعُ الأمرَ في غرابة ودهشة كبيرتين.

وقال التنين: «وماذا يعني هذا؟! لا بدَّ أنني تعبٌ بعضَ الشيء من رحلة صيد الأمس». لم يكن التنين يتوقع أبداً ما كان ينتظره في داخل القصر.

وعندما دخلَ من البوابة، لم يلحظ التنينُ وجودَ الشاب، وتوجّه مباشرة نحو فناء القصرِ حيث كان الأمير ينتظره قلقاً من صعوبة المواجهة.

لنْ نطيلَ الحديث هنا أكثر من ذلك، فنحنُ نعلم دائماً ماذا يحدث عادة عندما يتعاركُ تنينٌ وأمير. كان الأميرُ شجاعاً حقاً ولكنَّ التنينَ كان الأكثر شباباً بين أشقائه الثلاثة. فتقاتلا مدّة طويلة لا يعلمها إلّا الله. وبعدها عندما أدركا أن أحدهما لن يستطيعَ التغلب على الآخر، بقيا يتقاتلان مع ذلكَ، بينما كان الشاب لا يزال يمسك ببوابة القصر التي أنخلعت مصاريعها لئلا تقعَ على الأرض وتحدثَ الهزّة.

ولّما شعر الشاب بأن قواه بدأت تنهار وبأن لاًّ أحد منهما سيتمكّنُ من حسم المعركة لصالحه، صرخَ بصوت عال: «أمسكْ به وأطرحه أرضاً، فأنا لم أعدْ قادراً على الإمساك بالبوابة وتثبيتها في مكانها لمدّة أخرى أكثر من ذلك».

استجمع الأمير كل قواه وأمسكَ بالتنين بقوة وألقاه أرضاً محطّماً عظامه، وفقد التنين وعيه من هول الضربة والألم وتمدّدَ على الأرض دون حراك. وبعدها ركض الأميرُ على عجل نحو البوابة وسحبَ الشاب خارج القصر. وبمجرّدِ أن وقعت البوابة، أحدثت هزّة عظيمة هدمت القصر كلّه على التنين الراقد في فناء القصر. ولمْ يبقَ شيءٌ من القصر سوى البرج الزجاجي الذي كان فارغاً ومهجوراً. فالفتاة قد تلاشت منَ الوجود كما قالت في نفس لحظة موت التنين.

حمدَ الشاب والأمير الله سبحانه كثيراً على نجاحهما. وتابعا سيرهما حتى وصلا إلى قصر التنين الثاني. وكانا قد رأيا عن بُعدٍ البرج الزجاجي وسمعا أغنية الحنين والبكاء إياها. لكنَّ الشاب كان يسمعُ أيضاً دقّات قلبه وهو يخفق بشدة أكثرَ من المعتاد ذلك لأنه استطاع أن يميزَ صوتَ شقيقته. وعندما وصلا إلى القصر الجميل، ورأى الشاب الفتاة في البرج الزجاجي، سارعَا إلى اقتحام البرج وباحتضانها بقوة بين أيديهما.

لكن ردّة فعلِ الفتاة في الواقع لمْ تكن كما تصوّرا. فالفتاة التي كانت في البرج، التي هي بالفعل شقيقة الشاب، نظرتْ إليهما

بدهشة. وعندما أخبرها الشاب أنه شقيقها وأنه قد أتى مع الأمير لإنقاذها من التنين، قالتْ له أنها لا تستطيع أن تتعرّفه من وجهه أو شكله لكونه لا يحملُ أي سِماتٍ تشبه سِماتَ شقيقها.

شعرَ الشاب بحزنٍ شديدٍ عندما لم تتعرّفه ولم تقبل بمغادرة البرجِ معه وهو الذي من أجلها قطع البراري والقفار، وواجه العديد من المشاكل والمخاطر، ولكن ألمه وحزنه تضاعف عدة مرات عندما بدأت تقولُ إنّها تحبُّ التنين بشدّة. فهو يأتي كل يوم ليحدّقَ بها بإعجاب وغيرة ظاهرتين، ومع ذلك تركها أسيرة لديه ولم يتزوجها حتّى الآن.

هنا، انتاب الأمير غضبٌ شديدٌ لدى سماعِه ما تقوله الفتاة. وقالَ الأميرُ وهو يشعرُ بالقدرة على حملِ كاملِ القصر على ظهره والطيران به إلى عالمهم: «حسناً. إذا كنت لا ترغبين بالذهاب معنا فسوف نحملك بالقوة».

فأجابت الفتاة: «مهلاً. مهلاً. إذا كان الأمر كذلك، فكل ما أحتاج إليه هو سحبُ مسمارٍ واحدٍ فقط من هذا الحائط الزجاجي لينهارَ البرجُ بأكمله على رأسيكما. ولكنّي أشفقُ عليكما لصغر سنكما، وأنصحكما بألَا تمكثا هنا كثيراً لأن خطيبي التنين يُمكن أن

يأتي في أي لحظة ويمسكَ بكما، ولن يكون لكما بَوَاكٍ مع الأسف على فقدان شبابكما».

وأخرج الشاب من حقيبته رغيف خبز الذرة المصنوع على الرماد وقال لها: «يا شقيقتي تذوقي طعم هذه الخبز الذي أعدّته لك أمكِ على الرماد، وبعدها لن تستطيعي أن تقولي إنني لستُ شقيقك».

قضمتِ الفتاة لقمة من الرغيف، وأدركت على الفور بعد أن تذوقت طعمه بأنه مصنوع على يدِ أمها بسبب مذاقه الذي ما زالتْ تذكره منذ طفولتها. وشعرتْ على الفور بحنين شديد إلى أمها لدرجة البكاء. وقالتْ لشقيقيها الأمير بسرعة: «هيّا بنا نذهب قبل أن يأتي التنين، لأنه إذا وجدنا هنا، فالويل لكم».

وغادرَ الجميع البرج الزجاجي، ولكن البطلين قرّرا أن يفعلا بالتنين هذا مثل ما فعلا بشقيقيه. فانتظرا مدّة من الوقت وواجها التنين عندما دخل القصر وتغلبا عليه وألحقاه بشقيقه الأصغر جزاء لخطفه شقيقة الشاب. وبعد أن شكرا الله سبحانه على تغلبهما على هذا التنين أيضاً، تابعا سيرهما مرة ثانية لتحرير شقيقة الأمير مما هي فيه.

ولكن الأميرة شقيقة الأمير، مثلها مثل شقيقة الشاب، لم تتذكّر شقيقها في البداية ولم ترغبْ أن ينقذها أحد. ولكنَّ الأمير لم يكنْ يملكُ أي شيءٍ يساعد الأميرة على تعرُّف شقيقها. وحاول الشاب عن عبثٍ أن يقنعها بأنها إذا لم تعد معهما إلى البيت برغبتها، فسوف يقومان بحملها على ذلك بالقوة. ولكنّها كانتْ تضع يدها على المسمار الخطير إياه مهددة بتدمير البرجِ فوق رؤوس الجميع. كان من المستحيل ثنيها عن موقفها هذا بالملاطفة أو بالحسنى.

وغنيّ عن القول هنا أنه سيكون من الخطورة بمكان للشاب والأمير إذا ما انتظرا لمدّة أطول من ذلك لحين عودة التنين، فلم يكنْ هناكَ سواهما يستطيعان القتال، وإذا ما أمسك أحدهما البوابة لتثبيتها في مكانها لمنع انهيار القصر، وأنتظر الثاني التنين في وسط فناء القصر لحينِ عودته، فلن يكون هناك أحد يمنع الأميرة من سحبِ المسمار الذي يؤدي إلى انهيار البرج.

فقالَ الشاب الذي أصبح هائجاً لدرجة كبيرة إزاءَ موقف الأميرة: «دعني أهتم بالأمر. سوف أقاتلُ التنين خارج القصر قبل أن يفتح البوابة، وإمّا أن أقضي عليه أو يقضي عليّ!».

وكما نعلم مسبقاً، فإن انتصار الشاب على التنين في هذه الحالة مستحيل الحدوث، ذلكَ لأن التنين سيكون خفياً خارجَ القصر ولن يستطيعَ الشاب رؤيته. كان الأمر أشبه بمطاردة قطة سوداء في الظلام.

خرج الأمير والشاب وشقيقته من البرج، وكمنَ الشاب للتنين أمامَ بوابة القصر، بينما اختبأ الأمير وشقيقة الشاب في حفرة قريبة من القصر حتّى لا يراهما التنين. وأنتظر الشابان قدوم التنين ليضرب البوابة بالهراوة ويرميها في الأرض قبل أن يباغتَه بالهجوم عليه، وكان هدفه من ذلك هو أن يقاتل التنين دون الهراوة الضخمة التي لا تفارق يده.

ولم تمضِ مدّة طويلة حتى سمع الشاب صوت اصطدام الهراوة بالبوابة. أعقبها هزّة عظيمة زلزلت القصر، ثم سمعَ صوتَ الهراوة وهي تسقطُ أرضاً. فظهرَ الشاب أمامَ البوابة منادياً التنين أن يأتي إليه ويقاتله. وقال الشاب بصوتٍ عالٍ مخاطباً التنينَ الخفيّ: «تعال وقاتلني إذا كانت لديك الشجاعة الكافية». كان الشاب يعتقدُ أن التنينَ سوفَ يردُّ بقول شيءٍ ما ومن ثُمَّ سيحدّدُ موقعه من صوته.

لكن التنين شعرَ بأنه أمامَ نِدٍّ قويّ، ولم يفكرْ بقول شيٍ، ولكنه اقتربَ من الشاب الشجاع وهو لا يزالُ خفيّاً، وضربَ رأسَ الشاب ضربة قويّة، ولكنها ولحسنِ الحظّ لم تصبه بأذى بسبب الخوذة التي يرتديها على رأسه. استجمع الشاب قواه وهجم على التنين بعد أن استطاع تحديد مكانه من الضربة التي تلقّاها، وغرز سيفه فيما يبدو أنه الهواء، ولكنه في الحقيقة قد عرزَ سيفه في بطن التنين الذي صرخَ من الألم، واستمرَّ الشاب في توجيه الضربات بسيفه مرة تلو الأخرى نحو التنين الذي كان يكشفُ عن مكانه دون أن يدري عن طريق صرخات الألم التي كان يطلقها.

وبعد أن توقّف التنين عن الصراخ، لم يعد الشاب يستطيع أن يحدّد مكان التنين. واعتقدَ أن التنين قد فرَّ من المنازلة. ولكن الشاب أدرك في الحقيقة أن الشاب كان يضربه على الرغم من عدم ظهوره أمامه اعتماداً على صرخات ألمه، فكتمَ صرخاته وسدّد ضربة قوية نحو رأس الشاب مرة أخرى، ولكنَّ الشاب استطاع بمعجزة ما تفادي الضربة القاتلة.

وصرخ الشاب في وجه التنين وهو يهجم عليه بكل قوته: «سأجعلكَ تدفع ثمن ذلك». ولكنَّ الشاب شعر أن قواه بدأتْ

تضعف قليلاً، ثمَّ استطاع أن يصيبَ التنين بسيفه مرتين قبل أن يفقدَ أثره مرة أخرى.

كانت الأميرة تراقبُ كل ما يجري من برجها الزجاجي الذي بقي قائماً بعد انهيار القصر بأكمله. كانتْ تنظر إلى الشاب في استغرابٍ يخالطه إعجابٌ بشجاعته. وعندما رأت التنين يستعدُّ لتوجيه ضربة ثالثة قاضية على رأس الشاب، صرختْ بكل قوتها محذرة الشاب: «يا عزيزي الشجاع، التفت نحو اليسار وابصقْ من فمكَ ثلاثَ مراتٍ لتستطيعَ من بعدها أن ترى بوضوح عدوّكَ التنين».

ولمّا سمع الشاب صوت الأميرة وهي تحذّره، شعرَ بقوة كبيرة تسري في أنحاء جسده طغتْ على كلِّ شعورٍ بالوهنِ والضعف جرّاء جروحِ رأسه، وبعدما قامَ الشاب بما طلبته منه الأميرة، تمكّنَ بعدها من رؤية التنين بوضوح، فهجمَ عليه بكلِّ قوته، وأمسكَ به بيديه القويّتين وضغط عليه حتى تكسّرتْ عظامه وتهشّمتْ أضلاعه، ثم ألقاه على الأرض ميتاً بلا حراك كالجرذ.

لمْ يُضعْ الأمير والشاب أي وقت، وبدأا على الفور في بالتخطيط لعودتهما مع شقيقتيهما إلى عالمهم. قبّلت الأميرة الشاب مما أدّى إلى

سرعة شفاء جروح رأسه وعودة وجهه إلى وسامته القديمة. ثم ذهب البطلان إلى إسطبلات التنين التي كانت وراء القصر المهدوم، وساقَ كلُّ واحدٍ منهما حصاناً سحرياً، وامتطاه ثم مد يده بثبات إلى خطيبته لتصعدَ وراءَه، وذهبَ الحصانان يسابقان الريحَ بمن عليهما تجاه المملكة الحمراء.

وعندما وصلَ الجميع إلى القصرِ الأحمر، كان الإمبراطور سعيداً بعودة ابنه وابنته، وبالتقاء كلٍّ منهما بتوءَمِ روحه. وقسّمَ المملكة بين ابنه والشاب زوج ابنته المستقبليّ. وذهب الشاب إلى بيته ليحضرَ أمّه إلى البلاط الملكي. ولمّا وصلتْ بدأت احتفالات الزواج. يا إلهي كم كان هذا الحفلُ رائعاً، ومن المؤكد أنه سيبقى دائماً حديثَ الناس في كل زمان ومكان(*).

* * *

(*) المصدر: مايت كريمنتز - رومانيا.

صيّادُ الطيور

صياد عجوز يتحدث عن متاعب المهنة

تأليف: ا. إتش راتسلاف

في يوم من الأيام كان يعيش في مدينة إسطنبول رجلٌ يعملُ في صيدِ الطيور للتجارة، وكان يُلَقَّبُهُ جيرانه بصيّاد الطيور. وكان هذا الرجلُ يستيقظُ في الصباحِ الباكرِ ليذهبَ إلى الغابة ويبدأ في صيدِ الطيور، ثم يذهبُ بها إلى السوق ليبيعَ بعضاً منها، قبل أن يعود إلى بيته حاملاً القسم الآخر غذاء لعائلته.

وفي يوم من الأيام لم يستطع اصطياد أيَّ شيء سوى غرابٍ واحدٍ فقط، وأرادَ أن يُطلقَ سراحه ولكنه فَطَنَ أنه بذلك سيعودُ خالي اليدين إلى بيته. وقال في نفسه: «إذا لم أتمكّن من اصطياد الطيور اليوم فسوف أعود على الأقل إلى البيت ومعي غرابٌ يُمكن لأولادي أن يلهوا به ويستمتعوا بوقتهم معه ولا سيَّما أنه لا يوجد في البيت أيّ طير آخر».

وهكذا عَقَدَ عزمه على هذا النحو وهكذا فَعَل. وعندما دَخَلَ الرجلُ البيتَ ورأتْ زوجته الغراب بين يديه، قالتْ له: «ما هذا العفريتُ الصغيرُ الذي أحضرته معك إلى البيت؟ وماذا نفعلُ بمثل هذا الطير الذي لا قيمة له؟» طَلَبَ الغراب، لدى سماعه ذلك، من الصيّادِ أن يُطلقَ سراحه واعداً إياه بأن يكون دائماً في خدمته وفي متناول يده متى أراد. وقال: «سأجلبُ لك الطيورَ ومن خلالي سيصبح عملكَ مزدهراً». فقال الصيّاد في نفسه: «حسناً. حتى ولو كان الغراب كاذباً فلن أخسَرَ شيئاً». وهكذا أطلقَ الصيّادُ الغرابَ من يده وجعله حراً وطليقاً من جديد.

وفي صباح اليوم التالي ذهبَ الصيّادُ ليمارس عمله المعتاد في صيدِ الطيور. ووفى الغراب بوعده وجلبَ له زوجاً من البلابل

الجميلة. فأمسكَ بهما وأخذهما معه إلى البيت. ولكنهما لمْ يمكثا في بيتِ الصيّادِ طويلاً، إذ وصلَ خبرهما إلى كبيرِ الوزراء الذي أرسلَ في طلبِ الصيّاد وأخذهما منه ليضعهما في المسجد الجديد في وسط المدينة.

كان البلبلان يصدحان عالياً بأصواتٍ جميلة وبشكلٍ متناغمٍ طيلة الوقت حتّى إن سكّان المدينة اعتادوا التجمّعَ أمام المسجد ليستمعوا إلى غنائهما الجميل، وسرعان ما وصلَ خَبَرَ ما يحدثُ إلى مسمعِ السلطان.

استدعى السلطان كبيرَ الوزراء، وأخذ منه زوجَ البلابل، وسأله من أينَ حصلَ عليهما. وسُرعان ما أرسلَ السلطان أحدَ أفرادِ الحاشية إلى بيت صيّادِ الطيورِ ليستدعيه لمقابلة السلطان. فقال الصياد في نفسه له: «لا أحدَ من العامة يمثل أمام السلطان إلا بسببِ ارتكابه لخطأ ما. وعلى الرغم من أنني لم أفعل شيئاً يستحقُّ العقاب، هي إرادة السلطان، ويجب تنفيذها». وذهبَ لمقابلة السلطان ووجهه شاحبٌ من شدة الخوف والترقب.

وعندما مَثَلَ الصيّادُ أمام السلطان بادره السلطان بالقول: «يا هذا. هل أنتَ صيّادُ الطيور الذي أمسك بالبلبلين اللذين كانا في المسجدِ الجديد؟».

فأجاب الصياد: «يا جلالة السلطان. أين نعَلاك؟ هذا وجهي أمامكم لتلطمه بهما كما تشاء». فأجاب السلطان: «لا حاجةَ لي بذلك. أريدُ منكَ أن تجد لي والدة هذين البلبلين وستكونُ مكافأتكَ بلا شكٍ عظيمة، ولكن عليكَ أن تَعي أنه إذا لم تتمكنْ من إحضار ما طَلبتُهُ منكَ فسوف أقطعُ رأسكَ».

خرج الصيّادُ المسكينُ من مجلسِ السلطان على غير هدى وهو يرثي حظَّهُ العاثر، وسرعان ما ساقته قدماه إلى بيته بلا وعي وجلس وهو يمعنُ التفكير في كيفية تنفيذِ طلب السلطان، وقال في نفسه: «أنا أحمق بلا شك. كنت أعتقدُ أن مهنتي ستعيلني وعائلتي دون أن أتعرّضَ إلى الخطر أو التهلكة، وها أنا الآن في ورطةٍ مهلكةٍ بسببِ عملي، يا لحماقةِ هذا السلطان: يريدُ منّي البحثَ عن والدة البلبلين وإحضارها له إلى القصر. ومثل هذا الأمر لا يطلبه إلا الحمقى».

وبقيَ الصيّادُ البائسُ على حاله هذا حتى المساء عندما دعته زوجته لتناول وجبة العشاء، وهنا هبطَ الغرابُ على حافة النافذة وسألَ الصيّادَ البائسَ عما يقلقه ويُشغِلُ باله بقوله:

«ما الخَطب؟ ولماذا كلُّ هذا الندب والرثاء؟ ما هي المصيبة التي وقعت فيها؟».

فأجابَ الصياد البائس: «إليكَ عنّي ولا تُزِد عليَّ همّي. أنتَ السببُ في كلِّ ما حدث». وسردَ الصيّادُ البائسُ كل ما حدثَ معه بعد اصطياده لزوج البلابل.

فأجاب الغراب: «هوّن عليك، فالأمرُ أسهلُ بكثيرٍ مما تتصوّر. اذهب في الغدِ إلى قصرِ السلطان واطلب منه ألفَ حِملٍ من حبوب الذرة ثم اجمعها في كومة واحدة، وسوف أخبرُ جميعَ الطيورِ بأن السلطان يدعوهم إلى وليمة فاخرة، وعندها ستأتي جميع الطيور ومن ضمنها والدةُ البلبلين بكل تأكيدٍ. وعندما أشيرُ لكَ عليها، ستجلبُ زوج البلابل في قفصٍ وتقربه منها، وعندما ترى الأم صغيرَيْها فسوف تطيرُ إليهما بلا شكّ. في ذلك الوقت تكونُ قد نصبتَ لها الفَخَّ لتقعَ به على الفور. وبعد ذلك تمسكُ بها وتأخذها إلى السلطان».

اتبع الصيّادُ البائسُ كلّ الخطوات التي ذكرها له الغراب. وأعطاه السلطان ما يريد من حبوب الذرة، وجرت الأمور بعد

ذلك كما خطط الغرابُ وجلب الصيّادُ والدة البلبلين إلى السلطان الذي كافأه فوراً بشكلٍ مجزٍ. ولم يكن الصيّاد يريد الجائزة بقدر ما كان يريدُ أن ينفذَ بجلده من غضب السلطان.

كما تلقّى الغراب أيضاً جائزة مجزية بعدَ ما طلب الصيّادُ من زوجته الاعتذار للغرابِ عمّا قالته في حقه عندما أتى إلى البيت أول مرة.

وفي أحد الأيام، أتى أحدُ أفراد حاشية السلطان إلى الصيّاد من جديد لإعلامه باستدعاء السلطان له على الفور، لم يكذّب الصيّادُ خبراً، وذهب إلى قصر السلطان وهو وجِلٌ مما ينتظره هذه المرة. وعندما مَثَلَ الصيّادُ أمام السلطان بادره السلطان بالقول: «لقد أعطيتكَ مكافأة مجزية في المرة الماضية، وهناكَ اليومُ مكافأة أكبرُ من المكافأة السابقة. أريدكَ أن تُحضرَ لي معلمة هذين البلبلين، وإن فشلتَ في إحضارها فسأقطعُ رأسك».

لمْ يستطع الصياد أن يهمسَ حتى بأي شيء جراء صدمته، لكنه هزَّ رأسه موافقاً وغادر مجلسَ السلطان وهو يندبُ حظّه قائلاً في نفسه: «إنه مصمِّمٌ على القضاءِ عليّ، ولكن من الواضحِ أن بعضَ الشياطين قد أدخلتْ إلى عقله فكرة تعذيبي أولاً قبل ذلك».

وما إن دخلَ بيته حتى وجدَ الغراب يقفُ على حافة النافذة ويبادره بالسؤال: «ماذا حدث لكَ هذه المرّة؟». فأجاب الصياد: «حلّتْ عليَّ مصيبة أكثر سواداً وبؤساً من سابقتها». وحكى للغراب بالتفصيل ما طَلَبهُ السلطان هذه المرة. فقالَ الغراب: «لا تَشغَلْ نفسك كثيراً بهذا الأمر. هيا اذهب إلى السلطان حالاً واطلب منه حمولة سفينة من جميع أنواع الأواني المنزلية لكي تبيعها على أنكَ تاجرٌ من طَرَفِ السلطان».

وعندما يسمعُ الناسَ أن أحد أفراد حاشية السلطان قد عادَ من رحلته البحرية ومعه سفينةٌ ملأى بالأواني المنزلية، سيتجمّعون عند الميناء بانتظار قدوم السفينة، ومن المؤكد أن هذه المعلمة ستكونُ بينهم. وعندما يصعد الناس سطح السفينة لاختيار ما سيشترونه مِنكَ من تلك الأواني، فسوف أًشير إليكَ نحو المعلمة عندما أهبطُ على كتفها. عندها أرفع المرساة وأنطلق بالسفينة إلى عرض البحر ثانية متوجهاً نحو رصيف الميناء الخاص بالسلطان.

انطلقَ الصيّادُ على إثرِ ذلك إلى السلطان طالباً منه سفينة محمّلة بالأواني المنزلية، وطلبَ إرساءها في رصيف الميناء الخاص بالسلطان، ثمَّ انطلق يُشيعُ بينَ الناسِ أن هناكَ سفينة قادمة

محمّلة بالأواني المنزلية، وسرعان ما بدأ الناسُ بالتجمع أمام رصيف ميناءِ المدينة منتظرين وصول السفينة، التي ذهب الصيّاد إليها وانطلق بها في عرضِ البحر ثم عادَ تجاه ميناءِ المدينة كما هو مُخطّط.

وسرعان ما شَرَعَ الناس في الصعود إلى السفينة لشراء الأواني، وأخيراً صعدتْ معلمة البلبلين - التي كانت بالغة الجَمَال - أيضاً وبدأت في تفحُّصِ الأواني المنزلية فوقَ سطح السفينة لتختار منها حاجتها، وهبط الغرابُ على كتفها. فما كان من الصيّاد إلّا أن رفَعَ المرساة بسرعة، وانطلقَ بالسفينةِ مباشرةً نحو رصيفِ الميناء الخاص بالسلطان.

وعندما أحضرها الصيادُ أمامَ السلطان أصيبَ بدهشة كبيرة، سواء أمام ذكاءِ الصيّاد أو أمامَ جمالِ المعلمة، فما كان منه إلّا أن أعطى الصيّاد مرة أخرى مكافأة مجزية أكبر من الأولى. واستضاف المعلمة وأعطاها لقبَ السلطانة وأسكنها في أحدِ الأجنحة الضخمة الملحقة بالقصرِ والمخصصة لزوجاتِ السلطان توطئةً لطلبه الزواج منها.

وبعدَ مرورِ بعضِ الوقت، واجه الصياد مشكلةً أخرى. فقد كانت السلطانة الجديدة غاضِبةً لأنها سوفَ تُجبَرُ على الزواجِ من السلطان وهوَ رجلٌ عجوزٌ ذو لحيةٍ طويلة. وكان السلطان يواسيها على الدوام ويسألها عما يكدّرها ولا سيّما أنهُ يوفر لها في جناحها كلَّ ما تطلبه من حاجات ووسائل الراحة والرفاهية.

ومن المعروفِ أن المرأة الغاضبة أسوأ وأشد قسوة من القطة الشَرِسَة. وعليه فقد قرّرت السلطانة الانتقام مما حلّ بها، وبما أنها تخشى أن تقولَ للسلطان حقيقة ما تشعر به، فقد عَزَمَتْ على الانتقام من صيّاد الطيور المسكين الذي أوقعها في هذه الحالة. وقالت للسلطان: «يا عزيزي السلطان. كنتُ أضعُ في إصبعي خاتماً ثميناً عندما جلبني صيّادُ الطيور إلى هنا. ومن شدّة خوفي حينئذ صدمتُ يدي الحاملة للخاتمِ في سياجِ السفينة، فانكسر إلى نصفين سَقَطَ أحدهما في البحر أمام ميناءِ المدينة».

«إذا كنتُ تحبّني وتهتَمُّ لأمري كما تقول فأرسل في طلب الصيّاد ليقومَ بالبحثِ عن نصف خاتمي المفقود لكي أتمكّن من إصلاحه». فقالَ السلطان: «حسناً، سأطلبُ مثولَه أمامي على

الفَور». وسرعان ما أرسلَ أحد أفراد الحاشية لإحضار الصياد للمثول أمامَ السلطان.

فقال السلطان: «اسمعني أيها الصيّاد، لقد كسرت السلطانة خاتمها يوم جلبتها إلى هنا وسقطَ نصفه في البحر أمامَ ميناء المدينة، أريدُ مَنك أن تجلبَ لي نصفَ الخاتم كما ترغبُ السلطانة لكيلا تحزن، وأنت تعرفُ ماذا سيحدثُ لكَ إن لم تجلب لي ما أردته مِنكَ...».

عادَ الصيّاد البائس إلى بيته وهو ينِدبُ حظّه العاثر الذي لا يفتأ يورطه بالمصائب، ثم ما لبثَ أن وقعَ في نوبةٍ مفاجئةٍ من الضحكِ الإرادي من شِدَّة الضيق وعظَم المهزلة التي وَجَدَ نفسه فيها. وقال لنفسه: «كيف لي ان أعثرَ على نصف الخاتم؟ هذا مستحيل، إن السَحَرة أنفسهم عاجزون عن ذلك».

وسرعان ما أتى الغرابُ كالعادة وسألَ الصيّادَ برفقٍ وقد رأى على وجههِ علاماتِ الضيقِ واليأس: «ما الخطب هذه المرة يا صديقي؟ قل لي من فضلكَ». فحكى الصياد للغراب القِصَّةَ من ألفها إلى يائها.

فقال الغراب: «لا عليكَ يا صاحبي، اذهب إلى السلطان حالاً، واطلب منه ألفَ برميلٍ من الزيت». وكان لدى السلطان مخازن ملأى بالزيوت وقماشِ اللباد، وأعطى الصياد كل ما يريد منهما.

حمّلَ الصيّادُ الكمية في السفينة أمام رصيف الميناء الخاص بالسلطان واتجه صوبَ رصيفِ ميناء المدينة، وعندما وصلَ إلى رصيف ميناء المدينة وشاهَدَ الناسُ البراميلَ المتكدسة على سطح السفينة، اعتقد الجميع أن الصيّادَ قد عاد هذه المرة بحِملٍ من الزيوت من أجل التجارة كما فعل من قبل بالأواني المنزلية.

ولكنَّ الغراب أمرَ الناسَ بصبِّ كل براميل الزيوت في مياه البحر. وأصبحَ سطحُ البحرِ مستوياً كقدح الزيت من كثرة الزيوتِ المُسالة. وألقى الغرابُ نظرةً ثاقبةً في قاعِ البحرِ حتى استطاعَ رؤية نصف الخاتم في القاع. فاندفعَ نحو الماءِ كالسهمِ وغاصَ فيه، واستخرجَ نصفَ الخاتم بمنقاره.

عادَ الصيّادُ إلى السلطان وقدّمَ له نصف الخاتمِ ليعطيه للسلطانة لكي تجمعه مع النصف الآخر لإصلاحه، وشعرَ السلطان والسلطانةُ بسرورٍ بالغٍ بعدما تحقَّق لهما ما أرادا، وبالدهشة الكبيرة لذكاء

الصيّاد، ولم ينسَ السلطان أن يعطي الصيّادَ مكافأة مجزية أكثر من المكافأتين السابقتين.

وفي تلكَ الفترة، كان السلطان يحاولُ بشتّى السبل أن يُقنع السلطانة بالزواجِ وإقامة حفلٍ رسمي في القصر احتفالاً بذلك. وكانت السلطانة ترفضُ ذلكَ أملاً في الهروب، ولكنّها قبلت أخيراً وقالت للسلطان: «إذا كانتْ ذلك رغبتك فأنا موافقة، ولكن بشرطِ أن يتمَّ التخلصُ من الصيّادِ إلى الأبد قبل حفلِ الزواج».

وجدَ السلطان نفسه بينَ نارين. فسيكونُ من المؤلم بالنسبة له القضاء على رجلٍ قدَّمَ للسلطان خدماتٍ كبيرة، كما سيكون من المؤلم له بشكلٍ أكبر لو خَسِرَ فرصةَ زواجه من المعلمة التي يحبها أكثر من جميع زوجاته الأخريات، إذ إن المحبة عادةً ما تكونَ أبدية وأقوى حتّى من الحقيقة.

ولذلك استدعى السلطان الصيادَ، وأثنى عليه كثيراً للخدمات السابقة الكثيرة التي قدمها له تلبيةً لطلباته، وأعلمه أنه يستحقُّ أن يكونَ كبيرَ وزراء القصر... ولكنه يُريدُ منه في الوقت نفسه أن يتفرَّغ كلياً ليقوم بأعباء هذا المنصبِ كما يجب. ولذلك طلبَ مِنه أن يذهبَ لرؤية زوجته وأولاده وأصدقائه، وأن يقوم بوداعهم

والانتقال إلى القصر، على أن يقومَ السلطان بنفسهِ بالاهتمام بهم وبرعاية كلّ شؤونهم كما يجب. وقال له: «ولذلك أطلبُ منكَ أن تعودَ إلى القصر بعد ظهر اليوم لكي تتولى مهامّكَ الجديدة، ولكن هناك اختبار يجبُ أن تقومَ به بمجرّدِ عودتك إلى هنا وقبلَ تولّيكَ هذا المنصبَ المهمّ وهو أن تقفزَ في النارِ».

خرجَ الصيّادُ وكعادته شَرَعَ بنَدبِ حظِّه العاثر والمصائبِ التي لا نهاية لها والتي تقع تباعاً على رأسه. ومثل كلِّ مرّة وبعد أن عاد إلى بيته، أتى الغرابُ وسأل الصيّادَ عن حاله فقصَّ عليه ما جرى وماذا سيحصلُ له عندما يعودُ إلى القصر، وقال له بكل وضوح: «إذا لم تساعدني كالمعتاد فسوف أهلكُ لا محالة وستكونُ أنتَ السبب في ذلك».

أعلمه الغرابُ على الفورِ بما يجب عليه عمله للتخلص من هذه المصيبة الجديدة، وفي أثناء ذلك أشعلَ خدمُ السلطان ناراً عظيمة أمامَ ساحة المسجد الجديد تجمهرَ حولها الكثير من سكّان المدينة ومن المصلّين في المسجد وعلى رأسهم السلطان بانتظار قدومِ الصيّادِ البائس. وسرعان ما وَصَلَ الصياد ووقفَ أمامَ السلطان وعلاماتُ الفرحِ والسرورِ بادية على ملامحِ وجهه.

وقال الصيادُ للسلطان: «يا جلالة السلطان السعيد، إنني على أتمِّ الاستعدادِ لتنفيذِ أمركَ برمي نفسي في النار قبل أن أستلم مهمتي الجديدة في القصر. ولكني أرجو قبلَ ذلكَ أن تحقِّق لي أمنيةً في بالي، فأنا أرغبُ في ركوبِ أحدِ الخيولِ المطهمة مدّةً قصيرة وأدور فيها قليلاً حول ساحة المسجد».

ابتسم السلطان وأمرَ بإحضار أحد أفضلِ الخيولِ لديه في إسطبل القصر. وما إن امتطى الصيّادُ ظهرَ الجوادِ حتى نَفّذ ما قاله له الغرابُ، إذ جعَلَ الجوادَ يعدو بسرعة حول الساحة مما أتعبَ الجوادَ حتّى بدأ العرقُ يظهرُ على جميعِ أنحاء جسمه، فنزل الصيّادُ على الفورِ عن ظهرِ الجواد ومسح جسمه برغاء فمِ الجواد، وعاد ليمتطي ظهرَ الجوادِ من جديدٍ وينطلق به بشكلٍ مفاجئٍ كالسهم إلى وسط النار الموقدة.

وصرخَ الناسُ فزعاً من شِدّةِ الموقف، ولكنهم تفاجؤوا بخروج الصيّاد من النار وهو على صهوة الجوادِ دون أن يصابا بأي أذى. ثم صرخوا مرّة أخرى عندما أعاد الصيّادُ الكرّة مجدّداً ودخل في النار على صهوة جواده ثم خرجَ منها سالماً. وأعاد الصياد القيام بذلكَ مرة تلو الأخرى ستَّ مرّات. وتوجه بعدها

ليقف أمام السلطان وقد تحوّلَ إلى شابٍ يافعٍ في العشرين من عمره حَسَنُ البنيان والملامح. وبدأ الناس المتجمعون حول النار ينادون بصوت واحد: «ارأف به يا جلالة السلطان. فقد قامَ بما رغبتَهُ على أحسن وجه».

واستجاب السلطان لطلبِ الناس بعد أن تاقتْ نفسه الآن لكي يصبح شاباً وسيماً أيضاً مثلَ الصيّاد. فقدّمَ للصيّاد مكافأة مجزية لم يحلم بها في حياته على أملِ أن يدلّه على سِرِّ تَمَكُّنِه منَ الخروجِ من النارِ الموقدة بسلامٍ وعودته شاباً يافعاً من جديدٍ إثرَ ذلك.

فقالَ له الصياد: «هذا أمرٌ سهلٌ جداً يا سيدي. امتطِ ظهرَ حصان مطهمٍ وقُم بالعدو به كما فعلتُ أنا، وانزل عن ظهرِ الحصان عندما يعرقُ بشِدّة وقُم بدهن جسمكَ بالعرقِ الذي على جسمه، ثم اقفزْ فوراً إلى داخل النارِ، وستخرج منها شاباً وسيماً من جديدٍ كما خرجتُ أنا منها».

وفي صبيحة يوم الجمعة جهز خدمُ السلطانِ أحَدَ أفضلِ خيولِه. واعتقد الجميع أن السلطان سيتوجه إلى المسجد الجديد. وكانت هناكَ نارٌ موقدة في ساحة المسجدِ تضطرمُ بشِدَّة. وأخذ

الناسُ يتجمعونَ وهم يقولون بعضهم لبعض: «لا بدَّ أن يكون هناك شخصٌ آخر سيقفزُ إلى النار».

وعندما وصلَ السلطان إلى المسجد، فعل ما قاله له الصيّاد، فعدا بالجوادِ حتّى سالَ منه العرق الذي مسحَ السلطان به نفسه، ثمَّ أمام الناس المتجمّعين، دخلَ السلطان وحده دون الجواد في النارِ بشكلٍ خاطفٍ كالسهم، وأخذ الناس يترقّبون خروجه منها كما حدثَ مع الصيّاد، ولكن هذا لم يحدث، لقد احترق السلطان وأسلمَ الروح، ذلكَ لأن الصيّادَ خدعه هذه المرّة وأخبره بأن يدهن جسده بعرق الحصان، لا الرغو الخارج من فمه كما قالَ له الغراب وكما فعلَ هو.

وصرخ القادة والجنود: «لقد كان مجنوناً بلا شك!» وساروا بصائد الطيور إلى المسجد، وقلدوه سيف السلطان ليصبح السلطان الجديد، والفتاة التي اختارها سلطانة، والغراب كبير مستشاري القصر(*).

* * *

(*) المصدر: ا. إتش راتسلاف - صربيا.

الساحر آيسنكومبف

يظهر دائماً في أوقات
الأزمات والمحن لتقديم المساعدة

تأليف: آندرو لانغ

كان ياما كان في قديم الزمان رجلٌ عجوز عنده ولدٌ واحد يسمى بطرس كان يحبّه كثيراً، لكنهما كانا فقيرين لحد البؤس، ولم يكادا يجدان ما يكفيهما من الطعام في كل يوم.

واتّفق في يوم من الأيام أن مرض الأب مرضاً شديداً، وساءت الأحوال كثيراً، فدعا ابنه بطرس إلى جواره يوُصيه: «يا بني العزيز. لم يعدْ لدينا في البيت كما ترى ما يكفي من الطعام، وبات يتعيّنُ عليك من اليوم أن تضربَ في الأرض لكسب رزقك وتأمين قوتك بنفسك».

«وأعلم يا بني أنه لا يهمُّ على الإطلاق نوع العمل الذي ستقوم به لتحقيق ذلك طالما كان يوفر لك حياة كريمة وشريفة. وتذكّر أنكَ إذا قمتَ بهذا العمل بصدق وإخلاص فسوف تكون موضع ثقة ومحبة سيدك في العمل وهو لن يتوانى على أن يكافئك مقابل ذلك في الوقت المناسب».

وهكذا وضع بطرس رغيفاً من الخبز اليابس الأسمر في حقيبته التي ألقاها على كتفه، وحمل بيده عصا متينة ليتوكأ عليها في سيره، وانطلق في حال سبيله يُلهيه الأمل في إيجادِ عمل يكفيه سؤال

الناس أعطوه أو منعوه. وأخذ يسيرُ ويسير دون أن يجدَ من يريد أن يستأجره لأي عمل ما.

وفي أحد الأيام التقى رجلاً عجوزاً في الطريق، فبادره بطرس بإلقاء التحية وقالَ له بصوتٍ هادئ ووقور، وهو يرفع قبعته احتراماً له: «صباح الخير يا سيدي». فأجابَ الرجلُ العجوز: «صباح الخير. إلى أين أنت ذاهب أيها الشاب؟».

فأجاب بطرس: «أتجول عبر البلاد بحثاً عن فرصة عمل». فقال العجوز: «إذنْ ابقَ معي فأنا أستطيع أن أوفّر لك أكثر من فرصة عمل واحدة». وهكذا وافق بطرس على الفور، وبقي مع الرجل العجوز كما طلب.

لم يكن العمل الذي طلبَ الرجل العجوز من بطرس القيام به صعباً على الإطلاق. كان العمل هو رعاية جوادين وبقرة في إسطبل المزرعة التي يعيش فيها هذا الرجل العجوز. وعلى الرغم من أن عقد العمل كان لمدَّة سنة، فقد كانت هذه السنة تضمُّ ثلاثة أيام عمل فقط، ولذلك لم يكن يتعين على بطرس الانتظار طويلاً لاستلام أجره الذي كان عبارة عن حبة جوز.

عرض الرجل العجوز على بطرس أن يستأجره لسنة أخرى، ولكن بطرس بدأ يشعر بالحنين لأهله ولقريته، وكان يفضل لو أن أجره كانت قطعة نقدية ولو صغيرة عوضاً عن حبّة الجوز هذه ولا سيَّما أن أشجار الجوز تنمو في كل مكان وثمارها متاحة لمن يريد أن يقطفها بقدر ما يريد. ومع ذلك، لمْ يقلْ شيئاً مما كان يجول في خاطره للرجل العجوز الذي أظهرَ له الكثير من اللطف خلال عمله معه في المزرعة. ودّع بطرس الرجل، ومضى في سبيله عائداً إلى قريته.

وكان بطرس كلما اقترب من قريته ازدادت لدية مشاعر الخيبة والخجل من ضآلة الأجر الذي يعود به إلى بيت أبيه. ماذا يُمكن لحبة جوز واحدة أن تفعل من أجله؟ فهي لا تكفي لشراء شريحة من لحم الخنزير. وكان من العبث بالفعل بالنسبة له لأن يعود بها إلى قريته، فهي عديمة الفائدة حقاً. فقرّرَ أن يأكلها في الطريق ويتخلص منها.

وهكذا توقّفَ بطرس لبرهة في سيره، وجلس على صخرة، وكسر حبة الجوز بين أسنانه، ثمَّ أخرجها من فمه لينزع عنها القشرة ويأكل ثمرتها. وما إن قام بذلكَ حتّى خرجتْ منها ثيران

وخيولٌ وأغنامٌ بأعدادٍ كبيرة سدّت الأفق حتى يُخيل للمرء أنها ستمتد حتى نهاية العالم. من كان يُمكنُ أن يتخّيل أن يخرجَ كلُّ هذا من داخل حبة الجوز؟

سبّبَ هذا المشهد المفاجئ لدى بطرس صدمة كبيرة غير متوقعة وأخذ يرتجفُ من هول الموقف. ما عساه أن يفعل بكلّ هذه الحيوانات وأين توجد هذه الحظائر التي يُمكن له أن يضعها فيها؟ وقف حائراً يحدّقُ في هذه الحيوانات في فزع وخوف شديدين. وفي هذه اللحظة بالذات مر من أمامه الساحر آيسنكومبف الذي يظهر دائماً في أوقات الأزمات والمحن لتقديم المساعدة. يا له بالفعل من حظ جيد.

سأل آيسنكومبف الشاب بطرس: «ما المشكلة؟». فأجاب بطرس: «آه يا صديقي. هناك مشاكل عديدة وليس مشكلة واحدة في الواقع. حصلتُ على حبة جوز كأجرٍ مقابل عملي في مزرعة لدى رجل عجوز. وعندما كسرتها لأتناول ثمرتها، خرجَ منها كل هذا العدد من الحيوانات، وأنا في الواقع لا أعرف ماذا أفعل بها».

فقال آيسنكومبف: «هون عليك. واسمعني جيداً يا بني. إذا وعدتني بألا تتزوج طيلة حياتك فسوفَ أُعيد جميع هذه الحيوانات إلى داخل حبة الجوز». وفي خضم هذا الموقف الصعب الذي كان بطرس يجد نفسه فيه لم يتردّدْ على الإطلاق في إعطاء مثل هذا الوعد، ولم يكنْ ليتردّدَ في إعطاءٍ أي وعد آخر أكثر صعوبة أو شدة.

فقام آيسنكومبف على الفور بإطلاق سلسلة من الصفير المتواصل حتى بدأت جميع الحيوانات تنتظم في أرتال متناسقة للدخول بسرعة إلى حبة الجوز مرة ثانية لدرجة التدافع فيما بينها. وما إن وضعت آخر الحيوانات أقدامها في داخل حبة الجوز حتى أطبقتْ شقّتا حبة الجوز بعضهما على بعض. فوضع بطرس بوضع حبة الجوز في جيبه، وشكرَ آيسنكومبف ثم تابعَ سيره نحو بيته في القرية التي أصبحتْ بيوتها ذات السقوف البيضاء تلوح في الأفق.

وما إن وصلَ إلى باب بيته حتى قام من جديد بكسر حبة الجوز لتخرج منها الثيران والخيول والأغنام كما خرجت في المرة الأولى. لم يصدّق العجوز والد بطرس عينيه وهو يرى هذا العدد

الكبير من الحيوانات تتدافع فيما بينها أمام باب بيته حتى إن لسانه قدْ عقلَ من شدة الدهشة والفرح.

وحالما تمكّنَ العجوز من أن يتمالكَ نفسه، سأل ولده بطرس: «كيف استطعتَ يا بني الحصول على كل هذه الحيوانات؟ فأَعْلَمَ بطرس والده بكامل الحكاية وبالوعد الذي قطعه على نفسه أمام آيسنكومبف».

وفي صباح اليوم التالي ساق الأب العجوز بعض قطعان الحيوانات إلى سوق البلدة لبيعها وشراء حاجاته بثمنها. كما اشترى عدداَ من الحقول والمزارع المحيطة ببيته في أقصى القرية حتى غدا وابنه خلال أشهرٍ قليلة من أغنى أغنياء القرية. كل شيءٍ كان يتحول إلى ذهب بين يديهما، حتى جاء يوم كان يجلس فيها الأب مع ابنه في إحدى المزارع الغناء وهما يرقبان قطعان الحيوانات التي ترعى في البراري حتى سدّت الأفق أمامهما، حيث فاجأ العجوز ولده بقوله: «بطرس. لقد حان الوقت لتفكر في الزواج يا بني. أليس كذلك؟».

فأجاب بطرس: «ولكنك تعلم يا أبي أنني لا أستطيع الزواج بسبب الوعد الذي قطعته على نفسي أمام آيسنكومبف». فقال

الأب العجوز: «آه يا بني. وعدٌ هنا ووعد آخر هناك. لا أحد يا بنيّ يُفكر في الوفاء بمثل هذه الوعود التي يقطعها على نفسه. إضافة إلى ذلك، هناك جوادٌ رمادي في الإسطبل أضعُ السرجَ عليه طيلة الوقت، فإذا ما جاء آيسنكومبف ليسألكَ عن سبب تراجعكَ عن الوعدِ الذي قطعته له، يُمكنك على الفور أن تقفز فوق ظهر هذا الجواد وتذهب به بعيداً ولا أحد في العالم يستطيع اللحاق بك. وعندما يغادر آيسنكومبف وتعود الأمور إلى ما كانت عليه، تستطيعُ أن تعود مرة ثانية لنعيش سعيدين مثل سمكتين في مياه البحر».

اقتنع بطرس بكلام والده، ثمّ سرعان ما تعرّفَ فتاة جميلة ذات بشرة قمحية غامقة وافقت على الزواج منه، وأقيم حفل زفاف كبير جاء إليه كل أهل القرية وتخلّله إقامة وليمة ضمت أشهى أنواع الطعام. وكانت موسيقا المرح تصدح عالية من قاعة حفل الزفاف، وجميع أهل القرية يرقصون على أنغامها الجميلة. كان آيسنكومبف طيلة الوقت يرقب كل ذلك من نافذة القاعة بمشاعر مختلطة تائهاً بين التصديق والتكذيب.

فقال آيسنكومبف لبطرس في استغراب شديد: «آه يا شقيقي. ماذا يجري هنا في هذه القاعة. يبدو أنها وليمة حفل زفاف. ومع ذلك، يُمكنني أن أتصور نفسي أنه ربما أكونُ مخطئاً؟ ألم تقطعْ على نفسك عهداً أمامي بألّا تتزوج أبداً؟».

لم ينتظر بطرس حتى يُتم آيسنكومبف حديثه. فما إن رأى آيسنكومبف أمامه حتى ركض بكل قوته نحو الإسطبل ليمتطي ظهر الجواد الرمادي وينطلق كالسهم يُسابق الريح حتى وجد نفسه بعيداً بين الأودية وآيسنكومبف في أعقابه يقوم بمطاردته للحاق والإمساك به.

وظلا يركضان بأقصى سرعتهما حتى دخلا إلى وسط غابات مظلمة لا تصلها أشعة الشمس من كثافة أغصان أشجارها، وعبرا أنهاراً عريضة جداً لدرجة تطلب منهما يوماً كاملاً لقطعها، وسارا على تلال حوافها من الزجاج، وقطعا سهولَ سبعة بلدان وأوديتها وجبالها حتى لكز بطرس أخيراً جواده للتوقف عن الجري أمام بيت امرأة عجوز.

ونزل بطرس عن حصانه وقد أنهكه التعب، وفتح الباب وهو يقولُ لها: «نهارك سعيد يا أمي». فأجابت المرأة العجوز: «نهارك

سعيد يا بني. ماذا تفعل هنا في براري نهاية العالم؟». فأجاب بطرس: «أهرب للنجاة بحياتي يا أمي إلى عالمٍ لا يُمكن أن يصله أحد لأن الساحر آيسنكومبف في أثري ويبغي العثور عليّ».

فقالت المرأة العجوز: «تعال يا بني إذنْ واسترح هنا، وتناولْ بعض الطعام. إن الساحر آيسنكومبف لا يزال بعيداً مسيرة عشرة كيلومترات. ولديَّ كلبٌ سوف ينبح بمجرّدِ اقتراب الساحر منه، لا تقلق يا بني».

وهكذا جلس بطرس مستريح البال، وأخذ يدفّئ نفسه، ويأكل ويشرب حتى بدأ الكلب فجأة في النباح. فقالت المرأة العجوز: «أسرع. أسرع يا بني. يجب عليك أن تغادر فوراً». فانطلق بطرس خارجاً ليعتلي ظهر جواده بأسرع من البرق. ولكن المرأة العجوز استوقفته لبرهة قائلة له: «لحظة واحدة يا بني. خذْ معك هذا المنديل وهذه الكعكة وضعهما في حقيبتك ليكونا في متناول يدك عند الحاجة».

أخذهما بطرس على عجل، ووضعهما داخل حقيبته، وهو يلوح لها بيده مودعاً عرفاناً وتقديراً لما أظهرته نحوه من لطف

وما قدمته له من مساعدة. وسرعان ما انطلق يسابق الريح على ظهر جواده.

وهكذا سار بطرس بسرعة الريح، فقطع سبعة بلدان أخرى عبرَ غاباتٍ أشدّ ظلاماً وكثافة من الغابات السابقة، وأنهارٍ أوسع من الأنهار السابقة، وجبالٍ أكثرُ وعورةً من الجبال السابقة حتى وصل إلى بيت تسكنه امرأة عجوز أخرى.

فبادرها بطرس بالقول: «نهارك سعيد يا أماه». فأجابت العجوز: «نهارك سعيد يا بني. عن ماذا تبحث في نهاية العالم؟» فأجاب بطرس: «أهرب للنجاة بحياتي يا أمي إلى عالمٍ لا يمكن أن يصله أحد لأن الساحر آيسنكومبف في أثري ويبغي العثور عليّ».

فقالت المرأة العجوز: «تعال يا بني إذنْ واسترح هنا، وتناولْ بعض الطعام. إن الساحر آيسنكومبف لا يزال بعيداً مسيرة سبع كيلومترات. ولدي كلبٌ صغيرٌ سوف ينبح بمجرّدِ اقتراب الساحر منه. لا تقلق يا بني. استرح على هذا السرير في أمان واطمئنان».

فقامتْ ودخلت المطبخ لتعدَّ له أنواعاً طازجة من الكعك المحلى بالسكر أكثر مما يستطيع بطرس أن يأكله في شهر كامل.

ولم يكد بطرس ينتهي من تناول ربع هذه الكمية حتى بدأ الكلب الصغير في النباح.

فقالت العجوز: «أسرع يا بني. يجب عليك الآن أن تذهب فوراً. ولكن قبل ذلك ضعْ هذه الكعكة وهذا المنديل في حقيبتك، واحرص على يكونا في متناول يدك بسهولة». فشكرها بطرس لما قدمته له من مساعدة وكرم الضيافة، وانطلق يسابق الريح على ظهر جواده هرباً من الساحر آيسنكومبف.

وانطلقَ بطرس يعبرُ بلداناً سبعة أخرى، وفي النهاية توقّفَ أمام بيت امرأة عجوز أخرى رحبت به مثلما حصلَ من قبل مع العجوزتين السابقتين. ولكن عندما بدأ الكلب الصغير في النباح قفزَ فوق ظهر جواده يريد أن يتابع سيره، فاستوقفته العجوز لبرهة لتقدّمَ له ما قدمتْ له العجوزان السابقتان، وقالتْ له برفقٍ ولين: «أصبح لديك الآن يا بني ثلاثُ كعكات وثلاثة مناديل لأنني أعرفُ أن شقيقتيّ قد قدمتا لك مثل ما قدمتُ لك الآن.

«اسمعني جيداً الآن، وافعلْ ما سأقوله لك. امض في رحلتك هذه سبعة أيام وسبعَ ليال سويا وبدون توقف. وفي صباح اليوم

الثامن ستجدُ أمامكَ ناراً كبيرة متقدة، فلوَّح المناديل الثلاثة في وجه ألسنة النار المتصاعدة ثلاثَ مرات متتالية، وسوف ترى كيف أن النار قد انشقت على نفسها إلى قسمين. اقتحم بفرسك الممرَّ بين القسمين، وعندما تصلُ إلى الوسط ألقِ بقطع الكعك الثلاث وراء ظهرك بيدك اليسرى».

شكر بطرس المرأة العجوز لهذه النصيحة القيّمة، وكان حريصاً على أن يفعلَ كما أخبرته تماماً. وفي صبيحة اليوم الثامن وصل إلى نارٍ موقدة كبيرة جداً لدرجة لم يستطع أن يرى شيئاً ما على طرفيها. ولكن ما إن لوّح المناديل الثلاث في وجه ألسنة النار ثلاثَ مرات متتالية حتى انشقّت النار على نفسها إلى قسمين متباعدين كجدارين يشكّلان ممراً بينهما.

دخل بطرس الممر فوق صهوة جواده، ولمّا وصل إلى منتصفه، ألقى وراءه بقطع الكعك الثلاثة ليبرز من كل قطعة كعك كلبٌ كبير، أطلقَ على الأول اسم وزن العالم، وعلى الثاني قوي كالحديد، وعلى الثالث الأذن مرهفة السمع.

نبحت كل هذه الكلاب مجتمعة بفرحٍ عند رؤية بطرس. ولمّا كان يربت بطرس عليها برفقٍ، رأى عند طرف الممر أنه كان ينغلق

شيئاً فشيئاً أمام الساحر آيسنكومبف الذي كان يعدو جاهداً للحاق به، إلى أن انغلق الممر بشكلٍ كامل قبل أن يصل إليه.

وصرخ آيسنكومبف بصوت عال: «توقف أيها الكذاب الذي لا يحفظ الوعود. لقد تمكّنتَ من التملص من يدي مرة، ولكن انتظر حتى أقبض عليك في المرة الثانية». وهكذا جلس آيسنكومبف بجانب النار عاجزاً عن تجاوزها.

وعندما أدركَ بطرس أنه قد أصبح في مأمن من الساحر آيسنكومبف ولم يعد يوجد ما يخافه، خرج من الطرف الآخر من النار العظيمة، وأخذ يعدو على ظهر جواده ببطء ووراءه الكلاب الثلاثة حتى وصل إلى بيت صغير مطلي باللون الأبيض. وعندما دخلَ البيت وجد نفسه في غرفة كبيرة فيها امرأة قد غزا الشيب شعرها تجلس أمام مغزل صوف، وفتاة جميلة شقراء تقف عند النافذة وهي تسرّح شعرها الذهبي وترسله على كتفيها. فقالت العجوز على الفور: «ما الذي أتى بكَ إلى هنا يا بني؟».

فأجابها بطرس: «أبحث عن مكان أبيتُ فيه يا أمي». فقالت العجوز: «أبقَ معنا إذنْ فأنا أريدُ من يقوم على خدمتي ورعايتي».

فقال بطرس: «يسعدني ذلك حقاً يا أمي». وبعد ذلك أصبحتْ حياة بطرس مع العجوز هانئة وسعيدة جداً. وكان يقومُ بحرث الأرض وزراعتها بالبذور طوال اليوم فيما عدا بعض الفترات التي يقوم فيها برحلات الصيد برفقة الكلاب الثلاثة. وكان كلما عاد بالطرائد كانت الفتاة الشقراء تطبخها لوجبات الطعام اليومية.

وفي أحد الأيام ذهبت المرأة العجوز إلى سوق المدينة لشراء كمية من الدقيق، وبقي بطرس والفتاة الشقراء وحدهما في المنزل. فبدأا في حديث طويل. سألته أين مسقطُ رأسه، وما الذي أتى به إلى هنا. فحكى لها بطرس كامل التفاصيل. كانت الفتاة تستمع بإصغاءٍ لكل ما يقوله لها بطرس، وكان الشك يُساورها حول صدق ما يقول. وعندما خرجَ بطرس ليتابع عمله في حراثة وزراعة الأرض، ذهبت الفتاة إلى غرفته وسرقت المناديل الثلاثة، وانطلقت بأقصى سرعتها نحو النار العظيمة التي ما زالت موقدة عبر طريق قصير تعرفه يمر عبر التلة المجاورة.

وما إن أكملت الفتاة التلويح بالمناديل للمرة الثالثة في وجه ألسنة النار الموقدة حتى انقسمت النار على نفسها مكونة الممرَّ إيّاه.

فقام آيسنكومبف، الذي كان لا يزالُ يرقبُ وينتظر مثل هذه الفرصة ببالغ الصبر، بالاندفاع بأقصى سرعة عبر الممرّ حتى عبره تجاه الفتاة التي أطلقتْ ساقيها للريح من هول الموقف.

حاولت الفتاة أن تجمع قواها قدر ما تستطيع وهي تجري عائدة إلى البيت بأقصى سرعة ممكنة، وآيسنكومبف يُطاردها عن قرب. وما إن وصلت إلى البيت حتى انقطعتْ أنفاسها تماماَ، وسقطتْ على الأرض من شدّة الإعياء وهي تحاول التقاط أنفاسها. ولكن آيسنكومبف تمكّنَ من الدخول وراءَها مباشرة، واختبأ تحت حَجرة موقد النار من دون أن تنتبه إلى ذلك.

ولم يمضِ وقت طويل حتى عاد بطرس من عمله في الأرض، وعندما دخل البيت وجدَ المناديل الثلاثة التي أسقطتها الفتاة عن غير قصد عند عتبة البيت. أخذ بطرس يتساءل كيف وصلت هذه المناديل إلى هذا المكان وهو يعرف تماماً بأنه قد تركها في غرفته. ولكنه أصيب بالفزع الشديد لرؤية الفتاة ممدّدة فوق الأرض بلا حراك إذ سقطتْ بعد أن أُغمي عليها من شدة الجهد والعدو السريع، ووجهها شاحبٌ شحوب الموت.

حمل بطرس الفتاة إلى سريرها، وبدأت تستعيد وعيها بعضَ الشيء، ولكنها لم تخبرْ بطرس بأي شيءٍ حولَ آيسنكومبف الذي كادَ يلقى حتفه تحت حَجرة موقد النار في المطبخ من ثقل جسم الكلب وزن العالم الذي جلسَ فوقها. وفي صباح اليوم التالي وضع بطرس الكلاب في أقفاصها، وذهب بمفرده إلى الغابة ليحتطب. وكان آيسنكومبف قد رآه وهو يغادر متوجهاً نحو الغابة وتتبع خطواته عن قرب، وسرعان ما انتبه بطرس لآيسنكومبف وتسلّقَ شجرة عالية لا يمكن لآيسنكومبف تسلقها.

وأخذ آيسنكومبف يصرخ عند أسفل الشجرة: «انزل عن الشجرة في الحال أيها اللعين. هل نسيتَ وعدكَ أمامي بألا تتزوج أبداً في حياتك؟» فأجاب بطرس: «آه. أعرف أن هذا الوعد يلازمني طيلة حياتي. ولكن دعني أُنَادِ بصوتٍ مرتفع ثلاثَ مرات متتالية».

فقال آيسنكومبف: «يُمكنك أن تنادي مئة مرة إذا ما أحببت ذلك. لقد وقعتَ في قبضتي أخيراً ويجب عليك الآن أن تدفع ثمن عدمِ برّكَ بالوعد». وأخذ بطرس ينادي بصوت مرتفع: «يا وزن الأرض ويا قوي كالحديد ويا صاحب الأذن مرهفة

السمع هلموا لمساعدتي على الفور». سمع صاحب الأذن المرهفة الصوت فقال لشقيقيه: «ها هو معلمنا ينادينا».

فقال وزن الأرض: «إنك تحلم بلا شك أيها الأحمق. فهو لا يزال يتناول وجبة الإفطار في غرفته». وضربه برفق بطرف يده لأنه كان صغيراً، ويحتاج من يعلمه حسن السلوك.

ونادى بطرس مرة ثانية بصوت مرتفع: «يا وزن الأرض ويا قوي كالحديد ويا صاحب الأذن مرهفة السمع هلموا لمساعدتي على الفور». في هذه المرة سمع وزن الأرض النداء أيضاً وقال: «آه. الآن معلمنا ينادينا بالفعل».

فقال القوي كالحديد: «ما أسخفك. أنت تعلم أنه في مثل هذه الأوقات يكون دائماً منهمكاً في تناول الطعام». وضرب وزن الأرض برفقٍ كشقيقيه.

كان بطرس يرتجفُ من شدة الخوف في أعلى الشجرة خشية أن تكون الكلاب الثلاثة لم تسمع نداءاته المتكررة، أو أن يكونوا قد سمعوا بالفعل ولكنهم قد رفضوا الاستجابة لسبب ما. كان أمامه فرصة ثالثة، وأخبره لينادي عليهم، ولذلك جمع كل قواه

ونادى بأعلى صوته: «يا وزن الأرض ويا قوي كالحديد ويا صاحب الأذن مرهفة السمع هلموا بأقصى سرعة لمساعدتي على الفور، وإلا فسأموت لا محالة».

سمع هذه المرة القوي كالحديد النداء وقال: «نعم. إنه ينادينا بكل تأكيد. ويجب علينا أن نذهب على الفور». وما هي إلا لحظات حتى انطلقت الكلاب الثلاثة من أقفاصها تعدو بكل طاقتها نحو مصدر الصوت. ولمّا وصلوا إلى أسفل الشجرة قال لهم بطرس بكل بساطة: «عليكم به». ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى نهشت الكلاب الثلاثة آيسنكومبف بالكامل ليصبح نسياً منسيًّا.

وعندما تأكد بطرس من أن عدوه قد لقي حتفه، نزل بهدوء عن الشجرة وعاد إلى البيت، ثمَّ ودّع العجوز وابنتها الشقراء التي قدمتْ له خاتماً جميلاً مرصعاً بالجواهر. كان خاتماً سحرياً في الحقيقة، ولكن بطرس ولا حتى الفتاة كانا يعلمان حقيقة الخاتم.

كان بطرس يشعر بالأسى الشديد وهو يستعد للانطلاق في رحلة العودة إلى قريته. فهو لم يعد يشعر بالحب نحو المرأة التي تركها هارباً من آيسنكومبف في حفل الزفاف، وبدأ يشعرُ بالحب

نحو هذه الفتاة الشقراء. وعلى كل، كان من العبث التفكير بهذا الأمر. وهكذا بدأ بطرس رحلة العودة بخطوات واثقة وثابتة.

كان يتعين عليه أن يمر بالقرب من النار العظيمة خلال رحلة العودة. وعندما وصل إليها لوّح المناديل في وجه ألسنة النار ثلاثَ مرات متتالية لتنشق النار إلى نصفين كالجدارين بينهما ممرّ صغير. في تلك اللحظة حدث شيء يدعو إلى الغرابة. فالكلاب الثلاثة التي كانت تتبعه أينما ذهبَ تحولت إلى ثلاث قطع من الكعك مرة ثانية، إذ وضعها بطرس في حقيبته، وتوقَّف في طريقِ عودته عند بيوت العجائز الثلاث ليرد إلى كل واحدة منهنَّ منديلها وكعكتها.

وعندما وصل بطرس قريته ودخل بيته سأل على الفور: «أين زوجتي؟».

فقال له والده العجوز: «آه. يا ابني العزيز. لماذا غادرتنا؟ بعد مغادرتك أصيبتْ زوجتكَ بالاكتئاب، وامتنعتْ كلياً عن تناول الطعام والشراب حتى تضاءلَ جسدها وأصبحتْ لا تقوى على الحراك وماتتْ بعدها منذ شهر تقريباً، وهي ترقد في قبرها منذ ذلك الوقت».

بكى بطرس بحرقة على موت زوجته بهذه الطريقة المأساوية. فقد أحبها بحق قبل أن يغادر قريته، والتقى الفتاة الشقراء.

وهكذا واصل بطرس حياته والحزن يعتصر قلبه. ولم يمضِ وقت طويل على ذلك حتى رأى نفسه في المنام وهو يخلع الخاتم الجميل المرصع بالجواهر الذي أهدته إيّاه الفتاة الشقراء من إصبع يده اليمنى ليضعه في إصبع يده اليسرى.

وعندما استيقظ تذكّر منامه على الفور، فقامَ بنفس ما قام به في المنام. وإذ تظهر أمامه الفتاة الشقراء التي أعطته الخاتم بكامل أناقتها، وتقدّم منها على الفور وأخذ يدها وهو يقول لها: «أنت الآن زوجتي إلى أبد الآبدين. وحين يوافينا الأجل سندفنُ في قبر واحد». وهذا ما كان(*).

* * *

(*) المصدر: آندرو لانغ - هنغاريا.

الهيئة العامة السورية للكتاب

العبد الأسود

هل كان العبد مبارك محقاً في طلب الزواج من سيدته الأميرة؟

تأليف: تشارلز سيلر

عبد أسود يعرض على سيدته الزواج لقاء حبه وتفانيه في خدمتها في السنوات الماضية وإنقاذه لها في يوم من الأيام من الموت بين أنياب الذئاب. ترفض الأميرة بالطبع عرضه بشكل قاطع لأسباب عديدة ليس أقلها إنه مخصي. يترك العبد القصر في أحد الليالي ويفر إلى المناطق الشمالية من المملكة ليقيم مملكته

الخاصة ويتزوج الأميرة زين ابنة إكسيتو ملك الأندلس الكاذب تزدهر المملكة تحت حكمه العادل وتعيش أحسن أيامها.

كان يا مكان أميرة عندها عبد أسود. وذات يوم قال العبد، واسمه مبارك، لسيدته الأميرة: «أيتها الأميرة. أعلم أنك تحبين الكونت الطيب يانو كثيراً جداً، ولكنك لا تستطيعين الزواج منه لأنه متزوج. فلماذا إذنْ لا تتزوجينني أنا؟».

فأجابته قائلة: «نعم أنا أحب الكونت يانو وأنا أعلم كذلك أنه متزوج، لكن أبي ملك قوي جداً، ويستطيع إذا أراد أن يُبطل هذا الزواج. وبالنسبة لك فأنا مستعدة للزواج بأقل رجل مرتبة من عرقي من أن أتزوج رجلاً اسودَ مثلك».

فقال مبارك: «تذكري أيتها الأميرة السنوات الطويلة التي أمضيتها في خدمتك بإخلاص وكيف تعودت أن أرعى شؤونك، وأهتم بك عندما كنت صغيرة. ألم أنقذك يوماً من أنياب الذئاب؟».

فأجابت الأميرة: «لا داعي لأن تذكرني أنك تحبني كحب العبيد لأسيادهم. وإذا ما تحدثت مرة ثانية حول رغبتك في الزواج مني فسوف أعلم والدي بذلك».

فقال: «إذا ما ذكرتِ الحب الذي يكنه العبيد عادة لأسيادهم، فأنا لا أعارضك في ذلك. بيد أني أعتقد أن الأسياد أحياناً لا يستحقون هذا الحب بالفعل أكثر من الحب الذي يجب أن يُكنه عادة العبيد لأسيادهم».

فقالت له الأميرة: «أنت مُلك يميننا بالشراء أو عن طريق الميراث، وأنت لا تمت لنا بأي صلة. الرجل الأبيض ينال حب الفتاة التي يختارها بفضل أعمال الفروسية التي يقوم بها ويحققها، ويحمل على سنان رمحه راية مطرزة بحب الفتاة التي اختارها. وكفارس حقيقي ينظم الأشعار على شرفها».

فأجاب مبارك: «الفروسية كما تفهمينها، هي مجرد خرافة بالنسبة إلي؛ لأنه إذا كان أحد فرسانك أصحاب الوجوه الشاحبة يخاطر بحياته، فإنه يفعل ذلك حقيقية نيابة عن شرف وكبرياء عائلته، على الرغم من أنه قد يذكر اسم الفتاة التي يحبها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة؛ ولكن إذا عرّض العبد حياته للخطر من أجل سيده أو حبيبته، فإن ذلك يحسب فقط جزءاً من واجبه».

قالت الأميرة: «أنا آمرك ألا تتحدث إليّ مرة أخرى هكذا، وإلا فسأعاقبك بشدة».

كان العبد المسكين مبارك حزيناً للغاية لما سمعه من الأميرة التي كان يحبها كثيراً، وهي تهدد بمعاقبته. فقال: «الموت يساوي بين جميع الرتب والأجناس. إن رماد الرجل الأبيض الميت والرجل الأسود متشابهان؛ وبالنسبة للموت فإن الملك والمتسول يتساويان. سأهرب من هذا القصر، وأبحث عن ملجأ في المناطق الشمالية حيث المناخ أكثر برودة، ويقولون إن قلوب الناس هناك أكثر دفئاً».

في تلك الليلة بالذات، غادر مبارك القصر لا يحمل معه إلا حبه لسيدته، وسار عبر الضفاف الجميلة لنهر غوادالكيفير، وبيارات البرتقال المفضلة لديه. واختبأ خلال النهار في الكهوف على أطراف الجبال، وبمجرد حلول الليل كان يواصل رحلته.

كان يسافر على هذا النحو منذ عدة أسابيع، وبينما كان يشق طريقه عبر غابة مظلمة، رأى ضوءاً لامعاً عن بعد. ولأنه كان جائعاً للغاية، كان يأمل أن يكون صادراً عن منزل حيث يُمكن أن يحصل على الطعام والراحة. وعندما واصل سيره نحو الضوء وجد أنه لا يصدر عن منزل ما، ولكنه صادر عن كومة من الحطب المشتعل التي يجلس حولها بعض الرجال والنساء.

وخوفاً من أنه قد يكون في إحدى أحياء اللصوص، أخذ احتياط الاقتراب بالاختباء وراء الأشجار؛ وعندما اقترب بما فيه الكفاية من المجموعة لرؤيتها بوضوح، لاحظ أنه بالقرب من النار كانت هناك امرأة عجوز تقف فوق النار وهي تحمل بين ذراعيها طفلاً يصرخ كما لو كان يحترق.

اعتقد مبارك أن هذا الطفل يوشك أن يُشوى على النار، ولم يكن يعرف أن ما رآه هو مجرد عمل من أعمال فك السحر والتخلص من لعنة ساحرة أصابت الطفل.

ولمّا اقترب أكثر من ذلك، سمع العجوز الشمطاء تتمتم ببعض الكلمات التي تخيلها مبارك أنها تستخدم من أجل خنق صرخات الطفل العالية.

وفجأة بدأت العجوز الشمطاء في الصراخ والقفز فوق النار، بينما قام الرجال والنساء الذين أحاطوا بها بضرب الهواء بالعصي الكبيرة، وهو ما يحدث عندما يُفترض أن يخرج الشرير من جسد الطفل.

في هذه اللحظة، حدث أن أظهر مبارك نفسه من وراء الشجرة، عندما لاحظته على الفور العجوز الشمطاء التي وجهت إليه كل

العيون؛ ويُمكن تخيل رعبهم بسهولة عندما يُقال إن مبارك كان أول رجل أسود زار المناطق الشمالية من إسبانيا.

وعندما أدرك مبارك أنهم رأوه، ابتسم ليبين لهم أنه صديق. لكن هذا جعله يبدو أكثر فظاعة بسبب وهج النار، إذ اعتقد الجميع أنه كان هذا الكائن الشرير الذي خرج من جسد الطفل للتو، فجمعوا أنفسهم أولاً ثم ركضوا نحو مبارك مع العصي الكبيرة التي كانوا يحملونها، ولكن مباركاً أطلق ساقيه للريح وسرعان ما ابتلعته ظلمة الغابة.

وبعد أن تمكن من الإفلات من مطارديه، جلس مبارك للراحة والتفكير فيما رآه.

وقال لنفسه: «أعتقد أن هؤلاء الأشخاص كانوا يحاولون صنع ملك عن طريق حرق طفل أبيض حتى يصبح أسود لأنني كنت أرى أنهم لن يأكلوه. وقد قيل لي من قبل إنه في بعض المناطق يكون لديهم فقط ملوك سود، وأنا بالتأكيد في إحدى هذه المناطق».

أمعن مبارك التفكير في هذه الفكرة مدَّةً طويلة، وأخيراً خلد إلى النوم من شدة التعب والإرهاق، ورأى في المنام أنه وصل

إلى مدينة كبيرة، حيث ازدحم الناس لمقابلته، وأنه وُضع على عرش رائع، متوجاً ملكاً، ومتزوجاً أميرته العزيزة.

ثم رأى أنه كان في غرفة نوم رائعة، وأن ملاءات سريره كانت محاطة بدانتيل ناعم بغرض رفع الملابس الثمينة والمطرزة إلى الأعلى قليلاً. وعندما شعر قليلاً بالبرد، وضع يديه على بعض النباتات الشوكية القارصة التي جعلته يستيقظ وينظر حوله.

كان الصباح قد أطل بالفعل منذ مدَّةً طويلة. وكان الأرنب المتردد يتربص تحت ستار الأوراق المتلألئة بقطر الندى. وكانت الطيور تقفز من غصن إلى آخر، عندما تناهى إلى سمعه صوت عجلات بعض عربات السوق وهي تصدر صريراً متواصلاً من بعيد.

نهض مبارك، ونظر إلى نفسه في مياه جدول ماء عابر، فُوجئ برؤية تاج ذهبيّ على رأسه. كان ذلك في الحقيقة مجرد انعكاس ضوء شمس الصباح على صفحة الماء التي تشرق من خلال أوراق الشجر الكثيفة فوقه.

صاح مبارك: «كنتُ عبداً في الليلة الماضية. وفي هذا الصباح أصبحتُ ملكاً».

نظر مبارك في الاتجاه الذي يأتي منه صرير عجلات العربة، وسارع إلى هناك، وسرعان ما ظهر أمام بعض المزارعين مع زوجاتهم الذين كانوا يحملون غلالهم إلى السوق.

اقترب منهم مبارك تدريجياً، ولدى رؤيتهم له وهو يتقدم نحوهم، تركوا سلالهم، وكانوا يعتزمون الهرب لولا أنهم لم يتمكنوا من ذلك من شدة الخوف الذي شل حركتهم ومنعهم من القيام بذلك.

وقال مبارك: «لا تخافوا، لأنني أنا ملككم. حتى الآن كان عليكم العمل من أجل الأغنياء، لكن الآن سيعمل الأغنياء من أجلكم. ولن يكون هناك فقر في مملكتي ولا جوع ولا حزن أيضاً. وسيحل الأزواج السيئون محل الحمير في المطاحن، كما سيكون للزوجات المشاكسات حي خاص بهم. اذهبوا وأخبروا أهل البلدة بأنني أوشك أَنْ أَصل».

وبدأ هؤلاء المزارعون يهتفون: «عاش الملك! عاش الملك الصالح الذي سيخلصنا من زوجاتنا المشاكسات». وهتفت الزوجات: «والذي سيرسل أزواجنا قساة القلوب ليحلوا مكان الحمير في

المطاحن!». وهتف الجميع بصوت واحد: «عاش الملك الذي سيقضي على الفقر في مدينتنا».

وبعد أن عبَّروا عن حماسهم، سارعوا إلى المدينة، وسرعان ما انتشرت الأخبار السارة بأن ملكاً جديداً في الطريق إليهم، وبأنهم سيصبحون جميعاً أثرياء.

ثم أعدوا على عجل بغلاً أبيض اللون زينوه بأفخر أنواع الزينة، ووضعوا أجراساً مرصعة حول رقبته وسرجاً من الذهب على ظهره من أجل أن يمتطيه الملك الأسود، وخرجوا كلهم دفعة واحدة لاستقباله في ظاهر المدينة.

ولمّا اقتربوا من مبارك، خرّوا أمامه ساجدين بعد أن كانوا في البدء خائفين. ولكن لدى سماعهم وهو يخاطب البغل، نهضوا من سجودهم ليستمعوا إلى ما يقول.

قال مبارك للبغل: «سيدي، أشعر بالإطراء الشديد من هذا الترحيب، وأنا أخلع عليك من الآن لقب كبير الوزراء الذي تستحقه عن جدارة نتيجة الحكمة التي أظهرتها في الحفاظ على صمتك في الوقت الذي كان فيه الجميع يريد إسماع صوتهم.

سترى أن الفقراء ستقدم لهم الرعاية والمساعدة، وإنهم سوف يعملون بدورهم من أجل توفير احتياجات ملكهم ووزرائه المختارين الذين أنت رئيسهم. أيها الناس ها هو ملككم وكبير وزرائه! ومن هذا اليوم فصاعداً، أطلب من كل رجل وامرأة في مملكتي أن يعملوا بكل جهدهم ليتحلوا بالصبر وليكونوا واثقين وملتزمين بالصمت مثل وزيري هذا».

ولا بدَّ من الاعتراف بأن هؤلاء الناس قد فوجئوا إلى حد ما بسير الأحداث. ولكن نظراً لوجود رئيس وزراء ظالم لديهم، فقد كانوا قانعين على الأقل بمعرفة أن خليفته لا يستطيع اتخاذ أي إجراءات قاسية.

ومع وجود أفكار مشابهة تشغلهم، أخذو يتلمسون طريق العودة إلى المدينة يتقدمهم ملكهم الأسود ورئيس وزرائه.

ولدى وصول مبارك إلى المدينة دخل إلى القصر وجلس على العرش، حيث وقف البغل رئيس وزرائه إلى جانبه على عتبة أدنى. ثم خاطب الحضور على النحو الآتي:

«أعلمكم أن الأغنياء في هذه المملكة، إذا لزم الأمر، سوف يتنازلون عن ثرواتهم للفقراء الذين سيصبحون أثرياء. ولكن، بما

أنني أفكر في أن أولئك الذين كانوا حتى الآن فقراء يجب عليهم ألاَّ ينسوا واجباتهم تجاه أقرانهم الأقل حظاً، أعلن أن عليهم المساهمة ليس فقط في تغطية نفقات الملك ووزرائه والدولة، ولكن أيضاً لمتطلبات أولئك الذين اكتسبوا الثروات على حسابهم».

«كما أدعوكم أيضاً بأن تخضع جميع النزاعات إلى حكمة البغل رئيس وزرائي الرفيعة، الذي بدون موافقته الشفهية سيكون من المنطق والعدل اللجوء إلى تبادل المتخاصمين للضربات؛ وأطلب من رعاياي ألاَّ يشاركوا في أي حروب مع الدول المجاورة دون اصطحاب زوجاتهم للمعركة».

لقي هذا الخطاب استحساناً كبيراً وتصفيقاً طويلاً، وبدأ البغل الأبيض، الذي لم يَعْتَدِ البيئة المحيطة، ينهق بصوت عالٍ لدرجة أن مباركاً نهض من عرشه وقال:

«استمعوا لصوت وزيري. وهو يطلب منكم التزام الصمت أثناء مبايعتكم وتهنئتكم له بالمنصب الجديد». وبعدها مروا واحداً تلو الآخر وظهورهم محنية في وقار أمام البغل. ولمّا انتهى هذا الحفل أبلغهم مبارك أن جميع الملوك الحقيقيين هم من لونه، لكنه قد عزم على الزواج من ابنة إكسيتو ملك الأندلس الكاذب ومن

ثمَّ، أمر عشرين من رعاياه بالذهاب إلى تلك المملكة لإحضار الأميرة زين الجميلة التي يحبها.

وأضاف مبارك: «وإذا ما سألوكم عن شكلي وحالي الذي أبدو عما أنا عليه، قولوا لهم أنكم لم تشاهدوا أبداً واحداً مثلي من قبل، وإن حكمتي تقترب من حكمة رئيس وزرائي».

وفي نهاية الشهر، عاد الرجال العشرون مع الأميرة الجميلة، التي كانت تقيم في قصر آخر حتى يوم زواجها. وجهَّزت استعدادات كبيرة لهذه المناسبة، باستثناء منطقة واحدة مهجورة من المدينة خُصَّصَت لإقامة جميع الزوجات المشاكسات.

كانت الأميرة حريصة بشكل طبيعي على رؤية زوجها المستقبلي، لكن الحياء منعها من القيام بذلك. وغالباً ما كانت تفكر في عبدها الهارب وحبيبها. لقد جعلها البعد مغرمة به، وشيئاً فشيئاً أصبح أقل سواداً في مخيلتها.

أخيراً حل يوم الزفاف. فانتقل مبارك برفقة جميع حاشيته إلى قصر الأميرة، مرتدياً ملابس رائعة، وأساور ذهبية على ذراعيه الأسودين القويين، وحزاماً من الذهب أيضاً حول خصره. وكان يرتدي درعاً منسوجاً بخيوط من ذهب.

وبمجرد أن رأته الأميرة، تعرفت عبدها السابق، وسرعان ما اقتربت منه وألقت بذراعيها حول عنقه، وهتفت: «أنا لا أستحق الزواج من رجل جيد، ولكن إذا كنت تريدني فأنا لك».

وهتف مبارك: «أيتها الأميرة إذا كنت من قبل عبداً لكِ، فأناً لستُ أقل من ذلك الآن، لأنه منذ خُلق الإنسان أول مرة، جعلت المرأة الجميلة كل الرجال أسرى لديها. وإذا كان لي أن أسألك الآن هل هيمنتك على رعاياك الجدد ستكون مصدر سعادة وسرور بالنسبة لهم بقدر ما ستكون مصدراً للبهجة والمتعة بالنسبة إلي».

وهكذا استفاد الشعب كثيراً من فوائد حكمة الملك والملكة الصالحة. ولم تتجاوز الخلافات أبداً آذان رئيس الوزراء، وعلى حد تعبير الحلاق والشاعر الخالد في المدينة: «ازدهرت المملكة تحت رعاية البغل. وهو ما يثبت أن هناك صفاتٍ في الكائنات الحيوانية سيكون من الأفضل أن يحاكيها حتى أكثر الوزراء حكمة»(*).

* * *

(*) المصدر: تشارلز سيلر ١٨٨٨ - البرتغال.

الجندي والموت

الموتُ هو الحقيقة الواضحة والثابتة في هذه الحياة، فلماذا يُولد الإنسان ويموت؟

تأليف: آرثر ران سوم

أمضى الجندي بوريس قرابة ربع قرن في خدمة القيصر والوطن، وكان كل ما كسبة خلال تلك المدّة ثلاث قطع من البسكويت الجاف، ثم عاد بعدها إلى قريته يحدوه الأمل البدء في حياة ومهنة جديدة. وقبَّل أصدقاءه مودعاً بعد أن خدم معهم كل هذه المدّة الطويلة، وهو يفتخر ويتباهى أمامهم بالولائم التي ستقام له عند وصوله إلى قريته، بعد أن ترك وراءه كل هذه الحروب التي خاضها.

وغنى الجندي في بداية رحلة العودة بأعلى صوته وبحواس شاردة بعض الأغاني التي حفظها منذ الصغر. ولكن ما إن أصبح وحيداً في طرقات الغابة الموحشة حتى بدأ يُعيد التفكير بجدية في كل ما لاقاه في السنوات الماضية وما سيلاقيه في السنوات القادمة، وقال في لحظة صدق مع نفسه: «كنت طيلة السنوات التي أمضيتها في خدمة القيصر الكبير أرتدي الثياب الجميلة، وبطني مُلِئَ بمختلف أنواع الطعام. أما الآن فأنا معرض للجوع والبرد. وكل ما أملكه ثلاث قطع من البسكويت الجاف».

وخلال سيره الطويل التقى متسولاً عجوزاً يرتدي ثياباً بالية. كان يقف في عرض الطريق يطلب بصوت خفيض من العابرين حسنة لوجه الله تعالى. لم يكن الجندي يملك أي قطع نقدية، ولذلك أعطاه إحدى قطع البسكويت الجاف التي في حوزته.

وتابع الجندي بوريس طريقه، والتقى متسولاً عجوزاً آخر يقف في عرض الطريق يطلب من العابرين حسنة لوجه الله تعالى. كان يتوكأ على عصاه ويرتل آيات من الكتاب المقدس. فأعطاه الجندي على الفور القطعة الثانية من البسكويت الجاف التي في حوزته.

كما التقى بعد ذلك عند منعطف الطريق، متسولاً عجوزاً ثالثاً ذا شعر ولحية بيضاء طويلة. كان يقف، وهو يهتز من شدة ضعفه، على جانب الطريق يرتدي الثياب البالية، ويطلب من العابرين حسنة لوجه الله تعالى.

فقال الجندي بوريس لنفسه: «إذا أعطيته قطعة البسكويت الثالثة والأخيرة التي في حوزتي فلن يتبقى لي شيء لكي آكله». فأعطاه الجندي نصف قطعة البسكويت الثالثة المتبقية. وخطر على باله بعد ذلك إمكانية أن يلتقي هذا المتسول مع الآخرين اللذين التقاهما من قبل، ويعلم منهما أنه أعطى كل واحد منهما قطعة بسكويت كاملة في حين أنه أعطاه فقط نصف قطعة.

وقال في نفسه: «عندئذ قد يشعر هذا المتسول العجوز بالإهانة ويؤذيه ذلك. وستكون دعواته بالخير لمن يعطيه بلا استجابة أو فائدة». ولذلك سارع الجندي وأعطاه القسم الثاني من قطعة البسكويت الجاف الثالثة والأخيرة التي في حوزته. وقال في نفسه: «حسناً. سأتمكن بطريقة أو بأخرى من متابعة طريقي بدون قطع البسكويت الثلاث الجافة التي كانت معي».

واستدار الجندي ليواصل سيره نحو قريته عندما وضع هذا المتسول العجوز يده وهي ترتجف من الضعف على كتف الجندي ليمنعه من مواصلة سيره. وقال له: «يا شقيقي هل أنت في حاجة لشيء ما؟».

فرد الجندي بالقول، وهو ينظر بإشفاق إلى الثياب البالية التي يرتديها هذا المتسول العجوز: «ربي يبارك فيك. لا أريد أي شيء منك. أنت مثلي رجل مسكين وفقير».

وقال المتسول العجوز: «دعك من فقر حالي وضعف قوتي. أخبرني فقط ما تريد أن تحصل عليه، وسترى بأم عينيك أنني قادر على تلبيته، وبذلك أرد لك الجميل يا صاحب القلب الطيب».

فقال الجندي: «حقاً لا أريد أي شيء. ولكن إذا صادف أنْ كنتَ تملك كُوتْشِينَة (ورق اللعب / ورق الشدّة) فسوف أحتفظ بها كذكرى منك، وستكون لي مصدراً للتسلية والسعادة في طريقي الطويل».

أدخل المتسول العجوز يده في داخل الثياب البالية التي يرتديها، وأخرج منها علبة وَرَق الشدّة. وقال للجندي: «خذ

هذه الشدّة. وأعلم أنه إذا ما لعبت بها مع أي شخص فستكون أنت الرابح دوماً مهما كان مهارة أو حظوظ هذا الشخص كبيرة. وهذا كيس من الطحين لك. خذه أيضاً. وأعلم أنه إذا صادف أن قابلت أي شيء تريد الإمساك به فما عليك عندئذ إلا أن تفتح هذا الكيس وتدعو ما تريد من الطيور أو حيوانات الغابة أو أي مخلوق آخر إلى دخول الكيس، وسترى بأم عينيك كيف أن هذه المخلوقات قد فعلت ذلك تماماً، وبعد ذلك أغلق الكيس وافعل ما تشاء بهذه المخلوقات الحبيسة في داخله».

فقال الجندي: «شكراً كثيراً لما أبديته نحوي من لطف وكرم»، ثم ألقى الجندي الكيس فوق كتفه، ووضع ورق اللعب في جيبه، وتابع سيره على طول الطريق، وهو يغني أغنية قديمة كان أهل قريته كثيراً ما يغنونها في الأعراس والحفلات.

واصل الجندي بوريس سيره بعزم على طول الطريق المؤدي إلى قريته حتى وصل إلى مشارف بحيرة صغيرة، فشرب منها ما يروي ظمأه، وجلس على ضفافها ليستريح من عناء السير المتواصل، وأشعل غليونه الصغير ليخفف عن نفسه آلام الجوع. وشاهد في الطرف المقابل من البحيرة ثلاث وزات يسبحن فرادى

في مياه البحيرة. وقال الجندي لنفسه: «يا ليتني أستطيع اصطياد هذه الوزات الثلاث». وتذكر على الفور الكيس الذي أعطاه إياه المتسول العجوز. ففتح الكيس وصرخ بأعلى صوته: «مرحباً بكنّ أيتها الوزات البريات. أَقْبِلْنَ وادخلْنَ في هذا الكيس».

رفرفت الوزات البريات على الفور أجنحتهن ليخرجن من الماء، وطرن مباشرة نحو الجندي والكيس الذي يحمله على الضفة الأخرى من البحيرة، وتدافعن للدخول في الكيس الواحدة بعد الأخرى.

أغلق الجندي الكيس وألقى به فوق كتفه وتابع سيره على الطريق حتى وصل إلى إحدى المدن. وهناك أخذ يبحث عن مكان يقضي فيه ليلته ويتناول طعامه، حيث أختار أفضل فندق على الطريق العام موجود في المدينة. وعندما دخل الفندق طلب على الفور مقابلة صاحبه. وقال له: «انظر هنا. معي في الكيس ثلاث وزات بريات أريد واحدة منهن مشوية لأتناولها في وجبة الغذاء. وأعطيك الوزة الثانية مقابل زجاجة كبيرة من عصير البرتقال الطازج، كما أعطيك الوزة الثالثة مقابل أجرة غرفة لليلة واحدة ولتعبك في شَيَّ الوزة».

وافق صاحب الفندق على الفور وخصص طاولة جميلة للجندي قرب إحدى النوافذ وضع عليها زجاجة كبيرة من عصير البرتقال الطازج مع وزة طازجة مشوية للتو في مطبخ الفندق. ولمّا انتهى من تناول حاجته من الوزة المشوية، وضع الجندي بوريس الشوكة والسكين جانباً على الطاولة، وبدأ يشرب العصير الطازج حتى آخر نقطة في الزجاجة، وتركها بعد ذلك فوق الطاولة رأساً على عقب. وأشعل غليونه الصغير وجلس مرتخياً على الكرسي مقابل النافذة، وأخذ ينظر إلى ما يجري في المدينة.

فرأى في أعلى الطريق قصراً فخماً مبنياً بإتقان من الطوب الأحمر الجميل ومطلياً باللون الأزرق السماوي، إذ استغرق بناؤه أكثر من عام بما في ذلك جميع أعمال تصميم الديكور والتزيين وبناء عواميد الأبواب وإطارات النوافذ. وكانت الغرابة عدم وجود أي نوافذ زجاجية في كلّ أرجاء هذا القصر.

وسأل الجندي صاحب الفندق: «يا صاحب الفندق قل لي ماذا يعني كل ذلك؟ لماذا أرى أمامي قصراً فخماً لكن لا يقطنه أحد، والعديد من النوافذ، وبعض جدران السور محطمة؟».

فأجاب صاحب الفندق: «إنه بلا شك قصر فخم بكل ما تعنيه هذه الكلمة. لقد بناه القيصر لنفسه، ولكن لا أحد يعيش فيه بسبب وجود شياطين وأشباح تهيم في أرجائه طوال الوقت. إنه قصر مسحور، ولذلك هجره القيصر ولم يعد موضع اهتمامه».

وقال الجندي: «شياطين؟».

فقال صاحب الفندق: «نعم شياطين من كل الأنواع يتجمعون كل ليلة في أرجاء القصر يلعبون ورق الشدّة وهم يتحدثون ويلعبون بأصوات مرتفعة، ويُحدثون الكثير من الجلبة والضوضاء. ولذلك لا يستطيع الطيبون العيش في القصر».

وسأل الجندي: «وهل حاول أي شخص إخراجهم من القصر؟».

فرد صاحب الفندق بالقول: «من السهل قول ذلك ولكنه أمر صعب بالفعل لا يقدر عليه أحد».

غادر الجندي الفندق بعد أن ودع صاحبه متمنياً له دوام الصحة والعافية، وانطلق ماشياً على الفور لرؤية القيصر. وبعد أن ألقى عليه التحية المعتادة، قال له: «جلالة القيصر. هل لي أن أطلب موافقة جلالتكم على قضاء ليلة واحدة في قصركم المهجور؟».

فقال القيصر: «بارك الله فيك. ولكني أخشى أنك تطلب شيئاً قد لا تعرف عنه الكثير. العديد من الناس الشجعان أصحاب القلوب القوية حاولوا أن يمضوا ليلة واحدة في القصر. وجميعهم أبدوا سعادتهم للقيام بذلك وتفاخروا به أمام الآخرين، ولكن مع الأسف الشديد لم يخرج أحَد منهم حياً في صباح اليوم التالي».

فقال الجندي: «وماذا يعني ذلك؟ الماء لا تستطيع أن تغرق الجندي الروسي كما أن النيران لا تستطيع أن تحرقه. لقد أمضيت ربع قرن في خدمة جلالتكم وها أنا ذا لا أزال حياً أمامكم كما ترون. وقضاء ليلة واحدة في القصر لن تكون نهاية حياتي».

فقال القيصر: «ولكني أحذرك منذ الآن. أحدهم دخل حياً في المساء، وقام الخدم بالبحث في جميع أرجاء القصر عن قطع صغيرة من عظامه».

فقال الجندي: «على الرغم من ذلك، أرجو من جلالتكم الموافقة على السماح إلي بقضاء ليلة واحدة في هذا القصر».

فقال القيصر: «توكل على الله ولك ما أردت إذا كنت مصمماً على ذلك».

وهكذا دخل الجندي بوريس القصر، وبدأ يتجول في أرجائه وهو يغني أغنيه الكاتيوشا الحماسية التي تعلمها خلال خدمته في الجيش. واختار لنفسه أكبر وأوسع حجرة في القصر لينام فيها. فعلق سيفه على مسمار في الحائط ووضع كيسه في إحدى الزوايا، وجلس إلى الطاولة وأخرج علبة التبغ وملأ غليونه الصغير به، وأخذ يدخن بحواس يقظة وعيون مفتوحة تترقب قدوم الشياطين.

وعند الساعة الثانية عشرة بدأ يسمع جلبة وضوضاء وصراخ وأصوات نفخ مرتفعة في البوق والضرب على العود وكل أصوات الآلات الموسيقية والرقص الصاخب تقترب منه شيئاً فشيئاً. كما سمع صوت وقع أقدام تضرب الأرض بشدة أو تجري بسرعة حوله. وأصبح القصر مليئاً بجميع أنواع الشياطين الذين كانوا يتصرفون براحة تامة كما لو أن القصر كان ملكهم.

وصرخ أحدهم يبدو أنه كبيرهم: «وأنت أيها الجندي. ماذا تفعل هنا؟ ولماذا تجلس هكذا متجهم الوجه وأنت تدخن الغليون؟ هناك ما يكفي من الدخان حيث كنا. ضع غليونك في جيبك وتعال العب معنا دق ورق».

فرد الجندي قائلاً: «معك حق، ولكن بشرط واحد وهو أن نلعب بورق الشدّة التي في حوزتي».

فقال الشيطان: «كما تريد». وضع الجندي غليونه في جيبه، وبدأ في توزيع الورق في الوقت الذي أخذ فيه بقية الشياطين يتدافعون من أجل تأمين مكان متقدم حول الطاولة لمتابعة مجريات اللعبة.

انتهت اللعبة وربح الجندي فيها. كما لعبا دقاً آخر ربح فيه الجندي مرة أخرى. كانت الشياطين ماكرة إلى درجة كبيرة. وعلى الرغم من كل ذلك لم يساعدهم مكرهم في ربح أي دق. واستطاع الجندي أن يكسب خلال وقت قصير الكثير من المال من الشياطين حتى لم يبق مع أحد منهم ولا أي روبل. وقام الجندي بثقة كبيرة بوضع ورق الشدة أمامه، وبإشعال غليونه بمشاعر مختلطة ولا سيّما بعد أن شعر أن جيوبه قد امتلأت بالروبلات المعدنية.

وقال الشيطان: «لحظة من فضلك أيها الجندي. لا يزال معنا ستون كيساً مليئاً بالروبلات الفضية، وأربعون كيساً آخر مليئاً بالروبلات الذهبية. وسوف نلعب عليها إذا أعطيتنا الوقت الكافي لجلبهم إلى هنا».

وقال الجندي وهو يدس ورق الشدّة في جيبة: «دعونا أولاً نَرَ أكياس الروبلات الفضية».

فأرسلت الشياطين شيطاناً صغيراً لجلب أكياس الروبلات الفضية. كان الجندي يربح في كل دق ورق. ويخرج من الغرفة ويعود إليها ستين مرة وهو يحمل على كتفه في كل مرة كيساً من الروبلات الفضية.

كان الجندي يلعب بصدق وأمانه، وكانت الشياطين تغش أثناء اللعب بأي طريقة، ومع ذلك لم تستطع الشياطين أن تربح ولا حتى دقاً واحداً.

وقال كبير الشياطين بصوت يهدر كالرعد: «اذهبوا وأحضروا أكياس الروبلات الذهبية».

وقال شيطان صغير وهو يندفع بكل قوته خارج الحجرة: «نعم، نعم يا جدي». وقام هذا الشيطان الصغير بالخروج أربعين مرة من الحجرة ليعود إليها وهو ينوء بحمل أكياس الروبلات الذهبية على كتفيه.

ربح الجندي كل دق ورق، وأخذ من الشياطين كل أكياس الروبلات الذهبية، وسألهم إذا كان لديهم المزيد من أكياس

الروبلات الذهبية أو الفضية، وهو يضع ورق الشدة في جيبه، ويُشعل غليونه الصغير بغير اكتراث.

نظرت الشياطين إلى أكياس الروبلات الذهبية والفضية التي خسروها، وشعروا بالأسى لفقدان كل هذه الأموال الكثيرة. وبدأت تتعالى أصواتهم: «مزقوه إرباً إرباً يا إخوان. مزقوه إرباً إرباً. كلوهُ حتى لا يبقى منه شيء».

دق الجندي على الطاولة بغليونه الصغير وهو يقول بهدوء: «يجب عليكم أولاً أن تتأكدوا من سيأكل من». وفتح الكيس وقال لجميع الشياطين الذين كانوا يسنون أسنانهم ويستعدون للانقضاض عليه وتمزيقه شر ممزق: «ماذا تسمون هذا؟».

فقالت الشياطين: «كيس».

فقال الجندي: «نعم. إنه كيس فعلاً. إذنْ، وبقدرة الله تعالى ادخلوه جميعاً».

ولم تمضي دقيقة واحدة حتى كانت جميع الشياطين تتدافع فيما بينها لدخول الكيس حيث تكدست بعضها فوق بعض في داخل الكيس حتى دخل آخر شيطان منهم. وقام الجندي بعد ذلك وعلى

الفور بإغلاق فتحة الكيس بإحكام بعقدتين متينتين، وعلقه على مسمار في الحائط، واستلقى بعدها لينام ملء جفونه.

وفي الصباح الباكر أرسل القيصر عدداً من الخدم لتفقد أحوال الجندي ومعرفة ما حل به في الليلة الماضية. وقال لهم: «اذهبوا لتروا ما حل بالجندي الذي أمضى الليلة الماضية في القصر المسحور. وإذا قضت الأرواح الشريرة عليه فيجب عليكم في هذه الحالة أن تكنسوا عظامه وتنظفوا المكان جيداً».

جاء الخدم إلى القصر وهم يتوقعون المصير المحتوم للجندي، ويعدون أنفسهم للحزن والتحسر على هذا الجندي الشجاع، ولكنهم ما إن دخلوا القصر حتى رأوه يتنقل بمرح وسعادة بالغين من حجرة إلى أخرى داخل القصر وهو يدخن غليونه الصغير.

وقال أحدهم عندما رأى ذلك المشهد: «هذا رائع جداً أيها الجندي الشجاع. لم نكنْ نتوقع أبداً أن نراك حياً ترزق. قل لي كيف أمضيت ليلتك هنا؟ وكيف تمكنت من التغلب على مكر الشياطين وخبثهم؟».

فقال الجندي: «شياطين؟ كم أتمنى أن يكون كل الرجال الذين لعبت معهم ورق الشدّة قد دفعوا ثمن خسارتهم معي بأمانة

هؤلاء الشياطين. انظر إلى أكياس الروبلات الفضية والذهبية التي ربحتها منهم، وانظر أيضاً إلى أكوام الروبلات المعدنية الموجودة على أرض الحجرة».

نظر الخدم وقد أخذتهم الدهشة إلى الأكياس وأكوام النقود. وتلمسوا العديد من منها للتأكد من صحتها. كانت روبلات حقيقية لا مجال للشك في صحتها، وكم تمنى الخدم أن يكون في جيوبهم الكثير من هذه القطع النقدية.

وقال الجندي لهم: «والآن يا إخوتي اذهبوا على الفور وبأسرع ما يمكن لإحضار حدادات واطلبوا منهما أن يُحضرا معهما سنداناً حديدياً كبيراً ومطرقتين ثقيلتين جداً».

لم يستفسر الخدم عن أي شيء أو يسألوه أي أسئلة، بل قاموا على الفور بالذهاب إلى سوق الحدادين، وعادوا بأقصى سرعة ومعهم حدادان يحملان سنداناً كبيراً ومطرقتين ثقيلتين جداً. كان الحدادان ضَخمَيْنِ جداً ومن أقوى الحدادين المعروفين في سوق المدينة.

وقال لهما الجندي: «والآن خذا هذا الكيس المعلق على المسمار وضعوه على السندان وأريد بعدها أن أرى كيف يقوم الحدادون في المدينة بعملهم المعتاد».

أخذ الحدادان الكيس المعلق على المسمار. وقال أحدهما للآخر: «يا للعنة. إنه ثقيل جداً». وصدرت عن الكيس صرخات مكتومة: «نحن أيضاً أناس طيبون مثلكم. نحن جيرانكم في المدينة».

وقال أحد الحدادان للآخر: «أحقاً ما يقولون؟». ووضعا الكيس على السندان، وبدأ الطرق بمطرقتين ثقيلتين. كانت الطرقات تنهال على الكيس بلا هوادة. وكان كل ما يراه الجندي مطرقه ترتفع وأخرى تهوي بلا هوادة على السندان وبوتيرة منتظمة كما لو أن الحدادين كانا يطاوعان قطعة من الحديد.

تعرضت الشياطين على السندان إلى ضربات موجعة جداً. كانت المطارق تنهال على الكيس بقوة حتى كادت تخرق السندان والأرض التي تحته. كانت ضربات أكبر من أن تتحملها الشياطين المحصورين في الكيس.

وارتفعت الأصوات مجدداً من الكيس: «ارحمنا. دعنا أيها الجندي نخرج من هذا الكيس وليكن عندك رحمة ورأفه بنا. نريد أن نخرج ثانية إلى العالم ولن ننسى فضلك هذا مدى الدهر. وبالنسبة لهذا القصر لن نعود إليه أبداً ولن يدوسه أي واحد منا على الإطلاق.

وسنخبر جميع الشياطين بذلك، ولن يقترب أي واحد منا حتى مسافة مئة كيلومتر من القصر».

طلب الجندي من الحدادان أن يقوما بالطرق على الكيس عدة مرات فقط من أجل التأكد من عدم وقوع أي مفاجأة عند فك العقدتين وإطلاق سراح الشياطين. ثم طلب منهما التوقف وفكَّ العقدتين على عجل. وفي اللحظة التي فتح فيها الكيس خرجت الشياطين من الكيس بسرعة البرق وأطلقت ساقيها للريح لا تلوي على شيء وبدون حتى أن تنظر إلى اليمين أو اليسار من شدة العجلة التي خرجوا بها.

لم يكن الجندي رجلاً ساذجاً أبداً، فقام بمسك شيطان عجوز من قدمه بإحكام والشياطين تتزاحم من خلفه للخروج والهروب بعيداً عن القصر والعودة إلى مقرهم في جهنم. كما جرح رسغ شيطان عجوز كثيف الشعر حتى وصل إلى العظم، فتدفق الدم من الجرح، فأخذ قلماً وغمسه في دم الشيطان وأعطاه إياه، ولكن بدون أن يرخي من قبضته القوية على قدمه.

وقال الجندي للشيطان: «أكتب بخط يديك عقداً بيني وبينك بأنك ستصبح عبداً وفياً ومخلصاً لي تفعل ما آمرك به عند الحاجة، دون تأخير أو تردد».

كان الشيطان يصرخ وهو يحاول الإفلات من قبضة الجندي القوية. لم يكن أمام الشيطان خيارات أخرى. فكتب العقد بخط يده وبدمه يتعهد فيه بأن يقوم على خدمة الجندي بإخلاص في أي وقت وفي أي مكان كلما طلب منه ذلك. وبعد ذلك تركه الجندي لحال سبيله. فأخذ يركض ويصرخ وراء الآخرين وسرعان ما اختفى عن الأنظار في لحظات.

وهكذا عادت الشياطين بأقصى سرعتها إلى جهنم مدحورة ومذعورة وهم يشعرون بألم في جميع أنحاء جسدهم، ودعوا جميع الأرواح الشريرة بمختلف أعمارها وأحجامها إلى اجتماع عاجل إذ أخبروا الجميع بما حدث معهم مع الجندي بوريس. كما وضعوا حراسة مشددة حول جهنم، وكثفوا نقاط الحراسة والمراقبة عند كل بوابة. وطلبوا من الحراس أن يكونوا يقظين دائماً. وأعطوهم أوامر صارمة بألاَّ يدعوا في أي حال من الأحوال دخول الجندي مع كيس الطحين.

ذهب الجندي إلى القيصر ليخبره بما فعله مع الشياطين وكيف أنهم من الآن فصاعداً لن يقوم ولا واحد منهم بوضع قدمه حتى مسافة مئة كيلو متر بعيداً عن القصر.

وقال القيصر: «في هذه الحالة إذنْ سننتقل على الفور للعيش في هذا القصر، وستعيش أنت معنا أيضاً وأكرّمك أمام الجميع بوصفك الأخ غير الشقيق في الحياة». وهكذا بدأ الخدم ينقلون قطع الأثاث بمختلف أنواعها من القصر القديم إلى القصر المهجور لتدب الحياة فيه من جديد. وخصصت إحدى حجرات القصر الكبيرة ليعيش فيها الجندي بوصفه الأخ غير الشقيق للقيصر يلبس كما يلبس القيصر من أفخر الثياب المطرزة بخيوط الذهب، ويأكل مما يأكله القيصر من أشهى وأطيب أنواع الطعام إضافة إلى ما قد يشتهيه هو بشكل خاص.

وأصبح في حوزة الجندي الكثير من المال الذي كسبه من الشياطين لينفق منه ما يريد وكيف يريد، ويحتاج إلى مئات السنين لكي يستطيع إنفاقه كله. ولكن الجندي لم يكن في حاجة لأن ينفق ولو روبلاً واحداً، ذلك أن جميع ما يحتاج إليه أصبح متوفراً له في القصر يطلب منه ما يشاء. ونظراً لأن القوارض لا تستطيع أكل القطع النقدية كما لا يستطيع الدجاج أيضاً ذلك فقد بقيت أكياس الروبلات الذهبية والفضية مكدسة في زوايا حجرته الكبيرة حتى إن الجندي قد مل من كثرة النظر إليها.

ولكن فكر الجندي بوريس جدياً في الزواج. فعقد قرانه على فتاة شابة رزقه الله منها خلال عام واحد ولداً أصبح قرة عينه. ولم يعد الجندي يتمنى الحصول على أي شيء آخر سوى أن يرى هذا الولد ينمو ويكبر حتى يصبح جنرالاً في جيش القيصر.

ولكن الذي حدث أن هذا الطفل مرض مرضاً شديداً لم يتمكن الأطباء من معرفة نوع هذا المرض الذي ألمّ به، ولم يتمكنوا من ثمّ من معالجته. وساءت حالة هذا الطفل تسوء يوماً بعد يوم. وطلب القيصر أمهر الأطباء في البلاد دون أن يتمكن أحد من شفائه. وأصبح حال الأطباء الذين يعالجون الطفل أكثر ثراء، وحال الطفل أكثر سوءاً كما هو الحال في كثير من الأحيان.

فقد الجندي بوريس أي أمل في شفاء ولده. ولكنه سرعان ما تذكر الشيطان العجوز الذي حمله على كتابة تعهد بالدم وتوقيعه بأن يكون وفياً ومخلصاً له يلبي له كل طلباته عند الحاجة في أي زمان ومكان. وقال في نفسه: «أين يُمكن أن يكون شيطاني هذا مختبئاً طوال المدّة الماضية؟».

وما كاد ينتهي من قول ذلك حتى ظهر الشيطان العجوز فجأة أمامه بقامته القصيرة وهو يرتدي ملابس المزارعين قميصاً بلا أكمام وسروالاً قصيراً من الخيش. كان يقف وهو يرتجف من شدة الخوف ويقول: «كيف أستطيع أن أخدمكم يا سيدي؟».

فقال الجندي: «انظر. ابني الصغير مريض. هل تعرف كيف تشفيه من مرضه؟».

أخرج الشيطان العجوز من جيبه كأساً ملأى بالماء البارد، ووضعه على جبين الطفل المريض. ونادى على الجندي: «تعال إلى هنا يا سيدي وانظر في كأس الماء». فجاء الجندي على الفور ونظر في الكأس. وقال الشيطان العجوز وهو يتلعثم ويرتجف من شدة الخوف من الجندي: «وماذا ترى يا سيدي؟». فأجاب الجندي: «أرى الموت(*) المتمثل بهيئة امرأة عجوز صغيرة الحجم تقف عند قدمي ابني؟».

وقال الشيطان العجوز: «حسناً. هون عليك. لو كان الموت يقف عند قدمي ابنك فسوف يتعافى من مرضه، ولكن إذا

(*) الموت: [كلمة الموت في اللغة الروسية مؤنث - المترجم].

كان يقف عند رأسه فيعني ذلك أنه لن يتعافى وينجو من الموت مهما فعلنا».

رفع الشيطان كأس الماء من على جبين الطفل، ورشق الماء الذي فيه فوق جبين الطفل. ولم تمضِ عدة لحظات حتى دبت الحيوية والنشاط في داخل الطفل، وبدأ يزحف من جديد ويضحك كما لو أنه لم يكن مريضاً منذ دقائق قليلة خلت.

وقال الجندي: «أعطني هذه الكأس، وتكون أنت في حل من العقد الذي بيننا».

أعطى الشيطان العجوز الكأس إلى الجندي، وأعطى الجندي بالمقابل العقد الذي كتبه الشيطان العجوز ووقعه بدمه. وحالما استلم الشيطان العجوز العقد من الجندي نظر إليه نظرة وداع، وأخذ يجري بعيداً بأقصى سرعته كما لو أن الحددين قد انتهيا للتو من ضربه على السندان.

وظهر بعد ذلك الجندي في أروقة القصر وفي كل أرجاء المدينة كرجل حكيم. وتوقف إثر ذلك الكثير من الأطباء عن العمل لفشلهم في علاج الطفل وهم الذين كانوا يعالجون الجنرالات

والنبلاء. كان كل ما عليه أن يقوم به النظر في الكأس ليرى أين يقف الموت المتمثل بهيئة امرأة عجوز صغيرة الحجم. فإذا كان يقف عند قدم المريض، رَشق الماء فوق جبينه لتدب الحيوية والنشاط في داخل المريض من جديد. وإذا كان الموت يقف عند رأس المريض يقول له: «لقد قُضي الأمر وليس هنا أي شيء يُمكن عمله». ويموت بعدها المريض بشكل مؤكد كالقدر المحتوم.

وهكذا سارت الأمور على ما يرام إلى أن جاء يوم مرض فيه القيصر نفسه، وأرسل في طلب الجندي ليقوم في علاجه. فجاء الجندي بوريس على الفور، واستقبله القيصر كأنه شقيقُه ورجاه أن يستعجل في شفائه لكون المرض قد جعله طريح الفراش، وبدأ ينتشر في جميع أنحاء جسده. فصَبّ الجندي الماء البارد في الكأس ووضعه على جبين القيصر، ونظر في الكأس مرة ومرتين ليرى الموت يقف عند رأس القيصر.

فقال للقيصر: «أيُّها القيصر. لقد قضي الأمر وليس هناك أي شيء يُمكن عمله. الموت يقف متأهباً عند رأسك، ولم يَبْقَ من عمرك إلا دقائق معدودة ستموت بعدها بكل تأكيد».

فقال القيصر: «يا للغرابة. تقوم بشفاء النبلاء والجنرالات ولا تقوم بشفائي وأنا القيصر شقيقك وسيد كل هؤلاء. وأعلم أنه إذا بقي حقاً أمامي دقائق معدودة قبل أن أموت فسيكون كافياً بالنسبة إلي لأصدر أمر بقطع رأسك».

فكر الجندي ملياً فيما قاله القيصر، وخاطب الموت بصوت خفيض: «أيها الموت أعطي عمري للقيصر، واقبض روحي عوضاً عنه. وهذا سيكون أفضل بالنسبة إلي من الموت بطريقة مهينة بقطع الرأس».

ونظر الجندي في كأس الماء من جديد فرأى الموت أصبح يقف الآن عند قدم القيصر. فأخذ كأس الماء ورشقة على جبين القيصر ليصبح سليماً ومعافىً في بدنه كما كان على الدوام.

نهض القيصر من فراش المرض وقال للجندي: «أنت الآن حقاً شقيقي. دعنا نذهب ونتناول وجبة الغداء معاً». ولكن الجندي بوريس بدأ يشعر بالضعف لدرجة بدأ معها يهتز في وقفته ومشيته، وعرف أن منيته قد قربت، فقال للموت: «أيها الموت أعطني ساعة واحدة فقط لأودع زوجتي وطفلي الصغير». فأجاب الموت: «لك ما تريد. هيا أسرع قدر ما تستطيع».

فانطلق الجندي بأقصى سرعته إلى حجرته في القصر، ووَدّع زوجته وابنه طالباً منه عندما يكبر أن يصبح جنرالاً في جيش القيصر. واستلقى بعدها على فراشه، وهو يشعر بالضعف أكثر فأكثر في كل دقيقة تمر من حياته.

ونظر في كأس الماء، فوجد امرأة عجوزاً صغيرة الحجم تقف عند رأسه. فقالت له: «حسناً أيها الجندي. بقي أمامك دقيقتان فقط ستموت بعدها وتصبح نسياً منسيًا».

بدأ الجندي يئنُّ من شدة الألم والوجع، وتحرك في فراشه بصعوبة بالغة ليتناول كيس الطحين من تحت وسادته ويفتحه على أقصاه، وقال للموت: «أتعرف ما هذا؟».

فقال الموت: «نعم. انه كيس طحين».

فقال الجندي: «إذا كان هذا كيساً، فأدخل فيه».

ودخل الموت إلى داخل الكيس في لحظة واحدة ليقفز بعدها الجندي من فراشه معافى وقوياً في بدنه، وقام على الفور بعقد فتحة الكيس مرتين، وألقى به على كتفه، وانطلق نحو غابة بريان كثيفة الأشجار حتى وصل إلى أعماقها المظلمة، فعلق الكيس على

أعلى غصن لإحدى أشجار الحور الباسقة، وقفل راجعاً إلى حجرته في القصر وهو يشعر بسعادة غامرة، ويغني بأعلى صوته طوال الطريق.

ومنذ ذلك الوقت لم يحدث أن مات أحد من الناس في كل أنحاء العالم. كانت هناك ولادات كثيرة ولكن لم يمت أحد على الإطلاق. لقد انتهت الوفيات وشعر الرجال كأنهم سيعيشون إلى الأبد، وذلك طيلة الوقت الذي يكون فيه الموت، المتمثل بهيئة امرأة عجوز صغيرة الحجم، مقيدة داخل كيس الطحين، ومعلقة على غصن شجرة حور باسقة في غابة بريان، وغير قادرة على متابعة عملها المنوط بها.

وذات يوم خرج الجندي بوريس ليستمتع بالهواء الطلق خارج القصر، فالتقى في طريقة عجوزاً شمطاء شديدة الضعف تمشي الهوينى، وتكاد تقع على الأرض في الاتجاه الذي تهب فيه الريح. كانت تترنح في مشيتها تدفعها الرياح ذات اليمين وذات الشمال مثل الأعشاب الذابلة في الحقول. وقال الجندي في نفسه: «يا لها من عجوز شمطاء. لقد حان موعد موتها منذ سنوات عديدة».

سمعت العجوز فيما يبدو ما قاله الجندي لنفسه. فقالت له:

«نعم لقد صدقت. لقد حان وقت موتي منذ سنوات عديدة. كان أمامي أقل من ساعة لأموت لمّا قمت أنت بوضع الموت في الكيس. لقد عشت أيام عمري ومللت الحياة كما ملّ مني كل من حولي. كم أتمنى أن أرقد في لحدي بسلام. ومكاني في السماء قد أصبح جاهزاً منذ مدّة طويلة، وهو لا يزال شاغراً حتى اليوم لأنني لا أستطيع أن أموت».

«لقد ارتكبت أيها الجندي معصية بحق السماء وبحق الناس أجمعين. لقد ارتكبت ذنباً لن يغفره الله لك. وأنا لست المخلوقة الوحيدة في العالم التي تعاني وتتعذب كل يوم في حياتها بعد أن وهن العظم مني، وبلغت من الكبر عتياً. ومكاني في السماء ليس المكان الوحيد الذي أصبح يعلوه الغبار يوماً بعد يوم. المئات والآلاف مثلي في العالم الذين كان ينبغي أن يوافيهم الأجل قد أصبحوا الآن يعيشون في بؤس شديد في جميع أرجاء العالم. ولولاك أنت لكنا الآن نرقد في لحدنا بسلام منذ مدّة طويلة».

كانت الكلمات تخرج من فم دون أسنان ولثة بارزة تجعل الكلمات التي قالتها تخرج بطريقة غير مفهومة تماماً.

فكر الجندي ملياً في هذا الأمر. وأخذ يتصور في خياله كل الرجال والنساء العجائز الذين حال هو بينهم وبين أن يرقدوا بسلام في لحدهم بعد أن قضوا أيام عمرهم التي حددها الله لكل واحد منهم. وقال في نفسه: «من الأفضل لي بلا شك أن أطلق الموت من الكيس ليتابع عمله كالمعتاد ولا يهمني إذا كنت أول من يقبض روحه بعد أن أطلق سبيله من الكيس. لقد ارتكبت العديد من الذنوب دون احتساب هذا الذنب. الأفضل لي أن أذهب إلى عالم الآخرة، وأن ألقى الحساب وأنا لا أزال شاباً قوياً لأنه لو تأخرت حتى أصبح عجوزاً ضعيفاً فسيكون حسابي أصعب بكثير، وأكون غير قادر على تحمل العذاب».

وهكذا انطلق الجندي بوريس إلى غابة بريان وهي الغابة الأكثف في العالم، ووجد شجرة الحور الباسقة التي علق عليها الكيس وبداخله الموت. كان الكيس معلقاً في أعلى غصن من أغصانها تدفعه الريح يمنة ويسرة. ونادى الجندي الموت في داخل الكيس والريح تعصف فيه بكلّ الاتجاهات: «حسناً أيها الموت. هل ما زلت حياً في داخل الكيس؟».

فرد الموت بصوت ضعيف وواهن لا يكاد يسمع: «نعم. أنا لا زلت حياً لغاية الآن».

وهكذا صعد الجندي إلى أعلى الشجرة، وأنزل الكيس المعلق على أحد أغصانها العالية، وعاد يحمله على كتفه إلى حجرته في القصر. وودّع زوجته وولده الذي أصبح الآن فتىً قوياً. ودخل غرفته وفتح الكيس ثم قام واستلقى على الفراش ورجا من الموت أن يقبض روحه بسلام.

خرج الموت المتمثل بهيئة امرأة عجوز صغيرة الحجم من الكيس وهو يزحف ويرتجف، وينظر يميناً ويساراً من شدة الخوف الذي يملأ الصدر. وحالما رأى الجندي سارع إلى الباب بأقصى سرعته وبقدر ما تساعده في ذلك قدماه الصغيرتان الضعيفتان.

وقال للجندي: «تستطيع الشياطين الآن أن تضع حداً لحياتك إذا ما أرادوا ذلك. ولكنك لن تتمكن من رؤيتي وأنا أشاركهم في ذلك».

استوى الجندي على فراشه وهو يتلمس أطرافه، وعلم أنه لا يزال حياً وبصحة جيدة. وكانت المشكلة التي تقلقه تتعلق بالخطوة الآتية التي يتعين عليه القيام بها. وفكر في نفسه: «الأفضل بالنسبة إلي أن أذهب مباشرة إلى جهنم، وأن أدع الشياطين يلقون

بي في مياه ساخنة لدرجة الغليان ويسلقونني حتى أتخلص من كلّ ذنوبي».

ودّع الجندي أهله وجميع أصحابه ومعارفه وحمل الكيس في يده، وانطلق نحو جهنم عبر أفضل طريق يُمكن أن يجده. وهكذا سار الجندي على هذا الطريق لعدة أيام عبر التلال والأودية في أعماق الغابة الكثيفة حتى وصل أخيراً إلى مملكة الأشرار. وكانت هناك أسوار عالية حول جهنم وبوابات متعددة يقف عليها شياطين غلاظ.

وما إن اقترب من إحدى البوابات حتى نادته الشياطين: «من هناك؟».

فرد الجندي بوريس: «رجل أرتكب الذنوب ويريد أن يتطهر منها بإلقائه في المياه الساخنة لدرجة الغليان حتى يُسلق بدنه». وسألته الشياطين: «وما هذا الذي بيمينك؟».

فقال الجندي: «كيس».

فأخذت الشياطين تصرخ بأعلى صوتها وتطلق إشارات التحذير لحراس البوابات الأخرى ومن في داخلها الذين اندفعوا بكل

قوتهم لإغلاق البوابات بإحكام وبسد كل النوافذ بالقضبان الحديدية والبراغي القوية.

ودار الجندي عبثاً حول سور جهنم لعله يجد منفذاً يستطيع الدخول عبره إلى داخل جهنم. فنادى على أمير جهنم: «أرجوك. دعني أدخل جهنم. لقد جئت إليك نادماً، أريد أن أتعذب لأتطهر من ذنوبي التي ارتكبتها بحق الله وبحق العباد».

فرد عليه أمير جهنم بالقول: «لا، لن أسمح لك بالدخول. انصرف من هنا يا هذا. انصرف من هنا. أتسمع ما أقوله لك. هيا انصرف من هنا واذهب إلى حيث شئت. لا يوجد لك مكان هنا ولا لكيس الطحين الذي لا يفارق يمينك. ويكفي ما فعلته بنا من قبل في قصر القيصر».

شعر الجندي باضطراب شديد أكثر من أي وقت مضى. وقال لأمير جهنم: «حسناً. إذا كنت لا تريد أن تسمح لي بدخول جهنم، فأنت تستطيع أن تفعل ذلك حقاً. وأنا سأنصرف من هنا إذا أعطيتني مئتين من أصحاب الذنوب لأخذهم معي إلى السماء والذين يمكن عندما تتم رؤيتهم معي أن يُغفر لي وأدخل الجنة».

فقال أمير جهنم: «سأعطيك فوقهم خمسين آخرين إذا انصرفت حقاً من هنا».

وطلب أمير جهنم على الفور من الشياطين الآخرين أن يقوموا بعدّ مئتين وخمسين من أصحاب الذنوب، وأن يخرجوهم بالسرعة الكلية من إحدى بوابات جهنم الخلفية بينما يقوم هو بمشاغلة الجندي بالحديث معه لئلا يتمكن من التسلل إلى جهنم أثناء عملية الخروج.

وهذا ما حصل. وتوجّه الجندي على الفور نحو السماء يسير وراءه هؤلاء أصحاب الذنوب الخارجون من جهنم في رتلين متوازيين ومنتظمين، بناء على طلب الجندي، للظهور بمظهر لائق ومنضبط. وظل الجندي يسير ويسير حتى وصلوا في النهاية إلى السماء، وتوقفوا أمام إحدى البوابات المؤدية مباشرة إلى الفردوس الأعلى. وسألتهم الملائكة التي تقف على البوابة: «من أنتم؟».

فقال الجندي: «أنا الذي علق الموت في داخل الكيس على غصن الشجرة، وقد أحضرت معي مئتين وخمسين من أصحاب الذنوب خرجوا للتو من جهنم على أمل أن يغفر الله لي ذنوبي، ويدخلني إلى الفردوس الأعلى في الجنة».

تشاورت الملائكة على الفور فيما بينها حول الموضوع. وذكر أحدهم ما فعله هذا الجندي بملك الموت وكيف منعه من متابعة عمله في الأرض. وقرروا أن يسمحوا فقط للمئتين والخمسين من أصحاب الذنوب بالدخول.

وفتحت الملائكة أبواب الجنة، وقالت لأصحاب الذنوب إنه بات بإمكانهم الدخول. ولكن عندما حاول الجندي أن يسير بهم وهو في مقدمتهم أوقفته الملائكة قائلين له: «لا. أيها الجندي. لا يوجد لك مكان هنا. ويكفي ما فعلته بملك الموت حين منعته من متابعة عمله حيناً من الدهر».

أخذ الجندي أحد اصحاب الذنوب جانباً، وأعطاه الكيس قائلاً له: «حالما تدخل بوابة الجنة افتح الكيس وقل بصوت عال: «ادخل الكيس أيها الجندي». وهذا شيء آمل أَن تقوم به من أجلي مقابل أنني حررتك من عذاب جهنم المقيم وجئت بك إلى الجنة».

وعد صاحب الذنوب الجندي أن يفعل ذلك عندما يدخل الجنة.

ولكن صاحب الذنوب هذا عندما دخل الجنة، ورأى بأم عينيه من النعيم ما رأى، نسي من شدة فرحه ما طلبه منه الجندي، وألقى الكيس من يده في مكان ما في الجنة، وربما لا يزال موجوداً حيث ألقاه إلى يومنا هذا.

انتظر الجندي طويلاً أمام بوابة الجنة يغريه الأمل بأن يُنادى عليه. ولما أدرك أن ذلك لن يحدث لسبب ما عاد إلى الأرض وهو يتثاقل في مشيته لا يعرف ماذا سيفعل، فلا الموت يريد أن يقبض روحه ليريحه من هذا العذاب المقيم. كما لم يكن هناك مكان له في الجنة ولا في جهنم أيضاً. وحسب ما يعرفه الكثيرون العارفون بأحوال هذا الجندي فهو ربما لا يزال يعيش على هذه الحالة في مكان ما حتى اليوم(*).

* * *

(*) **المصدر:** آرثر ران سوم - روسيا.

الأصدقاء الستة

رحلة ٣٦٥ يوماً ويوم حول العالم

تأليف: إلينور ميرس جيوت

في يوم من الأيام كان يعيش هناك في بلد بعيد ستة من الفتيان تربطهم صداقة قوية. كان أولهم ابن ساحر، والثاني ابن حداد، والثالث ابن طبيب، والرابع ابن نحّات، والخامس ابن رسام، والسادس ابن أمير. كانوا يعتزمون السير على خُطا

آبائهم، ولكن قبل أن يستقر بهم المقام في بلدتهم، أرادوا جميعاً القيامَ بمغامرة كبيرة.

وقالوا لأنفسهم: «دعونا نذهب قدماً ونسافر إلى بلاد غريبة. فربما تحدث معنا أشياء جميلة قد تجعلنا أغنياء حتى نهاية حياتنا، أو تعطينا مغامرات شائقة نستطيع أن نرويها لجيراننا عند عودتنا للسير على خطا آبائنا في مهنهم».

وهكذا انطلقوا معاً في صبيحة يوم من الأيام يضربون في الآفاق. وأخذوا يوغلون في سيرهم في بلاد غير مألوفة لهم لعدة أيام. ومع ذلك لم تحدث معهم أي مغامرات شائقة كما كانوا يتمنون.

وأخيراً وصلوا إلى بحيرة دائرية صغيرة يصبُّ فيها ستة جداول صغيرة. وقال ابن الحداد: «يا أصدقائي أمامنا هنا ستة جداول، ما رأيكم أن يتبع كلُّ واحدٍ منّا مجرى واحداً منها حتى يصل إلى منبعه، لعلّنا نجد كلُّ واحدٍ منّا في طريقه ما يسره من المغامرات الشائقة».

وافق الجميع على الفور. وقال ابن الساحر: «أقترح أيضاً أن يقومَ كل واحد منا بزراعة شجرة صغيرة عند نقطة التقاء

الجدول بالبحيرة، وسأنسج تعويذة أتركها معلقة على أغصان كل واحدة من هذه الأشجار الستة، وإذا ما حدث مكروه لصاحبها، فسوفَ تذبل وتموت على الفور، وبذلك نعلم جميعاً ما حدث مع كل واحد منا في رحلته».

فقال ابن الطبيب على الفور: «فكرة رائعة حقاً. ودعونا نتفق منذ الآن على أن نعود إلى هذا المكان بعد سنة كاملة. وإذا ما عدنا ووجدنا أن أحدنا كان غائباً والشجرة التي زرعها قد ذبلت وماتت، سرنا على طول مجرى الجدول حتى نصل إليه وننقذه من الخطر الذي يُحدق به».

وهكذا زرع الأصدقاء الستة الأشجار. وقام ابن الساحر بالانتقال من شجرة إلى أخرى لينسج على أغصان كل واحدة منها تعويذة سحرية لكي تذبل على الفور، وتموت في حال حدوث مكروه لصاحبها. وبعدها تفرّق الأصدقاء الستة بعد أن تعانقوا وتصافحوا طويلاً بحرارة حتى اختفى كل واحد منهم على طول ضفة جريان الجدول الذي اختار السير عليه.

والآن سنقوم بمتابعة سير ابن الأمير. كانت أغصان الأشجار على ضفة الجدول كثيفة وطويلة، ولذلك كان يتعين عليه أن سير

ببطء شديد. وأخيراً، وبعد مرور مدّة من الوقت، بدأت ضفة الجدول تتسع تدريجياً، ومع غروب الشمس وجد نفسه في مرج أخضر كبير مفتوح تتوسطه بئر مهجورة، ووراء المرج غابة سوداء كثيفة الأشجار. كان التعب والإرهاق من طول وشدة السير قد أخذا منه كل مأخذ، وما إن وصل إلى طرف البئر حتى استند إلى حافته ليستريح ويبرد نفسه ببعض مائه.

ولم يمضِ وقت طويل على ذلك حتى رأى فتاة طويلة القامة وعلى درجة كبيرة من الجمال تقترب منه على استحياء وهي تحمل جرّة ماء على كتفها وترتدي ثياباً بيضاء فضفاضة. كان شعرها الطويل الأسود يتدلى فوق كتفيها. وتسير حافية القدمين بخطوات رشيقة. ولشدة جمالها ورقّتها كان يتفتح تحت قدميها أينما سارت زهور بيضاء على طول خط سيرها فوق المرج مشكّلة طريقاً جميلاً يسرُّ الناظرين.

وبينما كان ابن الأمير معجباً بما رآه وبجمال الفتاة، اقتربت الفتاة من حافة البئر، وأنزلتْ جرتها عن كتفها لتملأها. فقفز من مكانه على الفور، وأمسك بيدها عارضاً عليها أن ينضح بنفسه الماء من البئر. لم تجبه بكلمة، ولكن لمّا امتلأت الجرة بالماء

انطلقت ثانية عبر المرج وهي تخط في سيرها طريقاً من الورود البيضاء الجميلة مما حمله على السير وراءَها وهو يحمل عنها جرة الماء حتى دخلا في أرجاء غابة سوداء كثيفة الأشجار حيث كانت الشمس تميل إلى المغيب، وترسل أشعتها الحمراء الجميلة فوق ذرا الأشجار الباسقة.

وأخيراً وصلا إلى كوخٍ صغير مصنوع من جذوع الأشجار في داخله شمعة صغيرة تضيء المكان. وما إن اقتربا من الكوخ حتى فتح الباب رجل عجوز شعره أشيب واهن القوى محني الظهر. ويقف إلى جانبه امرأة عجوز وجهها مملوء بتجاعيد عميقة جعلتْ وجهها كأخاديد الأرض العطشى.

وقال العجوز وهو يشير بيده للفتاه: «ادخلي يا بنتي. هل أحضرت معك ابن الأمير؟».

فأجابت: «نعم لقد فعلتُ ذلك». كان جمال صوتها لا يقل عن جمال وجهها. ودخل ابن الأمير إلى الكوخ الصغير وهو يشعر بدهشة كبيرة من معرفتهم به.

وفي الحال أسرع الزوجان لتحضير وجبة عشاء بسيطة طيبة المذاق. وفي هذه الأثناء انسحبت الفتاة الشابة إلى داخل غرفة

في آخر الكوخ. وما إن انتهى من تناول طعامه، قالت المرأة العجوز: «لا بدَّ أنك يا بني تتساءل في نفسك عن الفتاة الجميلة التي تعيش معنا هنا، والتي سرتَ وراءها اليوم حتى باب بيتنا المتواضع. ولكن في الحقيقة يا سيدي لا نعرفُ عنها إلا أقلَّ القليل حتى إننا لا نعرف من أين جاءت وإن كنا قد سررنا جداً بها ورعيناها لعدة سنوات كما لو كانت ابنتنا».

«لقد عثرنا عليها لمّا كانتْ صغيرة على عتبة البيت. كانت فتاة صغيرة تبتسم في كل الأوقات وأجمل ما أشرقت عليه الشمس. كانتْ ترتدي ثياباً جميلة ناعمة مصنوعة من أغلى أنواع الأقمشة. أدخلناها إلى البيت ونحن نشعر بسعادة غامرة، وعاشت معنا منذ ذلك الوقت. ومع ذلك لم تستطع أن تذكرَ لنا أبداً ولا كلمة واحدة قد تساعدنا على معرفة أبويها الحقيقيين. ولكنّها قد بدأت في الآونة الأخيرة بالحديث كثيراً عن تغييرات ستطرأ على حياتها ستتمثل في قدوم ابن أمير وأشياء أخرى لم نفهمها في الواقع. ولكننا بدأنا نشعر بالحزن الشديد. فقد كنا نخشى أن فتاتنا التي نحبّها أكثرَ من أي شيء آخر في كل هذا العالم ستتزوج عما قريب وستتركنا».

وقام ابن الأمير برفق وإلين بمقاطعة الرجل العجوز: «أنا في الواقع ابن أمير، وأعلم في أعماقي أنني لا أملك أي أمنية أخرى في حياتي غير أن أتزوجَ بهذه الفتاة الجميلة والابنة التي رَعيتُما. سأعيش معها في هذه الغابة في بيت سأبنيه بنفسي بالقرب من الكوخ».

فقالت المرأة العجوز: «آه. يجب أن تكون أنت ذلك العريس المقدر لها في حياتها. ولو كان الأمر غير ذلك لما قادتك إلى هنا عبر الغابات المظلمة إلى بيتنا الوحيد».

وهكذا تزوج الأمير من فتاة الغابة الجميلة التي عاش معها بسلام ووئام وسعادة في بيتٍ صغير قرب بيت أهلها في الغابة.

وفي يوم من الأيام عندما كانت الشمس في رابعة النهار، قام ابن الأمير وزوجته الحسناء بالسير عبر الغابة. وكانت مياه الينابيع تبدو باردة جداً ومنعشة حتى إن الفتاة شعرت بالرغبة في الجلوس على ضفة النبع، وبدأت بغمس يديها فيه. فكانتْ تمرر يديها تحت سطح الماء البارد، ولكنّ خاتماً في أصبعها سقطَ في الماء، وغاص إلى قاع النبع العميق، فبكتِ الفتاة المسكينة بحزنٍ وجلستْ على ركبتيها تنظر في قاع النبع في يأس.

وقال زوجها: «اهدئي يا عزيزتي، لا يستحق الأمر كلّ هذا الحزن. سأجلب لكِ خاتماً آخر عندما أذهب مرة ثانية لرؤية أبي. بل سأشتري لك عوضاً عنه دزينة من الخواتم أكثر جمالاً من الخاتم الذي فقدتِه. جففي دموعك ولا تفكري بذلكَ مرة أخرى».

فقالت الفتاة في صوت يختنق: «هذا الخاتم سحري. وسوف يسبب فقدانه مشاكل مرعبة لكلينا».

جرفت المياه الخاتم بعيداً جداً عن النبع ليطفو أخيراً بعد مدّة طويلة أمام الشاطئ قرب حدائق الخان، ملك ملوك الأرض. عثر على الخاتم شخص ما. ولمّا رأى منظره غريباً، واعتقد أنه ربما يكون قادماً من بلاد بعيدة، حمَلَ الخاتم على الفور وقدمه للملك. حدّق الملك طويلاً في الخاتم. ودعا كبار وزرائه ليروه. وقال: «أنا متأكد أن هذا الخاتم يملك قوة سحرية. وأعتقد أنه يعود إلى امرأة مسحورة، وقد تكون ابنة الملك. خذوا هذا الخاتم، واتبعوه إلى حيث يقودكم. وإذا تمكن من إيصالكم لصاحبته، وكانتْ فتاة بارعة الجمال كما أعتقدُ، قوموا بأسرها وأحضروها أمامي في الحال ليتم قطع رأسها أمامي في فناء القصر».

وحالما قام مستشار الملك بمسك الخاتم السحري في يده شعر بقوة غريبة تحرّكه في يده. وبدا الخاتم كما لو أنه يسحبه إلى خارج حدائق القصر نحو ضفة جدول ماء صغير، وسرعان ما كان المستشار وجنوده وخدمه واقفين أمام باب بيت صغير، إذ كان يعيش ابن الأمير وزوجته الجديدة في سعادة كبيرة.

نادى المستشار على أهل البيت أن يخرجوا إليه في الحال. لم يجرؤ الزوجان على عدم الطاعة. وسرعان ما ألقوا القبض على الزوجة وأخذوها معهم بعيداً إلى قصر الخان.

ولمّا رأى الملك الفتاة، سُرّ لمرآها، وصرفَ النظرَ عن أفكاره السابقة عن أن صاحبة الخاتم ساحرة، وأنه يجب القضاء عليها، بل قرّر أن يبقيها بجانبه ويجعلها كبيرة خدم القصر الملكي، ولم يُعر أي اهتمام لدموعها وتوسلاتها بالسماح لها بالعودة إلى زوجها.

كان واضحاً للفتاة إنه لا يوجد هناك أي بارقة أمل في الفرار. وهكذا مرّت الأيام وهي مشتاقة لزوجها حتّى أصابها النحول، وأصبحَ لون بشرتها شاحباً. وخشي عليها من حولها بأنّها قد تقع فريسة المرض وتموت. وقد لاحظ الملك ذلك بنفسه. وسعى

لإسعادها بكل الوسائل المتاحة لديه، ولكن كلّ ذلك كان عن عبث. فأصبحَ الملك غاضباً منها.

وقال الملك: «كل هذا مردّه زوجها. إنه هو المسؤول عن جعل خادمتي تبدو مريضة وبوجهٍ باهتٍ ولا ترضى بالنعيم الذي هي فيه. حسناً، أعرفُ تماماً كيف أعالج هذا الوضع!».

وقام باستدعاء جلّاد القصر، وهمس في أذنه كلمات قليلة.

وقال في وقت لاحق للفتاة بعد مغادرة جلّاد القصر: «الآن عندما تعرفين أن زوجكِ قد قُتل وأنه لا يوجد فائدة أبداً من التمني في العودة إليه. فسوف تنسينه وتتعلمين كيف تبتسمين مرة أخرى».

حاولت الفتاة جاهدة، وعن عبث أن تثني الملك عما يعتزم به من قتله لزوجها. وكانت كلما كَثُر بكاؤها ورجت الملك، أصبح الملك مصمماً بشكل أكبر وأكبر. وهكذا انطلق جلّاد القصر مع عددٍ من الجنود لتنفيذ أوامر الملك. وعندما وصلوا إلى الكوخ في الغابة، أخرجوا ابن الأمير بعيداً ووضعوه فوق مرجٍ أخضر، إذ كان توجد بئر مهجورة بلا ماء. وألقوه في غياهب

البئر، ووضعوا صخرة كبيرة فوق فوهته. كان سيموت لا محالة وسط الظلمة ودون أن يكون هناك أمل أمامه بأن ينقذه أحد، وإن كان في الواقع لا يكترثُ لذلكَ طالما أنه لا يستطيع أن يعيش مع زوجته العزيزة.

وصدفَ في اليوم التاي مباشرة أن انقضت سنة ويوم وهو الموعد الذي اتفق الأصدقاء الستة أن يجتمعوا فيه من جديد عند ضفة البحيرة الصغيرة الدائرية التي تصبُّ فيها ستة جداول. وقد وفى خمسة منهم بالموعد، وغاب سادسهم ابن الأمير. وجلسوا ينتظرون بقلق عودته.

وبينما كانوا ينتظرون بفارغ الصبر، قام كل واحد منهم بإخبار أصدقائه بكل ما حدث معه من مغامرات في المدّة الماضية. وهكذا كانت أيام الانتظار تنقضي تباعاً. ولكن لم يظهر ابن الأمير، ولاحظوا أن الشجرة التي زرعها كانت تذبل وأغصانها تتساقط.

وقال ابن الطبيب: «يجب أن يكون الأمير في حالة خطر. فلا داعي لتضييع وقتٍ أكثر من ذلكَ وهيا بنا نبحثُ عنه. إذ أخشى أن يكون الوقت قد فات بالفعل لإنقاذه». شعر الأصدقاء بقلقٍ حقيقي،

وقاموا لكي يبدؤوا المسير، لكن ابن الساحر رفع يده يريد الكلام قائلاً: «لحظة من فضلكم. أستطيع بقدراتي السحرية أن أعرف بالضبط مكان وجود الأمير، وبعدها ننطلق إليه مباشرة».

وطلبَ من الآخرين الجلوس والانتظار. ثمَّ رسَمَ دائرة على الأرض، ووقفَ في وسطها، وبدأ في ترديد كل أنواع التعاويذ والكلمات الغريبة، وهو يرسم بيديه في الهواء أشكالاً وإشاراتٍ متعددة. وبعد انقضاء مدّة من الزمن، محَا آثار الدائرة من على الأرض وقالَ لأصدقائه: «بتُّ الآن أعرفُ بالضبط مكان وجود ابن الأمير. ولكن يجبُ علينا الانطلاق على الفور لأنه بالفعل في وضعٍ دقيق وخطير جداً، وسيموت لا محالة إلا إذا تمكنا من إنقاذه على الفور!». وهكذا انطلق الأصدقاء الخمسة يسابقون الوقتَ بخطوات سريعة. ومع شروق الشمس وصلوا إلى أمام البئر حيث كان ابن الأمير محتجزاً.

وقالوا جميعاً بصوت واحد: «ولكن كيف نتمكن من زحزحة الصخرة؟» وهم يتأملون الصخرة التي كانت موجودة بإحكام فوق فوهة البئر. وقال ابن الحداد: «أنا أعرف كيف أزيحها». وحملَ في يده مطرقة حديدة ثقيلة الوزن كان يحملها على زُنّاره،

وبدأ في ضرب الصخرة بلا هوادة حتّى جعلها قطعاً صغيرة يسهلُ حملها وإزاحتها عن فوهة البئر.

ولمّا تمكنوا من فتح فوهة البئر قاموا على الفور بمساعدة ابن الطبيب في النزول حيث عثر على ابن الأمير في قعر البئر وهو يتضور جوعاً ووجه شاحبٌ من الإرهاق وهو ينتظر الموت في كل لحظة.

وأخذ ابن الطبيب يقول وهو يفتح حقيبته الطبية المليئة بأنواع الدواء: «إنه من حسن الحظّ أن اختار الأصدقاء القدوم وإنقاذك من غياهب البئر». وسكب سائلاً أحمر اللون فوق حنجرة صديقه الغائب عن الوعي، الذي بدأ على الفور يتحرك في مرقده ليقوم بعدها واقفاً من أثر الدواء.

ومن ثم خرج الصديقان من البئر بمساعدة بقية الأصدقاء وبصعوبة شديدة، وتعانق الأصدقاء بمرح وبمحبة ومودة. ثم بدأ ابن الأمير يروي لأصدقائه قصة المغامرة التي قام بها وكيف انتهت مع الأسف بهذه النهاية المحزنة. شعرَ الأصدقاء الخمسة بالتعاطف وبالشفقة نحوه وبالغضب الشديد من الملك الشرير.

وفجأة قال ابن النجار: «لدي فكرة. أستطيع أن أنحتَ خشبة على شكل حصان خشبي كبير بما فيه الكفاية لحمل رجل، وسوف أصنعُ له أجنحة تساعده على الطيران في الهواء، كما سوف أقوم بطلي وتزيين هذا الحصان بألوان زاهية ليبدو وكأنه فعلاً طائر سحري رائع».

غمرَ الحماسُ الجميع، وطلبوا من ابن النجار أن يُخبرهم بتفاصيلَ أكثرَ حول ما يعتزم القيام به. وقال ابن النجار: «سيطير الأمير على ظهر هذا الحصان العجيب حتى الوصول إلى قصر الملك».

وأضاف ابن النجار موضحاً: «وعندما يرى الملك الشرير الألوان الزاهية لهذا الحصان البديع، فسوف يعتقد أنه مخلوقٌ سحري وسوف يلحق به مع جميع أفراد العائلة على سطح القصر لأخذه، وبعدها...».

وقال الجميع لابن الأمير بصوت كان يهتز من شدة الفرح: «تستطيع بذلك أن تخطف زوجتك بسرعة وتحملها معكَ بعيداً» وقام ابن النجار ببدء العمل على الفور وتمكّن في سرعة البرق أن يصنع حصاناً خشبياً بديعاً يمتلك القدرة والقوة بما يكفي

وأجنحة طويلة وعريضة وقوية، تمكنه من الطيران، وحمله على الفور إذا قام بالضغط على النابض المثبت فوق رأسه.

وما إن انتهى ابن النجار من الطلاء حتى زيَّنه بألوان زاهية. وسرعان ما اعتلى ابن الأمير الحصان عندما أصبح جاهزاً للطيران. ووسط صيحات أصدقائه، ضَغَطَ على النابض، وطارَ بعيداً في الهواء. ووَجَّه الحصان مباشرة نحو قصر الملك.

عمَّ القصر هرجُ ومرجُ شديدان عندما رأت الحاشية الطير الكبير وهو يحلّق بثبات فوقهم. وهُرعَ الجميع في أنحاء وجوانب القصر وهم يسألون بعضهم بعضاً عن ماهية هذا المخلوق. وكان الملك أكثر أفراد الحاشية حماساً على الإطلاق من الجميع... وقال: «يجب أن يكونَ هذا مخلوقاً سحرياً بسبب الذهب الموجود على جناحيه. ربما كان يريدُ أن يسلمني رسالة خاصة! يتعين علينا أن نستقبل هذا المخلوق النبيل كما يجب!». ولذلك نادى جميع خدمه في وقت واحد، ومنهم زوجة الأمير. وطلبَ منها، وهو يرى الحصان يستعد للهبوط، أن تسرع على الفور، وتصعد إلى أعلى السطح للترحيب بقدوم الفارس الذي على صهوة الحصان.

سارعت الفتاة في إطاعة أوامر الملك، ووقفت منتظرة وهي تتعجب من رؤية الطائر الكبير وهو يقترب منها. ويُمكن للقارئ أن يتصور مقدار دهشة الفتاة عندما رأتْ زوجها وهو يعتلي ظهر هذا الطائر. والذي قام بلمح البصر بإمساكها من وسطها ورفعها على صهوة الحصان. وقبل أن يتمكن أحدٌ من إدراك حقيقة ما يجري. حلّق الحصان السحري من جديد في عنان السماء وابتعدَ حتى غاب عن الأبصار.

شعر الأمير بفرحٍ عامر لإنقاذ زوجته، ولا سيّما حين رآها وقد استعادت خاتمها السحري الذي كان السبب في كلّ ما جرى، وهكذا عادتِ الفتاة برفقة زوجها وأصدقائه الخمسة المخلصين لكي تزور والديها العجوزين الذين رعياها في الكوخ الذي يعيشون فيه في الغابة. ثمَّ انطلق الجميع عائدين إلى بلدتهم. حيثُ عاشوا فيها مع عائلاتهم بأمان حتى وافاهم الأجل(*).

(*) المصدر: إلينور ميرس جيوت - التبت.

الساحر مدشون

عندما تكون الآمال والأحلام أكبر من الإمكانيات والقدرات

تأليف: آندرو لانغ

في قديم الزمان، كان هناك امرأة تعيش مع ابنها في كوخ في أقصى البلدة، وكان هذا الابن للأسف قد ذهب شعر رأسه كله على الرغم من أنه في العشرين من عمره، وكان يفتقد للقدرة

والرغبة في القيام بأي عمل كافتقاده لشعره، إذ كان يرفض الاستمرار في العمل في أي مهنة من المهن الكثيرة التي كانت والدته تدفعه إليها ويعود إلى المنزل بعد عدة أيام.

وفي صباح صيفي جميل، كان الابن الشاب يغفو كالمعتاد في حديقة صغيرة أمام الكوخ عندما مرَّ موكب تتقدمه ابنة السلطان وتليها عدد من السيدات السعيدات المتأنقات. اعتدل الشاب بتكاسل متكئاً على كوعه ليرى من القادم، وما إن وقعت عيناه عليها حتى تزلزل كيانه كله.

وقال: «لن أتزوج إلا هذه الفتاة». ثم نهض مسرعاً باتجاه والدته، وما أن وجدها حتى قال لها: «يجب أن تذهبي في الحال إلى السلطان، وأن تطلبي لي يد ابنته للزواج».

فصاحت الأم باستنكار وهي تنكمش في الزاوية: «ماذا؟!»، وكان استنكارها طبيعياً، إذ لا شيء سوى الجنون المفاجئ يجعل المرء يفكر بشيء مشابه.

كرر الابن طلبه قائلاً: «كما سمعتِ، أريدك أن تذهبي إلى السلطان حالا لتطلبي لي يد ابنته للزواج».

فقالت له أمه وهي تحت تأثير الصدمة: «هل... هل... هل أنت مدركٌ لما تقوله؟ إنك عاطل بلا مهنة، ولا تملك شيئاً سوى خمس قطع ذهبية وهي إرثكَ من أبيك، فكيف تتوقع أن يرضى السلطان بشخص أقرع مفلس مثلك زوجاً لابنته؟!».

فقال لها الشاب: «هذا شأني، افعلي كما قلت لك». واستمر يلح عليها ليل نهار حتى انصاعت لطلبه، وذهبت إلى قصر السلطان فوق التل وهي ترتدي حجابها وأفضل ثيابها، وتحاول انتقاء الكلمات المناسبة التي ستقولها في حضرته.

كان اليوم الذي ذهبت فيه الأم للقصر هو اليوم الذي يستمع فيه السلطان لطلبات وشكاوى رعيته لذلك استطاعت الأم الدخول إلى القصر بسهولة والمثول أمام السلطان.

بادرت الأم بالقول: «لا تظنني مجنونة يا صاحب السلطان، على الرغم من أن ما سأقوله لك الآن يُوحي بذلك، إن ولدي منذ أن وقعت عيناه على وجه الأميرة لم يدعني حتى وافقتُ على المجيء إلى القصر لأطلب من جلالتكم يد ابنتكم لولدي، والذي على الرغم من معرفته أن حياتي قد تكون ثمن مثل هذا الطلب، لم يبالِ بذلك على الإطلاق. وها أنا هنا، فافعل ما تشاء».

تأمل السلطان الأم ملياً، ولأنه كان محباً للطرائف والمزاح والأشياء الخارجة عن المألوف لم يأمر بجلدِ الأم أو رميها في السجن كما يفعل غيره من الملوك، وقال بدلاً عن ذلك: «أخبري ابنك أن يأتي إلينا».

نظرت الأم إلى السلطان والدهشة تتملكها، ولكن السلطان كرر ما قاله مرة أخرى بنبرة أكثر لطفاً وبملامح خالية من الغضب، فما كان منها إلا أن انحنت أمامه وقفلت عائدة إلى كوخها.

وما أن وصلت إلى الكوخ حتى بادرها ابنها الشاب الذي ينتظرها بترقب قائلاً: «ماذا حدث معكِ؟».

أجابت الأم: «يجب أن تسارع إلى القصر وتقابل السلطان»، فانفرجت أساريره عند سماع ذلك لدرجة أن الأم حدثت نفسها قائلة إن وجهه الآن جميل لدرجة الإشراق لولا صلعته. فأجابها: «سأذهب بسرعة البرق» وتركها فوراً واتجه نحو قصر السلطان.

وعند وصوله للقصر ورؤيته للسلطان، نظر السلطان إلى صلعة الشاب وكان قد فقد رغبته في استكمال هذه المزحة، وقرر صرف هذا العاشق غير المرحب به، ولكنه لم يستطع فعل ذلك بدون سبب لأنه أتى بناء على دعوة منه، ولذلك بادره بالقول: «سمعتُ

أَنك ترغب بالزواج من ابنتي، حسنٌ، ولكن على الرجل الذي يرغب بذلك أن يجمع كل الطيور في العالم، وأن يجلبها إلى حدائق القصر، إذ لم يبنِ أي طير عشه على أشجار هذه الحدائق».

وما إن انتهى السلطان من حديثه حتى تملك الشاب اليأس، كيف له أن يجمع كل الطيور في العالم؟ وحتى لو استطاع أن يجد طريقة لفعل ذلك سيستغرق سنينَ طويلة في نقلها إلى حدائق القصر، ولكن كبرياءَه لم يسمح له بأن يتخلى عن طلب يد الأميرة دون أن يجرب حظه، ولذلك غادر القصر واختار طريقاً على غير هدى، وسار فيه ليبدأ مهمته.

وبعد أسبوع من المسير، وجد الشاب نفسه في صحراء صخرية، ووجد تحت ظل إحدى الصخور المنتشرة درويشاً من دراويش الصوفية الذي دعاه للجلوس بجانبه. وقال له الدرويش: «أرى أن هناك شيئاً يشغل بالك يا بنيّ، قل لي ما هو، فربّما أستطيع مساعدتك».

فقال له الشاب: «أريد يا سيدي أن أتزوج أميرة بلادي، ولكن السلطان اشترط عليّ لقاء ذلك أن أجمع طيور العالم كلها وأحضرها

إلى حدائقه، ولا أدري كيف أستطيع أنا أو أي شخص آخر فعل ذلك».

فقال له الدرويش: «لا تيأس، إن الأمر أسهل مما تظن، هناك شجرة سرو على بعد يومين من هنا تجاه الغرب، وهذه الشجرة هي أضخم شجرة سرو على وجه الأرض، اجلس بجانب جذع الشجرة متستراً بالظل وبدون القيام بأي حركة، وسترى هناك كل طيور العالم تبني أعشاشها. واحرص على عدم الإتيان بشيء حتى تكف الطيور عن الحركة ثم قل كلمة - مدشون - وستجد جميع الطيور في أماكنها وعندها ستستطيع وضعها جميعاً على رأسك ويديك وجسمك وأخذها إلى السلطان».

شكر الشاب الدرويش، واتّجه نحو الغرب كما قال له، وبعد بضعة أيام وبعد أن نفّذ الشاب ما قاله له الدرويش، رجع عائداً إلى السلطان وهو مغطى من رأسه لقدميه بالطيور ذات الريش الناعم.

شعر السلطان بالدهشة إزاء هذا المشهد الغريب الذي لم يرَ مثله من قبل، وتمعّن معجباً في الطيور ذوات الريش الأصفر والأزرق والأحمر والأخضر، واستمع إلى أصواتها الجميلة. ثم

قال الشاب للطيور: «اذهبوا» فطارت الطيور تطوف حول السلطان ثم خرجت من النافذة المفتوحة تجاه الحديقة لكي تبني أعشاشها فيها.

وقال الشاب: «لقد قمتُ بما أمرتني به أيها السلطان، والآن أرجو أن ترضى بزواجي من الأميرة».

فقال السلطان: «نعم، نعم، بكل تأكيد، لقد قمت بما أردته منك بالفعل وقد سُرِرتُ بذلك، ولكن بقي شيء واحد آخر عليك القيام به لكي تصبح زوجاً تتمناه أي فتاة، إنك أصلع كما تعلم، وإن استطعت أن تجعل الشعر ينمو على رأسك كثيفاً ومجعداً سأعطيك ابنتي، وبما أنك ذكيّ فلا أظن أن هذا الطلب سيسبب لك مشكلة».

استمع الشاب إلى السلطان بصمت، وعاد إلى كوخه وجلس في المطبخ صامتاً يفكر في حل لعدة أيام، حتى تناهى إلى سمعه أن ابن الوزير طلب يد الأميرة ابنة السلطان، وأن الزفاف سيُقام في القصر في أسرع وقت ممكن، فقام غاضباً وتسلل إلى القصر خفية عن طريق دهليز أوصله فوراً إلى الصالة الكبيرة

حيث كان العروسان واثنان من الأصدقاء ينتظرون السلطان للقيام بمراسيم عقد القران.

وهمس الشاب قائلاً: «مدشون» فجمد الجميع في أماكنهم بلا حراك، وكل من أتى إلى القاعة باحثاً عن العروسين جمد مكانه مثل البقية بسبب قول الشاب للكلمة فور أن رآهم قادمين.

وسرعان ما أتى السلطان غاضباً ليبحث عن العروسين، فوجدهما مع البقية جامدين في أماكنهم، وحاول مع حاشيته تحريكهم فلم يستطيعوا فعل ذلك، فأرسل في طلب ساحرٍ يعيش قرب المدينة لإيجاد حل.

وعندما أتى الساحر واستمع من السلطان لما حدث بينه وبين الشاب ولما حدث للعروسين قال له: «هذا خطؤُك، لو أنك أوفيت بوعدك للشاب لما حدث لابنتك ما حدث، لا يوجد لدي سوى حل واحد، يجب عليك أن تفي بوعدك للشاب الأصلع وتزوجه ابنتك».

اقتنع السلطان بكلام الساحر على الرغم من الغصة التي انتابته، وأرسل أكثر خدمه ثقة للبحث عن الشاب وإحضاره

للقصر على الفور. وعندما استمع الشاب الذي كان مختبئاً طول الوقت خلف عمود في الصالة لما قاله السلطان، قفل عائداً بفرحة إلى كوخه وقال لأمه: «إذا أتى رسل السلطان للبحث عني، قولي لهم إنني قد غادرت المنزل منذ وقت طويل ولا أدري أين هو الآن، وقولي لهم إنه إذا ما أعطوكِ المال الكافي فستنطلقين للبحث عني في كل مكان»، وصعد إلى الدور العلوي من الكوخ واختار زاوية فيه لكي يختبئ ويرى كل من يأتي إلى الكوخ.

وسرعان ما طرق أحدهم الباب بقوة مما جعل الأم تجفل وتسارع لفتحه.

سأل الطارق الأم بصوت عال: «هل ابنك الأصلع هنا؟ إذا كان كذلك فليذهب معي إلى السلطان لكي يتحدث معه فوراً».

فأجابت الأم: «للأسف يا سيدي، لقد غادر المنزل منذ زمن طويل، وانقطعت عني أخباره».

فردّ الرجل: «ألا يمكنكِ يا سيدتي أن تخمّني أين هو؟ إن السلطان يعتزم أن يزوجه ابنته، ومن المؤكد أنه سيعطي من يجلبه إليه مكافأة كبيرة».

فأجابت الأم وهي تهز رأسها: «لم يخبرني إلى أين كان ذاهباً، ولكن ما ينوي السلطان فعله شرفٌ عظيمٌ، ويستحق أن يبذل المرء لأجله بعض الجهد. هناك أماكن من الممكن أن يكون فيها، لكنني الوحيدة التي أعرف الوصول إليها، وأنا امرأة فقيرة ولا أملك المال لمثل هذه الرحلة».

فقال الرجل: «هذه ليست مشكلة على الإطلاق، خذي هذه الصرة، إن فيها ألف قطعة ذهبية، أنفقي منها ما تريدين، ولكن اعثري على ابنك لكي يذهب إلى السلطان».

فقالت الأم: «حسنٌ، سأحضّر نفسي للسفر وسآتيك بولدي خلال أيام قليلة».

وعلى مدار أسبوع تقريباً حرصت كل من الأم وابنها على عدم مغادرة المنزل حتى يسود الظلام خشية أن يراهم أي من الجيران، وتجنبوا إشعال أي شمعة أو موقد لكي يظن الجميع أنه لا يوجد أحد في المنزل. وفي نهاية الأسبوع، استيقظ الشاب مبكراً وارتدى ثيابه وأفضل عمامة لديه، وتناول إفطاراً سريعاً، واتجه نحو قصر السلطان.

وعندما وصل إلى بوابة القصر، أدخله الحرس فوراً للمثول أمام السلطان الذي رحب به بسرور بالغ.

وقال السلطان للشاب: «آه يا بني، أين كنت طوال هذه المدَّة؟».

فأجاب الشاب: «لقد لبيتُ طلبك أيها السلطان لقاء طلب يد ابنتك، ولكنّكَ أخلفت وعدكَ ولم تزوجني إياها، فضاق عليّ منزلي وسرحتُ في البرية، ولكنني عدتُ حالما علمتُ أنكَ قررت الإيفاء بوعدك لي بتزويجي ابنتك، أرجو أن تطلب من الوزير أن يبدأ في إجراءات عقد القران».

وعُقد القران بحضور السلطان والوزير، ثم توجه السلطان والشاب نحو القاعة التي تقبع فيها الأميرة مع البقية جامدين بلا حراك، كانوا على حالهم الذي تركهم عليه الشاب عندما ألقى عليهم الكلمة إيّاها.

سأل السلطان الشاب بقلق: «هل يمكنكَ أن تبطل مفعول التعويذة؟».

فأجابه الشاب الذي كان يشعر بدوره ببعض القلق: «نعم أظن ذلك»، وتقدّمَ الشاب ووقف أمام الجامدين صارخاً: «فلتتحرروا يا ضحايا مدشون!».

وما إن نطق الشاب بالكلمة حتى زالت حالة الجمود عن الأميرة ومن معها، ومن ثم وضعت الأميرة يدها في يد عريسها الجديد، وأما بالنسبة لابن الوزير العريس القديم فقد اختفى تماماً، ولا أحد يعرف أين هو الآن(*).

* * *

(*) المصدر: آندرو لانغ - تركيا.

الوريث المفقود

الحقيقة دائماً ما تنتصر في النهاية

تأليف: حكاية من التراث النيجري

الهيئة العامة السورية للكتاب

منذ زمن بعيد في قرية صغيرة في مكان ما في الجزء الغربي من البلاد تعرف الآن باسم نيجيريا، كان هناك ملك لديه ثلاث زوجات، ولكن ليس لديه أطفال. كان بحاجة ماسة إلى وريث ذكر ليخلفه على العرش، ويشعر بالقلق طوال الوقت بسبب ذلك.

فقرر طلب المساعدة من الكاهن إيفا ولا سيَّما أنه أصبح طاعناً في السن وما بقي من عمره أقل مما مضى والزمن يمضي بسرعة. جاء الكاهن إيفا إلى القصر مع أعضاء المجلس المقدس ومعهم العديد من الأصداف البحرية زاهية الألوان للاستعانة بها عند التواصل مع العرافة لإيجاد حل لمعضلة الملك.

كشفت العرافة أن الملك سيكون له ابن ذكر واحد فقط لكنها لم تكشف الزوجة التي ستنجب هذا الابن. كما كشفت أيضاً أن كل واحدة من الزوجات ستتمكن من الإنجاب أيضاً بعد تناول جرعة من خلطة حساء خاص يُعدها الكاهن لهذه الغاية.

عاد الكاهن إيفا إلى القصر وهو يحمل وعاء من الحساء يتضمن ما يكفي لثلاث زوجات. لكن الزوجتين الأكبر سناً كانتا بطبعهما شريرتين تجاه الزوجة الثالثة الصغرى، ولذلك قررتا الاحتفاظ بوعاء الحساء لأنفسهما. لقد اعتقدتا أنه إذا لم تتناول الزوجة الصغرى حصتها من خلطة الحساء، فيمكنهما التأكد من أنها لن تكون الزوجة التي ستنجب الابن الوحيد.

وعندما اكتشفت الزوجة الصغرى وعاء الحساء الفارغ، بدأت تبكي لأنها فقدت فرصة الإنجاب. وفي حالة من اليأس،

كشطت القدر بأصابعها، ولعقت كل بقايا الحساء الذي يُمكن أن تحصل عليه.

ولم يمضِ وقت طويل حتى ظهرت الزوجتان الأكبر سناً تكشفان عن بطن مستَدير. والمثير للدهشة أن الزوجة الثالثة الصغرى بدأ يظهر عليها أيضاً انتفاخ قليل في البطن. كانت الزوجات الثلاث في الواقع في الأشهر الأولى من الحمل.

وعند حلول الأجل وضعت كل من الزوجتين الأكبر سناً مولودهما وكان أنثى. وبدأتا الآن في الاهتمام بما ستضعه الزوجة الثالثة الصغرى، قلقتين من أن يكون ذكراً. وعندما حان موعد ولادتها كانت الزوجتان الكبيرتان حاضرتين للمساعدة في الولادة. وبمجرد ولادتها، أُخذ الطفل على الفور واستبدال بحجر. وسرعان ما أطلقت الزوجتان الأكبر سناً جرس الإنذار لأنهما صُدمتا بشكل المولود الجديد؟ حجر! وسرعان ما أصبحت الأم الحجرية منبوذة حيث أرسلها الملك بعيداً عن القصر ومنع أي فرد من القبيلة من التواصل معها.

في غضون ذلك، لُفَّ الطفل بقطعة قماش قطنية، ونُقل إلى الغابة إذ وضع وحيداً تحت شجرة. وكان يعيش في هذه الغابة

رجل يداوي بالأعشاب التي يقوم بجمعها من الغابة في كل يوم. وقد وجد هذا الرجل الطفل وهو منهمك في عمله اليومي، فحمله مسروراً إلى المنزل ورعاه وربّاه على أحسن ما يرام حتى أصبح شاباً يعتمد عليه في البحث عن الأعشاب في الغابة.

مرت سنوات عديدة، ثمّ توفي الملك دون وريث ذكر. واحتاج أفراد القبيلة إلى تعيين ملك آخر ولكن لم يكن هناك مرشح واضح يصلح لهذا المنصب، استُدْعَي الكاهن إيفا الذي كشفت له العرافة أن ملكهم يعيش في أعماق الغابة في بيت رجل كبير القدر والمعرفة يداوي بالأعشاب. أُرسل على الفور مندوب للذهاب وإحضار الملك المفترض.

عاد الملك المحتمل إلى القرية وسط ترحيب الجميع لكن أصله كان لغزاً للجميع. وقالت العرافة إن أم هذا الشاب تقيم في القرية، ولكن من عساها أن تكون؟ وهكذا أصبحت كل امرأة في القرية تأمل أن تكون هذه الأم مهما بدا ذلك مستبعداً. وكان لا بدَّ من حل لغز أم الملك قبل البدء في مراسم حفل التتويج.

نصحت العرافة كل امرأة بطهي قدر من الحساء وإحضاره إلى ساحة القرية لكي يتذوق الصبي من كل قدر، ومن طعم الحساء

يستطيع أن يتعرف على أمه. وسرعان ما بدأت الاستعدادات الكبرى في كل منزل.

كانت كل امرأة تحرص على أن تعد أفضل قدر من الحساء كانت قد طهته طوال حياتها، وأن تستخدم كل أنواع البهارات لديها، فيما عدا وعاءً واحداً طهته المرأة المنبوذة التي كانت تعيش في كوخ صغير على أطراف القرية ولم يكن لديها مال لشراء جميع أنواع هذه البهارات والمكونات الأخرى لطهي الحساء المطلوب. فقد كانت تقتات على الفاكهة والخضروات التي كانت تبحث عنها يومياً في أنحاء واسعة من الغابة.

وعندما حان موعد اجتماع نساء القرية في ساحة السوق، وضعت المرأة المنبوذة المسكينة ما تيسر لها من الخضروات والأعشاب في داخل الوعاء مع بعض الماء وطهتْه على نار هادئة طوال الليل.

كانت الرائحة التي تنبعث من داخل ساحة السوق قوية جداً. وكانت هناك صفوف طويلة من أواني الحساء اللذيذة والساخنة جداً. وعندما وصل الملك المفترض، صمت الجميع وهو يشق طريقه من وعاء إلى آخر، يتذوق محتوياته الواحد بعد الآخر

طيلة النهار حتى وصل إلى القدر الأخير الذي جلست خلفه امرأة بملابس بالية بعد أن بلغ به التعب أشده. تذوق الملك محتوى وعائِها وانطلق يصرخ بفرحٍ شديد ويُعلن أن هذه هي أمه.

وهكذا، كُشف في النهاية عن الفعل الشرير الذي قامت به الزوجتان الأكبر سناً، وطُردتا من القرية إلى الأبد(*).

* * *

(*) المصدر: حكاية من التراث في نيجيريا.

الجندي الصغير

حين يُقابل عمل الخير بالجحود

تأليف: آندرو لانغ

في قديم الزمان كان هناك جندي شاب عاد للتو من ساحات الحرب والقتال. كان رجلاً شجاعاً ومقداماً بحق، ومع ذلك لم يصب قَطُّ خلال الحرب أو يفقد أيّاً من أطرافه. وعندما وضعت

الحرب أوزارها سُرَّحت الجيوش المقاتلة، كان عليه أن يعود إلى القرية التي ولد فيها.

كان اسم هذا الجندي يوحنا، ولكن لسبب أو آخر كان أصدقاؤه ينادونه دائماً بالملك الصغير، ولا أحد يعرف لماذا كانوا يفعلون ذلك. ولكن الأمر سار على هذا النحو.

ونظراً لكونه وحيداً بلا أبٍ أو أمٍّ يستقبلانه عند عودته، لم يكن في عجلة من أمرة في العودة إلى قريته، فكان يمشي على هونه على طول الطريق وهو يحمل حقيبته الصغيرة على ظهره، وسيفه إلى جنبه. وفي إحدى الليالي شعر فجأة برغبة ماسة لأن يشعل غليون التبغ الذي في حقيبته. وعندما بحث عن عود ثقاب ليشعل به الغليون وجد أنه قد أضاعه في مكان ما. فشعر بالانزعاج الشديد لفقده.

ولم يكن قد ابتعد كثيراً عندما لاحظَ نوراً يشع من خلال الأشجار. فاتّجه نحو مصدر الضوء، فلاحظ أمامه على الفور قلعة قديمة بابها مفتوح.

دخل الجندي الصغير باحة القلعة ونظر من خلال النافذة، فشاهد ناراً تُوشك أن تخبو في موقد جداري عند نهاية قاعة

منخفضة السقف. وضع غليونه في فمه وطرق الباب برفق، وهو يقول:«من فضلكم أريد ناراً لأشعل غليوني». ولكنه لم يتلقَّ أي إجابة.

وبعد قليل من الانتظار، طرق يوحنا مرة ثانية بقوة أكبر في هذه المرة. ومع ذلك لم يسمع أي جواب.

رفع يوحنا مزلاج الباب ودخل. كانت القاعة أمامه فارغة.

توجه الجندي الصغير مباشرة نحو موقد النار الجداري، وأمسك بالملقط، وبدأ يبحث تحت الرماد عن جذوات خامدة يُشعل بها غليونه، عندما سمع تكّة، ورأى شيئاً انطلق مثل نابض وقد تحرر. وبرزت أمام وجه أفعى كبيرة تسعى نحو الأعلى قريباً من وجهه.

والأمر الأكثر غرابة فيما كان يرى أن لهذه الأفعى رأس امرأة.

عادة في مثل هذه المواقف المفاجئة كثير من الرجال يهربون طلباً للنجاة، ولكن الجندي الصغير على الرغم من صغر جسمه كان يملك في داخله بالفعل قلب جندي شجاع. فقد تراجع خطوة إلى الوراء لا أكثر ولا أقل وهو يُمسك بمقبض سيفه ليستجلي الموقف ويُدرك حقيقة ما يرى.

فقالت الأفعى: «لا تسحب سيفك. أنا كنت بانتظارك لأنك الوحيد الذي تستطيع إنقاذي».

وقال يوحنا:«ومن أنت؟».

فأجابت:«اسمي لودوفين، وأنا ابنة ملك البلاد السهلية. خلصني مما أنا فيه، وسوف أتزوجك وأجعلك سعيداً إلى الأبد بعد ذلك».

الآن، قد لا يحب بعض الناس فكرة أن يكونوا سعداء من خلال أفعى برأس امرأة، لكن الملك الصغير لم يكن لديه مثل هذه المخاوف. وإلى جانب ذلك، شعر بسحر عيون لودوفين التي نظرت إليه كما لو كانت أفعى تنظر إلى طائر صغير. كانت عيونها خضراء جميلة، ليست مستديرة مثل القط، بل مستطيلة على شكل حبة اللوز، وكانت تتألق بضوء خافت، وبدا شعرها الذهبي الذي كان يتماوج فوق رأسها وحول عينيها أكثر لمعاناً مما ينبغي. كان وجهها ملائكياً على الرغم من أن جسمها كان فقط أفعى.

وسألها: «وماذا ينبغي لي فعله لإنقاذك؟».

فأجابت على الفور: «افتح الباب وستجد رواقاً يوجد في نهايته غرفة مثل هذه التي تقف فيها. تقدم عبر الغرفة وسوف تجد خزانة ملابس يجب عليك أن تأخذ منها سترة قصيرة، وأحضرها إليّ على الفور».

تقدم الجندي الصغير بجسارة المحاربين ليقوم بما طلبت منه المرأة. فعبر الرواق بسلام، ولكنه عندما وصل الغرفة رأى في ضوء النجوم ثماني أيدي على نفس المستوى تمتد نحو وجهه مهددة بصفعه. أدار الجندي الصغير عينيه في كلّ الاتجاهات، ولكنه لم يستطع أن يرى أي أجسام مرتبطة بهذه الأيدي.

انزل يوحنا رأسه واندفع إلى الأمام وسط عاصفة من الضربات، التي كان يردها بقبضة يده. وعندما وصل إلى الخزانة، فتحها، أنزل السترة، وأحضرها إلى المرأة في الغرفة الأولى. وقال وهو يلهث بشدة ويحاول أن يلتقط أنفاسه: «ها هو ذا».

وصدر عن الرماد مرة أخرى صوت «كليك!». كانت لودوفين امرأة كاملة حتى خصرها. فارتدت السترة القصيرة على الفور. كانت سترة رائعة من المخمل البرتقالي ومطرزة باللؤلؤ، ولكنها لم تكن ناصعة البياض مثل بياض جيدها.

وقالت: «هذا ليس كل شيء. فلا أزال بحاجة إلى أشياء أخرى. اذهب إلى الرواق، واصعد الدرج على اليسار، وستجد في الغرفة الثانية في الطابق الأول خزانة أخرى فيها تنورتي. أحضرها إليّ من فضلك».

وسارع يوحنا في القيام بما طلبته منه، ولكنه ما إن دخل الغرفة حتى رأى ثماني سواعد قوية يُمسك كل ساعد بهراوة غليظة. فسحب على الفور سيفه، وشقَّ طريقه بعزم وقوة شديدين وبدون أن يصاب ولا بخدش واحد.

أحضر التنورة التي كانت مصنوعة من الحرير الأزرق الصافي مثل سماء إسبانيا.

وقال يوحنا: «ها هي ذا». وبدت الأفعى الآن امرأة لغاية ركبتيها.

وقالت: «أريد فقط حذائي وجواربي الآن. اذهب وأحضرهم من الخزانة الموجودة في الطابق الثاني».

غادر الجندي الصغير على الفور، ووجد نفسه أمام ثمانية أقزام مسلحين بمطارق، وألسنة اللهب تندفع من أعينهم. في

هذه المرة، توقف يوحنا قبل عتبة الغرفة بقليل. وقال لنفسه: «سيفي لا فائدة منه الآن. فهؤلاء التعساء سوف يحطمونه مثل الزجاج، وإذا لم أتمكن في الحال من التفكير في أي شيء آخر، فأنا هالك لا محالة».

وفي هذه اللحظة وقعت عيناه على الباب الذي كان مصنوعاً من خشب البلوط، سميك وثقيل. فانتزعه من مفصلاته وأمسكه فوق رأسه، ثم ذهب مباشرة إلى الأقزام وسحقهم تحت الباب. وبعد أن أخرج الأحذية والجوارب من الخزانة أحضرها على الفور إلى لودوفين، التي ارتدتها مباشرة حتى أصبحت امرأة في كامل جسدها.

وعندما أصبحت ترتدي كامل ثيابها بجوارب حريرية بيضاء وخُفّاً صغيراً مطرزاً بالعقيق الأحمر، قالت لمخلّصها: «عليك الآن أن تذهب بعيداً، ولا تعود إلى هنا أبداً، مهما حدث. وهذه محفظة فيها مئتان من الدنانير الذهبية. نَمْ ليلاً في النزل الواقع على حافة الغابة، واستيقظ في الصباح الباكر في الساعة التاسعة صباحاً سأمر عليك لأحملك معي في عربتي».

وسأل الجندي الصغير: «ولكن لماذا لا نذهب معاً الآن؟».

فقالت الأميرة: «لأن الوقت لم يحن بعد. لكن أولاً يُمكنك قبل أن تذهب أن تشرب معي كأساً من عصير البرتقال الطازج».

وملأت كأساً من الكريستال بعصير يشبه الذهب الذائب. شرب يوحنا الكأس، ثم أشعل غليونه وخرج نحو الغابة.

ثانياً

وعندما وصل إلى النزل، طلب وجبة عشاء خفيفة، ولكن ما إن جلس ليتناولها حتى شعر بالنعاس الشديد.

وقال لنفسه: «لا بدَّ أنني متعب أكثر مما كنت أتصور»، وبعد أن أخبر صاحب النزل والعاملين فيه أن يتأكدوا من إيقاظه في الساعة الثامنة صباح اليوم التالي، ذهب إلى الفراش وسرعان ما وجد نفسه يغط في نوم عميق.

كان ينام طوال الليل مثل رجل بلا حواس. وفي الساعة الثامنة صباحاً صعدوا إلى غرفته لإيقاظه دون فائدة، وعادوا بعدها بنصف ساعة أيضاً بدون فائدة. وعادوا بعدها مرة أخرى بعد ربع ساعة، لكن لم يكن هناك فائدة؛ وأخيراً قرروا تركه يتابع نومه بسلام.

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة عندما استيقظ يوحنا. فقفز من السرير، وارتدى ملابسه، ثمّ نزل إلى بهو النزل، وسارع بالسؤال عما إذا كان هناك من سأل عنه.

أجابت صاحبة النزل: «نعم. فقد جاءت أميرة جميلة في عربة ذهبية. وتركت لك هذه الباقة، ورسالة تقول فيها إنها سوف تمر بهذا الطريق أيضاً في صباح الغد في الساعة الثامنة».

لعن الجندي الصغير النوم ولام نفسه كثيراً على تقاعسه واستغراقه في النوم حتى فوت عليه موعده، لكنه حاول أن يهون على نفسه الأمر بالنظر إلى باقة الأزهار، التي كانت مشكّلة من أزهار تحتفظ بلونها وعطرها بشكل أبدي.

وقال لنفسه: «إنها أزهار الذكرى»، لكنه قد نسي أنها أيضاً أزهار الموتى.

وعندما حل الليل، نام بعين واحدة وترك الأخرى مفتوحة. كان يقفز من نومه أكثر من عشرين مرة في كل ساعة. وعندما بدأت الطيور في الغناء، لم يعد يستطيع البقاء في سريره، وصعد إلى النافذة ليقفز منها إلى أغصان أحدى أشجار الليمون الكبيرة

التي كانت أمام الباب. وهناك جلس يحدق في باقة زهوره بشكل حالم حتى انتهى به الأمر إلى النوم بشكل سريع.

وعندما دقت الساعة الثانية عشرة استيقظ يوحنا، وشعر بخوف شديد يملأ الصدر وهو يهبط عن الشجرة، ويرى العاملين في النزل يُعدون الطاولة لتناول وجبة الغذاء.

وسأل وقلبه يخفق من شدة القلق: «هل جاءت الأميرة؟».

فقالت صاحبة النزل: «نعم. لقد جاءت بالفعل وتركت لك هذا الوشاح الملون بألوان الزهور، وقالتْ إنَّها ستمر عليك في الساعة السابعة صباحاً، ولكن هذه المرة ستكون الأخيرة ولن تعود بعدها أبداً».

قال يوحنا لنفسه: «لا بدَّ أن سحر ما أصابني»... فقرر السهر وعدم النوم هذه الليلة. وهكذا دفع فاتورة النزل، واشترى حصاناً بالمال المتبقي. وعندما حل المساء اعتلى ظهر الحصان ووقف أمام باب النزل وهو مصمم على البقاء هكذا طيلة الليل.

وكان يشم رائحة العطر الجميل للوشاح حول ذراعه اليُسْرى من وقتٍ لآخر. ولكنّه سرعان ما مال رأسه إلى الأمام فوق جيد الحصان ورأسه، وبدأ يُسمع شخيرهما معاً من بعيد.

وعندما وصلت الأميرة في الصباح، قامت صاحبة النزل والعاملين فيه بهزه بقوة، وبضربه وبالصراخ في وجهه بدون أي فائدة ترجى. فلم يستيقظ يوحنا ولا الحصان من سباتهما حتى كانت عربة الأميرة قد ابتعدت واختفى أثرها من بعيد.

قامَ يوحنا بوخز الحصان وهو يصرخ بكل قوته: «توقف عن الشخير! توقف»... وبدأ بملاحقة العربة والصراخ طالباً منها الوقوف، لكن عربة الأميرة واصلت سيرها بلا هوادة، وعلى الرغم من أن الجندي الصغير قد سار وراءَها لمدَّة يوم وليلة، لم يقترب منها أبداً.

وهكذا عبر الجندي الصغير الكثير من القرى والبلدات أمامه حتى وصل إلى شاطئ البحر. هنا اعتقد يوحنا أن عربة الأميرة لا بدَّ أن تقف هنا أخيراً، ولكن، من العجب! واصلت العربة سيرها مباشرة، وهي تطوي صفحة الماء بسهولة كما لو كانت فوق الأرض. ولكن حصان يوحنا الذي حمله طيلة الوقت سقط على الأرض من شدة التعب، وجلس الجندي الصغير حزيناً على الشاطئ يندب سوء حظه. وهو يرى العربة وهي تختفي سريعاً في الأفق البعيد.

ثالثاً

ومع ذلك، سرعان ما تمكن أن يستعيد معنوياته مرة أخرى، وسار على طول الشاطئ لمحاولة العثور على قارب يمكن أن يبحر فيه وراء الأميرة. لكن لم يكن هناك قارب، وفي النهاية وبعد أن أخذ منه الجوع والتعب كل مأخذ، جلس ليستريح على عتبة كوخ أحد صيادي السمك.

كان في الكوخ فتاة صغيرة تعمل على إصلاح شبكة صيد. دعت يوحنا للدخول والجلوس مع أبيها، ووضعت أمامه قليلاً من عصير البرتقال والسمك المقدّد، أكل يوحنا وشرب وشعر بعدها بالراحة. وروى للصياد وابنته الصغيرة مغامراته. وعلى الرغم من أن الفتاة كانت جميلة جداً، وبشرتها بيضاء كصدر النورس حتى أطلق عليها جيرانها اسم النورس، فلم يُفكر بها على الإطلاق لأنه كان يحلم بالعيون الخضراء للأميرة التي أسرته منذ أن رآها أول مرة.

وعندما انتهى من رواية حكايته، شعرَ الصياد بالشفقة عليه، وقال: «في الأسبوع الماضي، عندما كنتُ في عرض البحر، أصبحت شبكتي فجأة ثقيلة جداً، وعندما سحبت شباكي وجدت في

داخلها مزهرية نحاسية رائعة، مثبتة بالرصاص. أحضرتها إلى البيت ووضعتها فوق النار. وعندما ذاب الرصاص قليلاً، فتحت المزهرية بسكيني وأخرجت عباءة من القماش الأحمر وعلبة تحتوي على خمسين ديناراً ذهبياً. وهذه هي العباءة التي تغطي سريري. وقد احتفظتُ بالمال لأزوّج ابنتي. ولكن لا بأس، خذ المال والعباءة واذهب بهما إلى أقرب ميناء، حيث تبحر السفن إلى البلدان السهلية، وعندما تصبحُ ملكاً تُعيد إليّ نقودي وعباءتي».

وأجاب يوحنا: «عندما سأصبح ملك البلدان السهلية، سأجعلك وابنتك من الحاشية الملكية». ودع يوحنا الصياد وابنته ولفّ نفسه في العباءة وهو يفكر في الأشياء الغريبة التي حلت به، حتى قال فجأة لنفسه في صوت مرتفع: «أوه، كم أتمنى لو أنني الآن في عاصمة البلدان السهلية!».

رابعاً

وفي اللحظة التالية، وجد الجندي الصغير نفسه واقفاً أمام قصر رائع. وأخذ يفرك عينيه ويقرص نفسه ليتأكد من أنه في اليقظة وليس في المنام، وعندما تأكد تماماً من أنه لم يكن في المنام، قال لرجل كان يدخن غليونه أمام الباب، «ما هذا المكان؟».

فأجاب الرجل: «ما هذا المكان؟ ألا تستطيع أن ترى؟ قصر الملك بالطبع».

فقال يوحنا: «وأي ملك يا هذا؟».

فأجاب الرجل وهو يضحك ويعتقد أن السائل رجل مجنون حقاً: «ملك البلدان المنخفضة!».

هل كان هناك أي شيء غريب جداً حول العباءة التي نقلته إلى هنا بلمح البصر؟ ولكن نظراً لأن يوحنا كان رجلاً أميناً حقاً، فقد كان منزعجاً من فكرة أن الصياد وابنته قد يعتقدان أنه قد سرق المال والعباءة. وبدأ يتساءل كيف يُمكنه ردهما إليهما في أقرب وقت ممكن.

ثم تذكر أن العباءة تملك بعض القوى السحرية الخفية تمكن من يرتديها الانتقال كما يريد من مكان إلى مكان آخر بلمح البصر كما حدث معه الآن. فقرر تجربة العباءة مرة آخر من باب التأكد، وتمنى في نفسه أن يكون في أفضل نزل في المدينة. وفي لمح البصر وجد نفسه هناك.

وقام من شدة سعادته بصحة ظنّه بطلب وجبة عشاء ساخنة. ونظراً لتأخر الوقت وصعوبة زيارة الملك وقتها، ذهب إلى سريره ونام.

وفي اليوم التالي عندما استيقظ وجد جميع بيوت المدينة مزدانة بأكاليل الزهور والورود ومغطاة بالأعلام، وأجراس الكنيسة تدق بلا توقف. وعندما سأل يوحنا عن سبب كل ذلك، قالوا له إنَّ الأميرة لودوفين عُثر عليها أخيراً، وبأنها على وشك القدوم إلى القصر والاحتفال بعودتها. وفكر يوحنا قليلاً ثم قال لنفسه:«حسناً هذا يناسبني تماماً. سأقف عند الباب لأرى إذا كانت ستعرفني أم لا».

ولم يكد يكون لديه ما يكفي من الوقت ليرتدي أجمل ثيابه عندما لمح موكب الأميرة لودوفين وهو يمر أمام النزل. كانت تضع تاجاً من الذهب على رأسها، والملك والملكة يسيران بجانبها. وبالمصادفة البحتة وقعت عينها على الجندي الصغير، فامتقع وجهها حتى أصبح باهتاً. وسرعان ما أشاحت بوجهها بعيداً.

وقال يوحنا لنفسه: «ألا تعرفني. أو هل هي غاضبة مني لأنني لم ألتزم بوعدي معها أكثر من مرة؟ وسار مع الحشد من الناس حتى وصل إلى القصر. وعندما دخل الموكب الملكي باحة القصر، قال يوحنا للحراس إنَّهُ هو الذي أنقذ الأميرة مما كانت فيه، وإِنَّهُ يرغب في الحديث مع الملك. ولكنهم ظنّوا إِنَّهُ

رجل مجنون، ولا سيَّما وأنهم رأوا ثيابه العسكرية المتسخة بغبار المعارك، ورفضوا السماح له بالدخول.

شعر يوحنا بالغضب الشديد لأنه يعدّ رد الجميل شجاعة شخصية قبل أن تكون فضيلة إنسانية. ودخل إلى مقهى، وطلب كأساً كبيرة من عصير برتقال. وقال لنفسه: «إن هذه الملابس التعيسة هي التي قللت من شأني في نظر الناس. لو كان معي ما يكفي من المال لاشتريت ما يكفي من الملابس الفاخرة لأظهر أنيقاً مثل لوردات المجلس الملكي، ولكن ما فائدة التفكير بمثل ذلك ولم يبقَ معي من الخمسين ديناراً التي أخذتها من الصياد وابنته إلا القليل؟».

ونظر في محفظته ليرى ما تبقى معه من مال، ووجد أنه لا يزال فيها خمسون ديناراً، وقال يوحنا وهو يدفع ثمن عصير البرتقال: «لا بدَّ أن الصياد وابنته قد أَخطَأَا في عد النقود». ثم عدّ نقوده مرة ثانية، فوجدها لا تزال كما كانتْ خمسين ديناراً. أخذ من النقود خمسة دنانير وعدّها للمرة الثالثة ليجدها لا تزال كما كانت

خمسين ديناراً. فأفرغ المحفظة تماماً وأغلقها، وعندما فتحها من جديد وجد الخمسين ديناراً لا تزال في داخلها!

ثم خطرت بباله خطة وهي أن يذهب من فوره إلى خياط القصر وإلى صانع العربات. وطلب من الخياط أن يصنع له عباءة وصدرية من المخمل الأزرق المطرز باللآلئ، ومن صانع العربات أن يصنع له عربة مطرزة بالذهب مثل عربة الأميرة لودوفين. ووعد الخياط وصانع العربات أنهما إذا تمكنا من صنع المطلوب بسرعة فسوف يدفع لهما ضعف المبلغ المطلوب.

وبعد بضعة أيام، سار الجندي الصغير في شوارع المدينة بعربته الذهبية الفاخرة التي تجرها ستة خيول بيضاء مع أربعة من الخدم يلبسون الثياب الثمينة ويجلسون في الخلف. وفي الداخل جلس يوحنا مرتدياً المخمل الأزرق، وفي يده باقة من الزهور دائمة الخضرة ووشاح ملفوف حول ذراعه. وسار أيضاً في عربته الذهبية مرتين حول المدينة عبر طرقاتها وهو ينثر النقود يمنة ويسرى. وفي المرة الثالثة، وبينما كان يمر أمام القصر وأسفل نوافذه المشرعة رأى لودوفين في زاوية إحدى النوافذ، وهي ترفع الستارة وتختلس النظر.

خامساً

وفي اليوم التالي كان يوحنا حديث المدينة. عن اللورد الغني الذي يوزع المال أثناء سير عربته. وصل الحديث إلى بلاط الملك، وكانت الملكة فضولية للغاية بطبعها، فأصبح لديها رغبة كبيرة في رؤية هذا الأمير الرائع.

وافق الملك وقال: «حسناً. اطلبوا منه المجيء ليلعب معنا الورق».

في هذه المرة لم يتأخر الجندي الصغير عن موعده أبداً.

طلب الملك إحضار ورق اللعب وجلسا يلعبان. خسر يوحنا كل جولات اللعب الست. وكان الرهان على كل ما في محفظة يوحنا من نقود وهي خمسون ديناراً. فكان كلما خسر الجولة دفع كل ما في المحفظة، كانت تمتلئ على الفور من جديد بخمسين ديناراً.

وفي الجولة السادسة صاح الملك: «إنه لأمر مدهش حقاً!».

وصرخت الملكة: «إنه لأمر يثير الغرابة والدهشة حقاً!».

وقالت الأميرة: «إنه أمر محير حقاً!».

فأجاب الجندي الصغير: «لا. إنه ليس محيراً للغاية، على الأقل ليس أكثر حيرة من تغيرك إلى ثعبان ثم إلى بشر مرة أخرى».

وقاطعه الملك وطلب منه السكوت لأنه لم يكن يحب الحديث عن هذا الموضوع.

وقال يوحنا: «لقد ذكرتُ هذا الموضوع فقط لأنك ترى أمامك الرجل الذي أنقذ الأميرة من اللعنة والذي وعدته الأميرة بالزواج».

وسأل الملك الأميرة: «هل هذا صحيح؟».

فأجابت: «صحيح تماماً. ولكني أخبرت منقذي بأن يكون على أهبة الاستعداد ليأتي معي عندما أمرّ أمام النزل الذي كان يقيم فيه. مررتُ من هناك ثلاث مرات متتالية كان فيها يغُطّ في نوم عميق ولم يتمكن أحد من إيقاظه».

وسأل الملك: «ما اسمك، ومن تكون؟».

فأجاب الجندي الصغير: «اسمي يوحنا. وأنا جندي ووالدي مراكبي».

فقال الملك: «أنت في هذه الحالة لستَ ملائماً لكي تكون زوجاً للأميرة. ومع ذلك إذا أعطيتنا محفظتكَ هذه فسوف تتمكن من الحصول عليها كزوجة لك».

فقال يوحنا: «المحفظة ليست ملكي ولا أستطيع إعطاءَها لأحد».

فقالت الأميرة بنظرة خلابة لم يستطع الجندي الصغير مقاومتها: «في هذه الحالة يُمكنني استعارتها مؤقتاً حتى يوم زواجنا».

فسأل يوحنا: «ومتى يكون هذا اليوم الموعود؟».

فأجاب الملك: «عند حلول عيد الفصح».

وأضافت الأميرة وهي تتمتم بشكل غير واضح: «أو عندما يصبح القمر أزرقَ». ولكن يوحنا لم يسمعها جيداً وتركها تأخذ المحفظة.

تاسعاً

وأتى عيد الفصح، وأوفت الأميرة بوعدها ليوحنا بالزواج، كما لم تُعد إليه المحفظة السحرية، كما أنها سرقت منه عباءته السحرية، وعندما واجهها أنكرت أنه أعطاها شيئاً وطردته من

القصر. ولكنّ الله يمهل ولا يُهمل، إذ إنه بعد ذلكَ بقليل، مرضت الأميرة مرضاً شديداً، وخرجت قرون من رأسها، وأجمع الأطباء على أنه لا يوجد سبب واضح لذلك، وأن السبيل الوحيد لاختفاء القرون من على رأسها قد يكون عصير البرقوق، فأصدر الملك أوامره لجميع أفراد الحاشية بأنه يجب عليهم أن يبحثوا عن البرقوق في كل مكان. وعلى الرغم من كل العناء والجهد الذي بذلوه، لم يتمكنوا من العثور عليه في أي مكان.

وعندما وجد يوحنا أن صبرهم قد نفد، عصر بعض حبات البرقوق ووضع المعصور في قارورة صغيرة. واشترى رداء طبيب، ووضع شعراً مستعاراً على رأسه ونظارات مستديرة، وقدم نفسه أمام ملك البلدان السهلية بوصفه طبيباً مشهوراً جاء من بلدان بعيدة، ووعد بشفاء الأميرة إذا ما تُرك وحيداً معها.

وحالما وجد يوحنا نفسه وحيداً مع الأميرة، صب قطرات من السائل في كأس. وما إن تذوقته حتى تقلصت القرون قليلاً.

وقال يوحنا: «هذا الدواء فعال بشكل فوري فقط مع أصحاب النفس الطيبة، وها نحن الآن لا نزال نرى هذه القرون. فهل أنت

متأكدة من أنك لم ترتكبي أيّ إثم ولو كان صغيراً؟ انظري جيداً في نفسك».

لم يكن الأمر يتطلب من لودوفين أن تطيل النظر وتمعن التفكير طويلاً فيما قامت به في الأيام السابقة. ولكنها وجدت نفسها ممزقة بين عار الاعتراف المهين، وبين الرغبة في التخلص نهائياً من القرون من على رأسها. وأخيراً أقرت بذنبها بعيون منكسرة تنظر إلى قدميها.

وقالت: «لقد سرقت محفظة يد جلدية من الجندي الصغير».

وقال يوحنا: «هيا أعطني إياها. فلن يأخذ الدواء مفعوله حتى أمسك المحفظة في يدي».

لقد تطلب الأمر مقاومة كبيرة من لودوفين للتخلي عن المحفظة، لكنها سرعان تذكرت أن الثروة لن تفيدها إذا كانت لا تزال مريضة.

تنهدت لودوفين ثم قدمت المحفظة إلى يوحنا، الذي سكب المزيد من العصير في الكأس، وعندما شربته الأميرة، وجدت أن القرون قد تقلصت بمقدار النصف.

وقال يوحنا: «يجب أن يكون لديك حقاً خطيئة صغيرة أخرى لا تزال تعذب ضميرك. ألم تسرقي من هذا الجندي الصغير سوى محفظته؟».

فأجابت: «سرقت منه أيضاً عباءته».

فقال يوحنا: «هيا. أعطني إياها».

فقالت: «نعم. ها هي أمامك».

في هذه الأثناء، اعتقدت لودوفين أنه بمجرد أن تختفي القرون نهائياً من رأسها، فسوف تنادي على الحراس لكي يستعيدوا كل هذه الأشياء ثانية من الطبيب بالقوة.

كانت سعيدة للغاية بهذه الفكرة، ولكن يوحنا لفّ نفسه فجأة بالعباءة، ونزع عن رأسه الشعر المستعار ورفع نظارته عن عينيه ليظهر أمام الأميرة الشريرة على حقيقته.

وقفت الأميرة أمامه جامدة بلا حراك، وقد امتلأ صدرها بالخوف.

وقال يوحنا: «كم أرغبُ بتركِكِ هكذا والقرون على رأسك حتى يوم مماتك. ولكني رجل طيب وقد أحببتك يوماً. إضافة

إلى ذلك، أنت تملكين روح الشيطان، فلا حاجة لكِ بأن يكون لكِ وجهه» وأعطاها زجاجة العصير واختفى من أمامها.

عاشراً

عندما غادر يوحنا القصر، قرر الذهاب إلى كوخ الصياد، وحملته العباءة إلى هناك على الفور، وهناك شاهد ابنة الصياد كالمرة السابقة جالسة بالقرب من الكوخ تصلح شبكة الصيد، وكانت من وقت لآخر ترنو بعينها في الأفق البعيد كما لو كانت تتوقع قدوم شخص ما. ولمّا علا الضجيج الذي أحدثه الجندي الصغير، نظرت إلى الأعلى واحمر وجهها من شدة الخجل.

وقالت بصوت هادئ: «هذا أنت إذن! كيف وصلت إلى هنا؟» ثم أضافت بصوت خفيض: «وهل تزوجت أميرتك؟».

أخبرها يوحنا بكل مغامراته، ولمّا انتهى، أعاد لها شاكراً المحفظة والعباءة.

فقالت: «وما عساي أن أفعل بهما؟ لقد أثبتَّ لي أن السعادة لا تكمن في امتلاك الكنوز».

فرد الجندي الصغير، الذي لاحظ لأول مرة عينيها الجميلتين: «أنتِ على حق، إنها تكمن في العمل وفي حب امرأة شريفة. هل تقبلينني زوجاً لكِ؟» ومد إليها يده.

فأجابت ابنة الصياد: «نعم، أقبل» وقد احمرت وجنتاها من شدة الخجل، «ولكن بشرط واحد فقط وهو أن نضع المحفظة والعباءة في الإناء النحاسي ونرميه في غياهب البحر من جديد».

وهذا ما فعلوه(*).

* * *

(*) المصدر: آندرو لانغ - فرنسا.

رامي الحصى الماهر

تفوّق الإرادة والطموح على معضلة الإعاقة.

تأليف: إلين ل. ليندي

كان يعيش في قديم الزمان في بلاد لاوس، بلد المليون فيل، ولد يتيم عمره ١٠ سنوات اسمه مانسي تمكن من العيش بمساعد سكان القرية الطيبين الذين كانوا يقدمون له معظم ما يحتاج إليه من الأرز والسمك وإن كان ذلك في حدود الكفاف.

وكان مانسي معاقاً منذ الولادة لا يستطيع المشي. وعلى الرغم من ذلك، كان أولاد القرية يشاركونه في ألعابهم قدر ما يستطيعون. وقد برع في إحدى هذه الألعاب وكان بطلها دون منازع. لقد قضى الكثير من الوقت بمفرده، ونتيجة لذلك أصبح رامي حصى ماهراً. فقد كان يتدرب على رمي الحصى على أهداف بعيدة لدرجة أنه كان قادراً على إصابة جذوع أشجار لا يكاد يستطيع أن يراها، وأوراق الشجر في أعلى أغصان أشجار الساج والنخيل.

وكان الأولاد الآخرون في مثل عمره يجمّعون أكواماً من الحصى ويضعونها أمامه، ويختارون الأهداف التي يريدونها. وكانوا في كل مرة يختارون أهدافاً أصعب من سابقتها، ومع ذلك كان دائماً يصيب هذه الأهداف بدقة متناهية فيما عدا بعضاً منها لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة.

وفي صبيحة أحد الأيام، تسلّى الشاب مانسي لبعض الوقت برمي الحصى على ورقة شجرة بانيان كبيرة وعريضة، وأحدث فيها ثقوباً عديدة بدت على شكل ولد. وكانت ورقة الشجرة تلقي بظلها الداكن على الأرض، والرياح تحركها بشكل دائم، وعندما تشرق

الشمس، وتتخلل أشعتها ثقوب ورقة الشجر هذه تتشكّل دوائر الضوء على الأرض لتبدو على شاكلة ولد وهو يرقص.

وعندما جاء أولاد القرية في اليوم التالي، شعروا بسعادة كبيرة لرؤية هذا المشهد. وصنعوا عربة متحركة بعجلات لمانسي ونقلوه إلى ظل شجرة بانيان كبيرة فروعها ممتدة في السماء وأوراقها متداخلة بعضها في بعض ليتمكن من تقديم عرض أكثر إثارة وتشويقاً.

فرمى أولاً الحصى لتحدث ثقوب على إحدى أوراق شجرة البانيان لتبدو على شكل فيل، ثم تقوب على ورقة أخرى لتبدو على شكل فيل صغير يسير وراء أمه. ولم يمضِ وقت طويل حتى تمكن مانسي من خلق قطيع كامل من الفيلة كانت تبدو في حالة هجوم كلما هبت الريح على الشجرة.

شعر أولاد القرية بفرح غامر لرؤيتهم هذا المشهد الجميل المؤثر الذي يثير في النفس الإعجاب. حتى إنهم لم ينتبهوا لموكب الملك أثناء مروره بالقرب منهم وقد كان في طريقه لزيارة مدينة مجاورة. ولمّا شعروا بالخوف الشديد لرؤيتهم موكب الملك بشكل مفاجئ يتقدمه

الحراس، دفعوا على عجل عربة مانسي بعيداً عن نظر الحراس، كما قاموا في الوقت نفسه اختبؤوا خلف الأشجار.

كانت شجرة بانيان الممتدة أغصانها في كل الاتجاهات وافرة الظلال تغري العابرين بالنزول والتوقف في برودة ظلها. وهكذا أمر الملك الحراس بالتوقف للاستراحة من قيظ النهار في ظل الشجرة. وشعر الملك بالدهشة الكبيرة لرؤية أشكال فيلة تتحرك على الأرض كلما هبت الريح وكأنها أفيال حقيقية. فنادى على الحراس ليسألهم: «ما هذا المشهد البديع الذي أراه أمامي؟» ومن صنع هذه الأعجوبة المدهشة؟ ابحثوا عنهم على الفور فأنا أريدهم. وكان كل ما سمعه صبية القرية من شدة الخوف قول الملك يأمر حراسه: «ابحثوا عنهم». فأطلق كل واحد منهم ساقيه للريح عائدين إلى بيوتهم لا يلون على شيء، تاركين وراءَهم المسكين مانسي وحده.

وتمكن حراس الملك من العثور على مانسي في وقت قصير، وجاؤوا به إلى الملك وهو يرتجف من شدة الخوف. وعلى الرغم من أن جميع رعايا مملكة لاوس يعرفون أن الملك حاكم صالح وعادل فاوض الممالك المجاورة لتحقيق السلم والأمان للمملكة،

إلّا أنهم يعرفون جميعاً أن الملك يبقى مخيفاً ولا يُمكن التنبؤ بتصرفاته في معظم الأوقات. وقال الملك بلهجة آمرة وهو يُشير إلى الأشكال المتراقصة على الأرض: «من عمل هذا؟».

فأجاب مانسي على الفور بصوت خفيض: «أنا يا سيدي»، ولم يدر مانسي ما يقول غير هذا.

وقال الملك وهو يعبث بلحيته: «آه. هذا هو أنت إذنْ؟ اثبت لي ذلك. أريد أن أرى ذلك بأم عيني». وأمر الحراس بأن يجمعوا كومة من الحصى. وقال لمانسي بلهجة آمرة: «هيا قم الآن أمامي بصنع صورة أخرى لأتأكد من صدق قولك».

وفي هذه الأثناء وبالمصادفة البحتة، هبط طائر فريد على غصن قريب من الأرض، الأمر الذي أوحى لمانسي بفكرة جديدة. ورمي الحصى على ورقة شجر محنية لتتماشى الثقوب مع شكل الطائر. ورَسَمَ جسم الطائر على طرف واحد من ورقة الشجر، كما رَسَمَ رأس الطائر على الطرف المقابل. وكان كلما هبت الريح بدا شكل الطائر على الأرض وكأنه يُغرّد بأصوات جميلة.

ضحك الملك حتى بانت نواجذه، وأخذ يصفق بيديه من شدة إعجابه وسروره لما رأى. ولم تمض ثوانٍ عديدة حتى كان

الحراس وبقية الحاشية يضحكون ويرتبون على ظهور بعض إعجاباً بما رأوه أمامهم.

وقال الملك في صوت رقيق وهادئ: «يا بني. من الواضح أنك تملك موهبة رائعة». ثم صمت لبرهة من الزمن وتابع قوله: «نعم... أنا أعرف تماماً ماذا تستطيع أن تقوم به من أجلي». ثم أمر الحراس أن يضعوا مانسي على ظهر فيل ليسير ضمن موكب الملك.

لم يكن مانسي يعلم إلى أي مكان يذهب ولماذا. وبعد أن أمضوا عدة أيام على طريق السفر، بدت لهم من بعيد عاصمة لاوس وأبنيتها المرتفعة في مشهد رائع. لم تكن العاصمة زهرة المدائن في جنوب شرق آسيا فحسب، بل كانت تحتضن أيضاً قلعة الملك التي تشرف على ما حولها من الأراضي وكل القرى المجاورة.

أهمية الاستماع وفوائده في حياة الإنسان

وأَمَّنت حاشية الملك على الفور حماماً ساخناً لمانسي لينزع عنه وعثاء السفر، وألبسوه ثياباً بيضاء جميلة مزينة بزخارف ذهبية متشابكة فيما بينها. وقال له الملك بعد ذلك: «والآن أيها الشاب لدي وظيفة

مهمة بالنسبة لك. وسوف أجتمع بعد قليل مع المستشارين في القصر. وأحدهم يثير إعجابي لنباهته وحسن إدارته ولكنه ثرثار لا يتوقف عن الكلام. وأنا أريده أن يسكت خلال الاجتماعات لكي يتسنى لي الاستماع إلى بقية المستشارين.

وقد طلبت وضع ستارة خلف الكرسي الملكي. وستقف أنت وراءَها. وانتبه جيداً، هناك ثقب في الستارة. وسوف تكون قادراً على رؤية المستشار الذي أتحدث عنه لأنه سيجلس أمامك مباشرة. دعه يتكلم لمدَّة عشر ثوان. ثم عليك رميه من خلال الثقب في الستارة بعدد من كرات الطين اليابسة كالحجارة توجهها نحو فمه مباشرة ولا تجعلها تخطئه في أي حال من الأحوال. وكلما فتح فمه للتحدث بعد ذلك، وَجَب عليك القيام بذلك مرة أخرى.

وضع الحراس مانسي على عربة خلف الستارة، وأعطوه سلة ملأى بكرات الطين اليابسة كالحجارة.

طرح الملك سؤالاً للنقاش حوله مع وزرائه ومستشاريه. وأنتهز المستشار الذي ذكره الملك الفرصة لكي يتحدث. وبعد عشر ثوانٍ وجه مانسي كرة طين يابسة نحو فمه مباشرة. وأغلقَ المستشار على الفور فمه، وبلع ما دخل في فمه مهما كان بصمت.

وحالما تمكن من استساغة طعم كرة الطين وبلعها بسرعة، وجد فرصة ثانية للحديث. وما إن فتح فمه حتى رمى الشاب مانسي كرة طين ثانية في فمه مباشرة، وأخذ المستشار يحاول جاهداً استساغة طعم كرة الطين وبلعها كسابقتها.

اعتقد المستشار للوهلة الأولى أن حشرة طائرة من نوع ما قد دخلت فمه، ولم يكن لديه خيار سوى ابتلاع هذا الشيء المثير للاشمئزاز أيضاً بشكل لا يثير انتباه الآخرين قدر الإمكان حتى لا يظهر أي شخص آخر أكثر حكمة منه. وهكذا استمر الاجتماع على هذا النحو حتى النهاية مما تسبب في ارتباكه طيلة فترة الاجتماع.

وقال الملك وهو يربت على كتف المستشار الثرثار: «أرى يا صديقي أنك أدركت أخيراً أهمية إعطاء فرصة للآخرين بالحديث. أنا الآن سعيد ومعجب بك».

وقال المستشار: «حسناً. أنا في الواقع...».

وقال الملك: «في الواقع ماذا؟».

فأجاب المستشار: «لا شيء. أعني... نعم لما كنت أقوله دائماً... أن الرجل الحكيم هو في الواقع الذي يستمع جيداً لما يقوله الآخرون».

فقال الملك مبتسماً: «يا لك من مستشار جيد».

ومنذ ذلك الوقت أخذ المستشار يلتزم الصمت، وبذلك ساد الهدوء كثيراً في اجتماعات مجلس الملك. وطلب الملك من الشاب مانسي أن يبقى في ضيافته في القلعة طالما كان يرغب في ذلك. وهكذا عاش الشاب مانسي طيلة السنوات القادمة دون أن يشعر بالعوز للطعام أو المأوى، أو من يشاهد مهاراته الرائعة ويثني عليه نتيجة لذلك(*).

* * *

(*) المصدر: إلين ل. ليندي - لاوس.

الحملات الصليبية

في مصر وبلاد الشام

حروب انتقام من العرب في أراضيهم

تأليف: قصة من التراث البريطاني

تعاقبت الحملات الصليبية على سواحل بلاد الشام ومصر في العصور الوسطى طوال مئتي عام، وبلغ عددها ثماني حملات

رئيسية من العام ١٠٩٦ حتى ١٢٩١ وهو العام الذي سقطت فيه مدينة عكا آخر المستعمرات الصليبية في المشرق. كانت هذه الحملات في حقيقتها حرب انتقام من العرب في أراضيهم اتخذت من ستار الدين مطية. وهي تمثل اليوم حلقة تاريخية مؤسفة للغاية تقوض دور الدين كقوة للسلام، لا تزال تخلق حواجز أمام التفاهم والتعايش بسلام بين مختلف الأديان.

وقد روى أحد «المتطوعين»في الحملة الصليبية الثالثة قصته على النحو الآتي:

لمّا جاء أحد رسل البابا أوريان إلى بلدتنا الصغيرة، كنت أعرف أنني سأكون واحداً من الخمسين من «المتطوعين» الذين جرى اختيارهم للمشاركة في الحملة الصليبية الثالثة.

في الواقع كان لدي مشاعر مختلطة حول هذا. فقد كنتُ، على سبيل المثال، أرغب فعلاً في الهروب من نمط الحياة الباهتة في المزرعة المنعزلة التي أعيش فيها وفي القيام برحلة ترفيهية لرؤية أراض أجنبية مثيرة للاهتمام. كما أردت في الوقت نفسه أن تُغفر لي كل ذنوبي وضمان ممر آمن وسهل إلى الفردوس الأعلى.

ولكن منذ وفاة والديَّ، كنت أواجه صعوبات تزداد يوماً بعد يوم لإعالة أسرتي المكونة من أربعة أشقاء، ولا سيَّما بعد أن تضاعفت أجرة الكوخ الطيني الذي يأوينا جميعاً في المزرعة والضرائب على الطاحونة التي توجد بداخلها. ومما زاد الطين بلة، أن مختار القرية استحوذ على أكبر ما نملكه وهو ثور كبير اشترته أمي قبل وفاتها بوقت قصير.

لقد بدأ يظهر هذا الفساد عندما مات اللورد كارترايت. وبدأت المزارع في الأراضي الشاسعة التي يملكها تنهار الواحدة تلو الأخرى. ولم يعد الوضع الاقتصادي والهرمي إلى طبيعته حتى وصل شقيقه اللدود المشاكس أوليفر كرومويل إلى العرش. ولسوء الحظ، بما أنه كان ولا يزال غير رحيم للغاية، فقد واجهنا العديد من المصاعب. وعلى الرغم من أن الحياة صعبة ومملة هنا، لا تزال أفضل من الذهاب إلى الحرب. وهذا رأيي في هذه الحملات الصليبية.

لقد اكتشفت أن أفضل طريقة لتجنب هذا الرسول الذي يبدو في عجلة من أمره هو الاختباء بعيداً عن أنظاره، لذلك بدأت أبحث عن أماكن اعتقدت أن لا أحد سيجدها. في الليل، وقبل بدء

سريان حظر التجول بوقت قصير، بحثت عدة مرات عن مكان أختبئ فيه حول قريتنا الصغيرة. وقد وجدت مكانين لطيفين للاختباء، لكن لم يكن أي منهما مكاناً نموذجياً لهذا الغرض.

ولكن عندما فكرت في العمل الذي يجب علي أن أقوم به، بدا لي أن خطتي ستفشل. كيف يُمكنني الاختباء من رسول البابا وكذلك القيام بعملي في حظيرة المزرعة وفي المطحنة في الوقت نفسه؟ شعرت بالإحباط وأنا أسير متخفياً وعلى رؤوس أصابعي عبر البلدة الصغيرة، متوجهاً إلى كوخي الطيني عندما بدأت الأجراس تدق بلا توقف معلنة بدء حظر التجول.

استيقظت على صوت السير كليفتون ريدينغهام، أحد رسل البابا، وهو يحمل بيده مدية فضية اللون ذات نصل ملوث طويل وعريض. كانت أختي هيلينا خائفة للغاية من رؤية آثار بقع الدم التي جفت عل نصل المدية الطويلة التي لا تفارق يده. وأخذت تصرخ بصوت عال من شدة الخوف الذي يملأ الصدر.

وصاح رسول البابا في وجهها قائلاً بلهجة آمرة: «اسكتي يا هذه». وقال وهو يقترب مني بوجهه الدميم ويبتسم بتكلف

ظاهر: «لقد كنت أبحث عنك»، وهو يشير بمديته طويلة النصل إلي. «أنت قادم معي في الحال!».

أسرعت في جمع حاجاتي القليلة قبل أن يمسك بتلابيبي ليسوقني معه بالقوة، وهو يصرخ: «تعال إلى هنا أيها الكلب!»، وودّعت جميع أفراد أسرتي وأنا أقول لهم: «سأعود... أعدكم بذلك».

ومن بين ما رأيت، كانت أختي هيلينا تبكي كما لم تبك من قبل. وهذا ما جعلني أصارع قبضته المحكمة بثيابي أكثر فأكثر. حاولت بصعوبة بالغة أن ابتلع ريقي، وأن أقول لها: «لا تقلقي، سأكون بخير». وعندما ضربني هذا الرسول المتغطرس بين عيني، سقطت على الأرض وعرفت أن محاولاتي للإفلات من قبضته قد انتهت.

عندما وصلنا إلى الطريق الوحيد الذي يُوصل إلى بلدتنا، رأيت مجموعة كبيرة من الناس، يُفترض أنهم جنود. ومع ذلك، ولأنني لم أتمكن من فتح عيني إلا قليلاً بعد الضربة التي تلقيتها من رسول البابا، لم أرَ بوضوح كبير. حاولت أن أسأل بصوت يشي بعدم الثقة: «أين نحن ذاهبون الآن؟ ماذا سيحدث؟».

كما سألته بينما كان قائد المجموعة يصيح وهو يعطي التعليمات: «ألست خائفاً؟».

أجاب: «لا، لأنني أعلم أنه إذا متُّ، فسوف أذهب إلى الجنة مباشرة فليس بيني وبينها حجاب. لقد قال ذلك البابا بنفسه في خطابه. وهذا عرض جيد. إضافة إلى ذلك، يُمكننا أن نرى أماكن جديدة مثيرة للاهتمام».

وقلت بخجل ظاهر: «ألن تشعر بالحنين لأفراد أسرتك الذين تركتهم وراءك وحيدين في المنزل؟ أجاب الشاب الطويل ذو الأكتاف العريضة: «لا». «أعتقد أنني سأكون على ما يرام. على أي حال، لم يكن لدينا خيار آخر». واصلنا التحدث بعضنا مع بعض على طول الطريق بينما كان يسير قائد المجموعة بفخر وخيلاء في مقدمتها.

استغرق منا الوصول إلى كاتدرائية كانتربري مسيرة ثمانية أيام طويلة. كانت الرحلة صعبة للغاية، ولكن مصاعبها لم تنتهِ بعد، فقد كان علينا البحث عن طعامنا. لم أعتد مثل هذا. وصلنا أخيراً إلى أسوار المدينة المبنية من جدران حجرية عالية

الارتفاع. لم أرَ شيئاً في مثل هذا الارتفاع في حياتي. كنتُ غير قادر على التحدث.

دخلنا كمجموعة عبر بوابة المدينة الرئيسية فرأينا رجلاً طويلاً يرقص بينما يُمسك أحد الأقنان بآلة تصدر أنغاماً موسيقية. كان حراس البوابة سعداء ومعنوياتهم عالية، وبدا ذلك على محياهم بوضوح. وبعد أن تجاوزنا البوابة وحراسها، وجدت نفسي أقف أمام مدينة كبيرة جداً لدرجة أنني أصبت بالدوار تقريباً لمنظرها الهائل. وصرخ صديقي في دهشة وإعجاب كبيرين: «هذه كانتربري الكبرى». فركت عيني بقوة لأعرف ما إذا كنت أحلم.

وسألت بغبطة وفرح كبيرين وأنا أفرك عيني لأتأكد من أن ما أراه ليس حلماً: «هذه كانتربري العظمى؟». وهتف صديقي بعد أن رأى الإثارة على وجهي: «هذه كانتربري!». وهتفت بصمت إلى صديقي الصليبي: «واو». كنت مندهشاً من كل المباني المتشعبة والمختلفة. وفي الوقت نفسه، أربكني هذا المشهد وجعلني أشعر بالدوار. لم أعتد رؤية كل هذه التفاصيل الصغيرة.

ورأيت أمامنا جيشاً ضخماً من الجنود، أكبر تقريباً من المدينة نفسها. كنت مثل نملة مقارنة بهذه المجموعة الهائلة من الجنود المشاة. بدا معظمهم أنهم قد تدربوا على القتال. ولكن لسوء الحظ، لم تُتَح الفرصة لي لأتدرب مثلهم. لم يكن لدي أي خبرة على الإطلاق. في هذه المرحلة، علمت أن هذا هو الجيش الذي سألتحق به لمهاجمة المسلمين.

لقد مرت ثلاث سنوات منذ أن بدأنا هجومنا. كان لدينا القليل من الطعام والماء، والأسوأ من ذلك أنه كان بداية موسم الجفاف. حتى الآن كنا قد قتلنا الكثير من الناس الأمر الذي جعلني أشعر بالسوء على وجه الخصوص. ولكن إذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للفوز بالقدس، فلا بأس عليّ أن أفعل ذلك. كنت أفكر في هذا عندما دخلت إلى كوخ صغير مصنوع من الخشب. كانت الجدران مغطاة بالسجاد البني القديم والأصفر.

وسمعت صوتاً يملؤه الرعب ينادي في عجالة: «يا رب احمِنا من كل شر» كما سمعت صرخة طفل. فسحبت سيفي من غمده وبدأت أبحث عن الأشخاص الذين كانوا في الكوخ.

وسمعت مرة أخرى الصوت نفسه المملوء بالرعب: «يا رب احمِنا من كل شر».

صعدت إلى حيث سمعت الأصوات، ورفعت سيفي استعداداً للهجوم. وسحبت ستارة للخلف، ورأيت فتاةً في مستهل العمر تحمل شقيقها الصغير في بطانية زرقاء داكنة. كان من الصعب رؤية وجهها في ضوء الشمس الخافت بينما كانت تصرخ مراراً وتكراراً في رعب شديد. وعندما كنت أوشك أن أطعنها بسيفي، فكرت للحظة. شيء ما في أعماقي يحدثني فجأة بأن ما سأقدم عليه لا يبدو صحيحاً.

لماذا تتعرض هذه الفتاة الصغيرة وهي ترعى شؤون شقيقها الصغير لمثل هذه الأعمال الفاسدة أخلاقياً؟ فهم لم يفعلوا شيئاً لإيذائي. فلماذا أؤذيهم؟ لم يحملني قلبي لقتل هؤلاء الأبرياء.

وفجأة سمعت صوت كسر الزجاج وسحب سيف من غمده. فنظرت خلفي لأرى ما يحدث. كان يقف هناك صليبياً غاضباً وهو يشهر سيفه. ويصرخ في وجهي بجنون: «لماذا تقف هناك هكذا؟ هيا اذهب واقتلهم جميعاً. إذا كنت جباناً لا تقدر على ذلك، فسأفعل ذلك بنفسي».

انتظرت هناك لمدَّة لا تقل عن ثانية عندما سار ببطء نحو الأيتام وهو يستعد لقتلهم. لم أستطع وقتها التفكير. فقد تجمد دماغي. وسألت نفسي: «ماذا عليّ أن أفعل؟».

كان أمامي لحظات قليلة قبل أن يقتل هذا الصليبي العائلة المسلمة الصغيرة. كنت أعلم أن ما سأفعله في هذه اللحظات القليلة القادمة سيغضب الله سبحانه، ولكن كان عليّ القيام بذلك.

كان قد جمع قوته ورفع سيفه ليهوي به على رؤوس الأطفال الصغار العاجزين عندما اندفعت بشكل خاطف إلى الأمام وأوقفته على الفور، وقمت بضربه بالسيف في جميع أنحاء جسمه حتى سقط على الأرض وهو يلتوي من شدة الألم. وقال لي بصوت خفيض: «أخبر زوجتي وأطفالي أنني أحبهم».

كان ينظر إلي بعيون غشاها الموت والدم ينزف بغزارة من صدره. وصرخت: «ماذا فعلت؟» في الوقت الذي كانت فيه الفتاة تنظر نحوي بفضول. كان أمامي لحظة لكي أدرك تماماً ماذا فعلت. وسألت نفسي: «لماذا فعلت ذلك؟ نحن، الجيش المسيحي، غزونا هؤلاء العاجزين في عقر دارهم وقتلناهم.

هذا ليس عدلاً. كيف سأشعر في هذا الموقف؟ بالفزع والخوف الذي يملأ الصدر، مثل الشيطان عندما يأتي ليأخذني إلى بوابات الجحيم».

لقد ندمت بالفعل على قتل الصليبي بعد أن فكرت فيما أقدمتْ عليه يداي أكثر فأكثر. ولكن كان عليّ أن أفعل ذلك، وإلا لكان قد قتل الأطفال بلا رحمة أو شفقة. ظلت هذه الأفكار تراودني أثناء محاولتي مساعدة الأسرة المسلمة على الفرار والنجاة من القتل.

كان صباحاً مشمساً لطيفاً، والطيور تغني في الأشجار. ولكن لسوء الحظ، لم يكن ذلك جيداً بالنسبة إلي. فقد تقرر إعدامي في المحكمة العامة في كانتربري الكبرى. وقال قاضي التحقيق في محكمة التفتيش القصير بوجهه الدميم، وبصوت كأنه يخرج من أحشائه إن: «المحكمة تجد هذا الرجل مذنباً بجريمة قتل عقوبتها الحرق على وتد حتى الموت بلا استثناء».

الآن كان لدي الوقت لأقول آخر كلماتي في الحياة. فصرخت بصوت وبثقة عالية لكي يسمعه الناس الذين ينتظرون موتي:

«أنا أموت لأنني قتلت مسيحياً آخر. لكن ماذا كان يفعل ذلك الصليبي؟ كان يهمّ بقتل عائلة مسلمة لا حول لها ولا قوة. أعتقد أنني فعلت ما هو صواب بحق، وما هو عادل في الوقت نفسه. هذه المحكمة فاسدة، وكذلك كل ما يتعلق بها».

في هذه اللحظة، بدأ الناس يصرخون في وجهي ويوجهون إلي الشتائم واللعنات الساخنة والباردة. صرخ أحد الحراس في هؤلاء الناس طالباً منهم الهدوء والتوقف عن توجيه المزيد من الإهانات. وجرني هذا الحارس القوي على عجل نحو الحفرة التي سألقى فيها مصرعي بالنار الموقدة.

لقد اعتقدت بأنني ارتكبت خطيئة ستأخذني إلى الجحيم! عند هذه النقطة، بدأت أشعر بالتوتر. ولكني فعلت ما هو صحيح، أليس كذلك؟ واصلت التفكير بما فعلت. كانت ركبتاي تهتزان من شدة التوتر والخوف.

وصاح قاضي التحقيق بالحراس: «هيا أشعلوا النار!». رأيت شرارة النار تضاء بعيوني التي أصابها اليأس وغشاها وهج ألسنة النار الملتهبة. ستكون هذه اللحظات الأخيرة في حياتي. فأخذت

أدعو الله وأصلي. وأنا أقول: «يا رب أدخلني الجنة. لقد فعلت ما اعتقدت أنه كان على صواب. وما هي إلا لحظات حتى سرت النار في جميع أطراف جسمي وأحرقتني ألسنة اللهب الشيطانية بالكامل وأنا أصرخ من شدة الألم».

لم أكن أعرف تماماً ما إذا كنت ميتاً أم لا. ولكنني سمعت فقط صوت أمي يتناهى إلى مسامعي من مكان بعيد، وهي تقول لي: «لا تقلق يا بني سيكون الأمر على ما يرام»(*).

* * *

(*) المصدر: بريطانيا.

ابن آوى أم نمر؟

كن سمحاً... هل أنت عنيد أو مكابر؟

تأليف: آندرو لانغ

في ليلة صيف حارة، نهضَ ملك هندوستان وزوجته في منتصف الليل على غيرِ عادتهما. كانتْ درجات الحرارة في تلك الليلة مرتفعة أكثر من المعتاد في القصر الملكي الذي يقعُ في منتصف المدينة. وكان كلّما هبّت نسمة باردة بين الحين والآخر عبر النافذة المطلّة على ساحة القصر تلقّفها الملك والملكة على أمل أن يستطيعا معاودة النوم بدون إزعاج حتّى الصباح.

ولكنَّ النوم جافاهما ممّا أزعجهما بشدّة، وزادَ من شدّة غيظهما سماعهما من وقت لآخر أصوات حيوانات مختلفة خارجَ القصر.

وقالَ الملكُ للملكة دون اكتراث: «أنصتي. هذا صوت نمر».

فأجابت الملكة وهي تنظرُ عبر النافذة المطلة على ساحة القصر: «هل قلت نمر؟ كيفَ يُمكن أن يكون هناك نمرٌ في داخل المدينة؟ إنه صوتُ ابن آوى ليس إلا».

وقال الملك: «أقول لك مرة ثانية إنه صوتُ نمر».

فأجابت الملكة: «وأنا أقولُ لكَ إنه صوت ابن آوى».

وقالَ الملك بصوتٍ مرتفع: «أنا أقولُ إنه صوتُ نمر. لا تخالفيني في ذلك».

وقالت الملكة: «هذا محضُ هراء. كان هذا صوت ابن آوى».

واحتدم النقاش بين الملك والملكة لدرجة جعلت الملك يقولُ أخيراً: «حسناً. سوف أستدعي الحراس وأسألهم. فإذا كان الصوت كما تقولين صوت ابن آوى فسوف أتركُ المملكة وأغادر بعيداً. وإذا كان الصوتُ كما أقولُ صوتَ نمر، فسوف يتعيّن عليك في هذه الحالة أن تغادري أنتِ بعيداً، وأتزوج أنا امرأة جديدة».

وأجابت الملكة: «كما تريد. ليس هناك أي شكٍّ في أنه كان صوت ابن آوى».

استدعى الملك اثنين من الحراس كانا يقفان على بوابة الجناح الملكيّ. وكانا قد سمعا مع بقيّة حرسِ الجناح كلّ حديث الملك والملكة حول موضوع النمر وابن آوى، فقال أحدهم للحارسين اللذين يوشكان أنّ يدخلا:

«هل تمانعان أن تقولا إن الملك كان على حقّ، وأن الصوت كان صوتَ نمر؟ لقد كان هذا بكلِّ تأكيدٍ صوتَ ابن آوى، ولكن إذا قلتما ذلك فقد لا يفي الملك بوعده بالذهاب بعيداً عن المملكة، ونواجه بعدها المتاعب، ولذلكَ من الأفضل بالنسبة لنا أن نؤيد ما قاله».

وافق الحارسان على الفور، ولذلك عندما سألهما الملكُ من هو الحيوان الذي سمعا صوته منذ قليل، أجابَ الحارسان أنه كان صوت نمرٍ بكلِّ تأكيد. لم يعلّق الملك على ما قاله الحارسان، وطلبَ على الفور إحضار محملٍ ملكيٍّ يقومُ عليه أربعة من الخدم لحملِ الملكة بعيداً جداً عن المملكة. وطلبَ من الحمّالين الأربعة أن يأخذوها بعيداً جداً في وسط الغابة، ويتركوها هناك بمفردها.

وعلى الرغم من أن الملكة لجأتْ إلى دموعها لتكسب عطفَ الملك ويتراجعَ عن قراره، ولا سيَّما أنها كانت حاملاً توشك أن تلد، أُجبرتْ في النهاية على الانصياع. وسارَ الخدم بها ثلاثة أيام بلياليها حتى وصلوا ليلاً إلى غابة كثيفة حيث وضعوا هناك المحمل والملكة بداخله وانطلقوا بعدها عائدين إلى القصر لا يلوون على شيء.

اعتقدتْ الملكة في البدء أن الملك لا يريد في الواقع أن يُبعدها عن القصر بشكل نهائي، وأنه حالما يتغلّبُ على مزاجه السيئ ويستعيد طبعه العادي فإنه سوف يعيدها إلى القصر. ولكنها في الواقع بقيتْ هناك مدّةً طويلة كانت تنتظر خلالها أن تسمعَ وقعَ أي خطوات قادمة نحوها.

ولكنّها مع الأسف لم تسمعْ شيئاً. ومع مرور الوقت، شعرت بالتوتر الشديد لكونها وحيدة في وسط الغابة، وكانت تقومُ بالنظر خارج المحفل طيلة الوقت لعلّها ترى من سيأتي لإعادتها إلى القصر.

ومع بدء شروق الشمس دبّت الحياة في الغابة، وكانت الريح الدافئة تداعبُ أوراقَ الشجر، وعلى الرغم من أن الملكة كانت

تتطلع في كل الاتجاهات، لمْ يكن هناك أيّ أثرٍ لأيّ كائنٍ بشري. عندها انهارت معنوياتها، وبكت بحسرة وألم شديدين.

وصدفَ أن كان يعيش بالقرب من المكان الذي كان فيه محمل الملكة رجلٌ مع زوجته ضمن مزرعة في وسط الغابة بعيداً عن أي جيران. ونظراً لكون حرارة الجو مرتفعة، كان المزارع ينام على سطح بيته، إذ استيقظ على صوت بكاء الملكة. فنزلَ على الفور عن السطح متوجهاً نحو مصدرِ الصوت حيث وجلست الملكة وحيدة في محملها.

وقالَ المزارع بصوت مرتفع وهو يقترب منها: «من أنتِ أيتها الباكية؟ وكيف جئتِ إلى هنا؟» تفاجأت الملكة بصوت هذا الرجل الغريب، واختارت أن تلوذ بالصمت لأنها لم تكنْ تعرف بما تجيبه من شدة الخوف.

وأعاد المزارع السؤال: «آه. أيتها الباكية المسكينة. لا تخافي من الحديث معي فأنتِ في مقام ابنتي. قولي لي من أنتِ وكيفَ جئتِ إلى هنا؟».

كان صوته دافئاً يوحي بالثقة والطمأنينة. فاستجمعت الملكة كل شجاعتها لتجيبه. فروتْ له الحكاية بكاملها. فنادى المزارع

زوجته لتأتي إليه. وقامتْ زوجة المزارع باصطحاب الملكة إلى داخل الكوخ وقدّمتْ لها الطعامَ وسريراً لترتاح عليه. ولم تمضِ سوى أيام قلائل حتى وُلد في المزرعة أميرٌ صغيرٌ أسمته أمه الملكة الأمير علي.

مرَّتْ سنوات دونِ أن يقوم الملك بالسؤال على أحوال الملكة، وما حل بها طيلة السنوات الماضية. وربما اعتقدَ أنها قد ماتتْ. لكنَّ ذلك لم يكن صحيحاً، إذ كانت الملكة لا تزال تعيشُ بصحّة جيّدة معَ المزارع وزوجته، وكان الأمير الصغير علي أيضاً قد نضجَ في ذلك الوقت ليصبحَ شاباً قوياً ووسيماً وذا صحّة جيّدة.

كان الأربعة في الغابة منفصلين عن العالم الخارجي. ونادراً ما كان أحدٌ من عابري السّبيل يمرُّ بالمنطقة. وكان الأمير طوال الوقت يرجو أمه والمزارع أن يسمحا له بالخروجِ ليبحثَ على رزقه بيده ويتعرّفَ المناطق المجاورة. فكانت أمه والمزارع يطلبان منه التريّث، ويقولان له إنه يُمكنه ذلك عندما يبلغَ الثامنة عشرة من العمر على الأقل حيث يحقُّ له أن يفعلَ ما يشاء.

وعندما بلغ الأمير الثامنة عشرة، قرر الذهاب برحلة استكشافية في المنطقة المحيطة بالغابة، فودّع أمه والمزارع ووعدهما بالعودة قريباً، وانطلق باكراً وهو يضعُ سيفه على جنبه ويُمسكُ بقوسه ليصطادَ الطيور أينما وجدها في سيره، ويحمل على ظهره وعاءً نحاسياً كبيراً، ويضعُ قطعاً نقدية فضّية في جيبه.

وظلَّ يسير في طريقة يوماً بعد يوم حتى وصل في صباح أحد الأيام إلى أطراف غابةٍ تشبه كثيراً الغابة التي وُلد وترعرع فيها، ودخلها والفرحُ يغمر قلبه كما لو أنه ذاهبٌ للقاء صديقٍ قديم، وبينما كان يسيرُ بين أشجار الغابة الكثيفة رأى حمامة اعتقد للوهلة الأولى أنها ستكونُ مناسبة لوجبة الغداء، فرفعَ قوسه وأطلق سهمه ولكنه أخطأها.

وطارت الحمامة بعيداً من شدة الفزع وهي تصدر أصواتاً قوية بحركة جناحيها. وسمعَ في هذه الأثناء ضوضاء متواصلة تصدر من وراء الغابة. وعندما وصلَ إلى مصدر الصوت رأى امرأة عجوز قبيحة الوجه تصرخُ بأعلى صوتها وهي ترفع عن رأسها جرّة من الفخار لحمل الماء مثقوبة في أحد جوانبها وتسيلُ منها المياه فوق ملابسها.

وعندما رأت الأمير وهو يحملُ القوس في يده، نادته قائلة: «آه. أيها التعيس. لماذا اخترت امرأة عجوزاً مثلي لكي تمارس عليها طيشك؟ ومن أين لي أن أحصلَ على جرّة جديدة عوضاً عن هذه الجرة التي ثقبتها بألاعيبك الحمقاء؟ ثم كيف لي أن أذهبَ من جديدٍ إلى النبع البعيد لكي أملأها مرّة أخرى وأنا أشعر بالتعب الشديد بعد ذهابي إلى هناك في المرة الأولى؟

فأجاب الأمير برفق ولين: «ولكن يا أمي أنا لم أفعلْ ذلكَ عن قصد. لقد أطلقتُ سهمي على حمامة وقفتْ بالقرب مني على غصن شجرة كنت أريدها لغدائي، وقد أخطأتُ الهدف ويبدو أن السهم قد أصابَ الجرّة عن غير قصد. ويُمكنك أن تأخذي عوضاً عنها هذا الوعاء النحاسي. أمّا بالنسبة للماء، فأرجو أن تخبريني بمكان النبع لأقوم بملء الوعاء لك ريثما تقومين بتجفيف ثيابك في الشمس، وبعد ذلك تحملينه إلى أي مكان تريدين».

أشرقَ وجه العجوز بالفرح لدى سماعها ما قاله لها الأمير. وأخبرته عن مكان نبع الماء. ولمّا عاد بعد وقت قصير بالوعاء النحاسي وهو مملوءٌ بالماء، تناولته منه على عجلٍ ومضت في

طريقها دون أن تنبس ببنت شفة. وسار الأميرُ الشاب وراءَها في صمت.

وبعد مدّة قصيرة اقتربا من كوخٍ وسطَ الغابة. وما إن وصلَ إلى جانب الكوخ حتّى رأى الأمير علي فتاة جميلة تقفُ على عتبته. وعندما رأت هذا الغريب يقتربُ منها قامت على الفور بوضع حجابها ودخلتْ إلى الكوخ.

لم يجدْ الأمير علي أيّ ذريعة لكي يطلبَ رؤية الفتاة مرّة ثانية. وهكذا قامَ، والأسى يعتصر قلبه، بإلقاء السلامِ ووداعِ العجوز. وسارَ في طريقه. ولم يبتعد كثيراً حتّى نادته العجوز من ورائه: «إذا وجدتَ نفسك يوماً تواجه مشكلة أو كانت حياتك في خطر، فتعالَ إلى حيثُ تقفُ الآن ونادِ بصوت مسموع: «يا حورية الغابة! يا حورية الغابة. ساعديني الآن!» وأنا سوفَ أسمعكَ على الفور».

شكر الأميرُ العجوزَ وتابعَ طريقه وهو يفكّر قليلاً بما قالته له هذه العجوز، وكثيراً بالفتاة الجميلة. وبعد ذلك وصلَ الأميرُ إلى مدينة بيوتها بيضاء جميلة، وقد أخذ منه التعب كلَّ مأخذ بعد

مسيرة أيام متتالية، وتوجّه على الفور نحو قصر الملك ليطلب منحه فرصة عمل. فقالَ له الملك إن لديه الكثير من الخدم، وليس في حاجة الآن إلى المزيد منهم. لكنَّ الشاب ألحَّ في السؤال بسبب الحاجة حتى أشفقَ عليه الملك، وعرضَ أن يعملَ ضمنَ فريق الحراسة الشخصي للملك بشرطِ أن يقومَ بتنفيذ أيّ مهامّ يوكلها له مهما كانت صعبة أو خطيرة. وكان هذا بالضبط ما يريده الأمير علي.

وحدثَ في ليلة عاصفة ظلماء كان فيها النهر يهدرُ بقوّة تحتَ أسوار القصر، أن تناهى إلى مسامع الملك بين ثنايا العاصفة صوتَ بكاءِ ونحيب امرأة. فأمر الملك أحد الخدم أن يذهبَ ليقف على حقيقة ومصدر هذا الصوت. لكنَّ الخادم جثا على ركبتيه أمام الملك وهو يرتعدُ من شدة الخوف، ويرجوه أن يعفيه من هذه المهمة خاصة في ليلة تهبُّ فيها رياح وحشية، وتكونُ فيها أرواح الساحرات والشياطين تهيمُ في كل مكان.

كان الخادم في الواقع يرتعدُ من شدّة الخوف بشكلٍ واضحٍ لدرجة أن الملك، الذي كان يتميّزُ بطيبة القلب، طلبَ من خادمٍ آخر أن يذهبَ عوضاً عنه لتنفيذِ هذه المهمة. ولكنَّ الغريب أنْ

هذا الخادم البديل أخذ يرتعد من شدّة الخوف أيضاً بعد أن طلبَ منه الملك ذلك. في هذه الأثناء، تقدم الأمير علي وقالَ للملك: «هذا واجبي يا جلالة الملك. سأذهب أنا».

أشارَ الملك برأسه بالموافقة، وغادرَ بعدها الأمير علي على الفور لتنفيذ طلب الملك. كانتْ ليلة ظلماء، والريحُ تعصف بشدّة تدفعُ بزخات المطر بقوة في وجه الأمير علي. ولكنّه واصلَ سيره حتى وصلَ إلى مخاضة النهر تحتَ أسوارِ القصرِ، وخاضت بلا تردّدٍ أو وجلٍ في مياه النهر الذي فاضتْ ضفافه من شدة غزارة المطر. كان يتقدم بشكل بطيءٍ جداً وبصعوبة بالغة. وفجأة كادَ يفقد توازنه بسبب تيّارٍ معاكس أو دوامة وسط مياه النهر الهادرة. ولكنه نجا بشقِّ الأنفس عندما استطاعَ أن يتشبّثَ ببعض أغصان الأشجار المتكسرة بفعل العاصفة التي كانت تطفو في مجرى النهر.

تمكّنَ الأمير علي أخيراً من عبور النهر والوصول بسلامٍ إلى الضفّة الأخرى. وسرعان ما لمحتْ عيناه بالقربِ من ضفّة النهر مشنقة منصوبة معلّقاً عليها أحدُ الأشرار، وكان يَصدُرُ من عندِ قدمه صوتُ البكاءِ والنحيبِ الذي سمعه الملك.

شعر الأمير علي بالحزن الشديد لهذا الذي كان يبكي هناك حتى إنه لمْ يعدْ يفكر بقساوة الليلة أو بفيضان النهر. أمّا المخاوف الأخرى كالأشباح والساحرات فلم يكن يهتمُّ بها على الإطلاق. وهكذا تقدم نحو المشنقة ليجد امرأة تجلس تحت قدمي الرجل الذي يتدلى من حبل المشنقة.

وقال لها: «ماذا يبكيكِ يا امرأة؟».

الآن، لم تكن الجالسة على الأرضِ في الواقع امرأة عادية أبداً، بل كانت ساحرة من نوعٍ بغيضٍ لا يعيش في أرضنا، بل يعيشُ عادة في أرض السحرة. وكانت تريدُ أن تصطاد رجلاً لتتناوله في وجبة العشاء. ولهذا كانتْ تبكي وتنتحبُ طيلة الوقت على أملِ أن يقترب منها شخصٌ ما بدافع الشفقة لإنقاذها.

وهكذا عندما سألها الأمير علي، أجابت: «آه. يا سيدي العطوف. إن هذا المعلّق على هذه المشنقة هو ولدي. ساعدني على إنزاله وسوف أحفظُ لك هذا الجميل أبدَ الدهر».

شعرَ الأمير علي بأن صوت المرأة لم يكن حزيناً كما ينبغي، ولذلك شكَّ في أنها لم تكن تقول الحقيقة، وهكذا قرّرَ على الفور اتخاذ جميع إجراءات الحذر والحيطة في التعامل معها.

فأجاب الأمير علي: «سيكون هذا مستحيلاً لأن المشنقة عالية، ولا يوجد معي سلّمٌ لأرتقي به إلى الأعلى». فقالت الساحرة العجوز: «هل يُمكنك إذنْ أن تحني ظهرك قليلاً وتدعني أصعدُ عليه لأصل إلى أعلى كتفيك. أعتقد أنه في هذه الحالة يُمكنني أن أصلَ إليه». كانتْ نبرة صوتها هنا قاسيةً جداً لدرجة شعر معها الأمير علي بأنها تعتزم القيام بشيء شرير. فاكتفى بالقول لها: «حسناً جداً. دعينا نحاول ذلك».

وسحبَ سيفه متظاهراً بأنه يحتاج إليه لكي يستندَ إليه عندما يحني ظهره لكي تستطيع المرأة العجوز أن تصعدَ عليه. وصعدت المرأة العجوز برشاقة غريبة. ثم شعرَ بعقدة حبل المشنقة يلتفُّ حول رقبته في الوقت الذي قفزتْ فيه المرأة العجوز من كتفيه إلى أعلى المشنقة وهي تصرخ: «الآن تمكّنتُ منكَ أيها الأحمق. وسوفَ أقتلكَ لأتناول لحمكَ في وجبة العشاء».

لكنَّ الأمير علي رفع بسرعة مذهلة سيفه الحاد عالياً، وقطعَ الحبل الذي وضعته الساحرةُ حولَ عنقه خلسة. كانت الضربة قوية جداً لدرجة أنه لم يقطعْ الحبل فقط بل قطعَ معه قدمَ الساحرة العجوز التي كانت تتدلى من فوقه. وعلى إثر ذلك،

اختفت الساحرة العجوز على الفور، وابتلعتها الظلمة وهي تطلقُ صيحات الألم والغضب.

جلس الأمير لبرهة من الوقت ريثما يلتقطُ أنفاسه ويستوعب ما جرى معه. وشعرَ بوجود خلخالٍ أمامه على الأرض لا بدَّ أن يكون قد سقطَ من قدم الساحرة العجوز. فدسه في جيبه.

كانت العاصفة قد هدأتْ قليلاً، وانتقلت إلى مكان آخر. فتوجّه على الفور نحوَ القصر ليروي للملك ما جرى معه. ولمّا انتهى من ذلك، أخرج الخلخال وقدّمه للملك الذي شعرَ، مثل أي إنسان آخر، بالدهشة الشديدة بلمعان المجوهرات المصنوع منها. في الواقع، كان الأمير علي نفسه ينظرُ إلى الخلخالِ مندهشاً من شدة لمعانه الذي لم ينتبه إليه عندما رآه في البداية.

شعرَ الملك بالسرورِ لجمال الخلخال، وقدّمَه إلى ابنته وهب، وهي أميرة فخورة بنفسها ومدللة في الوقت نفسه. ولم ينسَ الملك أن يثني على الأمير علي للعمل الذي قامَ به، وأن يُكافئه عليه بما يرضيه.

وكان في جناح الحريم في القصر قفصان معلقان في أحدهما ببغاء يدعى توتي وفي الثاني طائر زرزور. وكان كلا الطائرين

من مقتنيات الأميرة التي تحرص على إطعامهما بنفسها، ويتكلّمان مثل بقية البشر. وفي أحد الأيام بينما كانت تتمشى بخيلاء وهي تضع الخلخال الثمين حول قدمها، سمعت الزرزور يقول للببغاء: «آه يا توتي كيف ترى الأميرة تبدو وهي تضع في قدمها جواهرها الجديدة؟».

فأجاب الببغاء بحدة بالغة لأنه كان يشعر بالغضب لعدم اهتمام أحد اليوم بحمّامه الصباحي مثلَ كلِّ يوم: «في رأيي تبدو مثل ابنة امرأة تقومُ بغسيل الملابس على ضفة النهر، وتلبس فردة واحدة من حذائها دون الأخرى. لماذا لا ترتدي خلخالاً لكلِّ قدمٍ عوضاً عن أن تسيرَ وهي تزيّنُ قدماً واحدة دون الأخرى؟».

وما إن سمعت الأميرة ذلك حتى أخذتْ تبكي، وطلبتْ رؤية أبيها لتقولَ له بأنها تريدُ خلخالاً مماثلاً للذي ترتديه في قدمها الأخرى، وإلا فإنها سوفَ تموتُ من شدّة القهر. وهكذا طلبَ الملكُ أن يمثلَ أمامه الأمير علي على الفور، وطلبَ منه أن يحضر خلخالاً آخر مماثلاً تماماً للأول الذي أحضره من قبل خلال مهلة مدتها شهر، وإلا فسوفَ يقتله شنقاً، وهي كما يعرفُ الجميع طريقة مهينة للقتل في الهند، وكان سببُ إصرار الملك على ذلك

هو اعتقاده بأن ابنته المدلّلة سوفَ تموت بكل تأكيد من خيبة الأمل إذا فشلَ في إحضار الخلخال الثاني المطلوب.

شعرَ الأمير علي المسكين بالاضطراب الشديد لدى سماعه أمر الملك. ولكنه أخذ يهوّن على نفسه الأمر بقوله إنه لا يزال أمامه في كل الأحوال شهرٌ كامل لتنفيذِ أمر الملك وهي فترة كافية لكي يفكّرَ ويخطّطَ لتنفيذها كما يجب.

غادرَ الأمير علي القصر على الفور وأخذ يسأل من أينَ يُمكنه شراء أفضل أنواع المجوهرات. ولكن على الرغم من أنه واصل البحث ليلاً نهاراً لم يعثر على خلخالٍ مشابه للأول. وأخيراً، حين لم يبقَ أمامه من مهلة الشهر إلّا أيام معدودات، ووجد نفسه في ورطة كبيرة لا يعرف كيف يخرج منها، تذكّرَ المرأة العجوز التي أعطاها الإناء النحاسيّ في بداية رحلته، وقرّرَ على الفور أن يذهبَ إليها بدون إضاعة مزيد من الوقت.

وهكذا ذهب إلى كوخها في الغابة، وعندما وصلَ إليه بعد مسيرة يوم كامل، وقفَ أمامَ الكوخِ وهو ينادي: «يا حورية الغابة، ساعديني يا حورية الغابة»، فظهرَت على عتبة باب الكوخِ

الفتاة الجميلة التي سلبتْ لبّهُ حين كان هنا أول مرة، ولم يستطع نسيانها على الرغم من كلِّ هذا الزمن الذي مضى.

وسألت الفتاة بصوت هادئ وعذب: «ما الأمر؟». لم يستطع الأمير علي أن يسمع ما قالته الفتاة كما لو أن الصمم قد أصابه فجأة، واضطرت الفتاة لإعادة السؤال حتّى فاقَ من شروده. وروى حكايته عليها، فدخلت الكوخ وعادت وهي تحمل بين يديها عصوَيْنِ سحريتين ومِرجلاً لغلي الماء.

وغرست العصوين السحريتين في الأرض، وتركتْ بينهما مسافة ثلاثة أمتار، ومن ثمَّ التفتت إليه وهي تقول: «سأستلقي بين هاتين العصوين السحريتين، وستسلَّ سيفك وتقطعِ قدمي، وحالما تنتهي من ذلك، يجبُ عليكَ أن تمسكَ بالقدمِ المقطوعة وترفعها فوق المرجل، وسوفَ ترى أن كلَّ نقطة دمٍ تسقطُ في المرجل سوف تتحوّلُ إلى قطعة مجوهرات نفيسة. وبعدها يتعيّن عليك أن تغيّرَ مكان العصوين السحريتين لتضعَ الواحدة مكان الأخرى، وأن تعيدَ القدم المقطوعة إلى مكانها في مواجهة الريح لكي يشفى الجرح ويلتئم بسرعة، وبعد ذلك سأصبح على ما يرام تماماً كما كنتُ من قبل».

فقال الأمير علي بكلِّ وضوح إنه يفضّلُ أن يُشنقَ عما قريب عشرين مرة على أن يعاملها بمثل هذه القسوة والوحشية. لكنَّ الفتاة تمكّنتْ أخيراً من إقناعه بأن يقوم بما طلبته منه. وكاد الأمير علي يغيب عن الوعي من شدّة الرعب عندما وجدَ أن الفتاة، بعد أن قطع قدمها، ترقدُ بلا حراك كالميتة، لكنّه أمسك بالقدم ووضعها فوق المرجل. وسرعان ما رأى كيف أن نقطَ الدم المتساقطة فوق الماء الساخن تتحول على الفور إلى قطع مجوهرات لامعة مما شجعه على مواصلة العمل كما طلبتْ منه الفتاة.

ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى تجمّع في المرجل الكثير من المجوهرات، وغيَّر الأمير علي مكان العصوين السحريتين الواحدة مكان الأخرى، وأعاد قدم الفتاة إلى مكانها في مواجهة الريح، وسرعان ما التأمَ الجرح والتصقت القدم بساقِ الفتاة كما كانتْ من قبل. ومن ثم فتحت الفتاة عينيها، وقفزت واقفة على قدميها بقوّة ونشاط، وهي تُصلحُ من حال ردائها حول جسدها، وتوجّهتْ نحو الكوخ، دون أن تقول ولا كلمة واحدة.

انتظر الأمير علي طويلاً على أملِ أن تخرجَ الفتاة من الكوخ من جديد. ولكنها لم تخرجْ أبداً. فجمع قطع المجوهرات الثمينة

من المرجلِ، وعاد بها إلى القصر. واستطاع بسهولة أن يجدَ من يصنع له منها خلخالاً نادراً وثميناً مثل الخلخال الأول. وكان عددُ المجوهرات يكفي ليسَ لصنعِ خلخالٍ واحدٍ بل ثلاثة. فقدَّمها حسبَ الأصول إلى الملك في اليوم نفسه الذي تنتهي فيه المهلة الممنوحة له لتحقيق المطلوب.

عانقَ الملكُ الأمير علي بحرارة، وقدّم له هدايا ثمينة. وفي اليوم التالي وضعت الأميرة المغرورة خلخالاً في كل قدم، وذرعت غرفتها ذهاباً وإياباً وهي معجبة بنفسها أمام المرايا العديدة الموجودة على جدران غرفتها.

وسأل الزرزورُ الببغاء: «يا توتي. كيف ترى أميرتنا الآن وهي ترتدي كل هذه المجوهرات الثمينة؟».

لم يكن الببغاء قد استعاد مزاجه المرحَ بعد، فكان لا يزال يشعر بالغضب في صباحِ كلِّ يوم. فدمدم الببغاء باشمئزاز واضح: «لقد حصرتْ جمالها في إحدى أطرافها الآن؛ ولو وضعت بعض هذه المجوهرات الثمينة حول جيدها وخصرها لكانت قد بدت بشكل أفضل وأجمل. ولكنّها الآن، في رأيي، تبدو مثل ابنة المرأة

التي تقوم بغسيل الملابس وهي ترتدي كامل ملابسها أكثرَ من أي وقت مضى».

بكت الأميرة المسكينة وهاجتْ وماجتْ حتى شارفتْ على الوقوع في المرض. وقالتْ لوالدها الملك إنه إذا لم يحضرْ لها أساورَ وقلائدَ تماثل الخلخالين فإنها ستموت لا محالة. وهكذا أمضى الأمير علي قرابة شهر بتمامه وهو يبحث عن عبث عن المجوهرات المطلوبة. وأخيراً غامر مرة ثانية بالوصول إلى الكوخ في الغابة ووقف على بابه ينادي على من فيه: «يا حورية الغابة! يا حورية الغابة! ساعديني! ساعديني!».

خرجت الفتاة الجميلة مرة ثانية استجابة لندائه، وسألته عما يريد. وعندما أخبرها بذلك قالت له إنه يتعيّن عليه أن يفعلَ تماماً ما فعله في المرة الأولى فيما عدا أنه يتعيّن عليه في هذه المرة أن يقطع يديها وقدميها ورأسها أيضاً.

جعلت كلماتها المرعبة وجه الأمير علي شاحباً شحوبَ الموت من شدة الرعب. ولكنها ذكّرته بأنه لمْ يحدثْ لها أي مكروه في المرّة الأولى. وهكذا وافق الشاب على القيام بما تطلبه منه. وبدأ

يتساقط من يديها وقدميها ورأسها قطرات الدم التي تحولّتْ في داخل المرجل إلى أساور وقلائد من المجوهرات. ثمَّ أعاد الأمير علي بعد ذلك اليدين والقدمين والرأس إلى أماكنها كما فعل في المرة الأولى والتأمت الجراح دون أن تترك أي أثر أو ندبة على الجلد.

حاولَ الشاب أن يتحدّث مع الفتاة ليقدّم لها عظيم شكره وامتنانه، ولكنها ركضتْ إلى داخل الكوخ ولم تخرج منه ثانية، وكان مجبراً بالتالي على أن يغادرَ المكان عائداً إلى القصر محملاً بكل هذه المجوهرات الثمينة البرّاقة.

وعندما قَدَّمَ الشاب في اليوم المحدد القلائد والأساور إلى الملك، كانتْ دهشته مطلقة بلا حدود. وأمّا بالنسبة لأبنته الأميرة، فإن فرحتها بما حصلت عليه كادتْ تُفقدها عقلها. وفي صباح اليوم التالي، قامت الأميرة بارتداء كلَّ هذه المجوهرات البراقة لتظهر في كامل أناقتها. واعتقدت أن الببغاء لن يستطيعَ أن ينتقدها هذه المرّة. وأخذتْ تصغي السمعَ بشغفٍ لما يقوله الزرزور: «يا توتي. ما رأيك بمظهر أميرتنا الآن؟».

فأجاب الببغاء: «جميل جداً بلا شك. ولكن ما فائدة أن ترتدي الفتاة مثل هذه الملابس الجميلة لنفسها فقط؟ يتعيّنُ عليها أن تحصلَ على زوجٍ. ولماذا لا تتزوجُ الرجلَ الذي أحضرَ لها كل هذه الأشياء الجميلة؟».

وذهبت الأميرة إلى والدها لتخبره بأنها ترغبُ بالزواج من الأمير علي. فقالَ لها الملك: «يا بنتي العزيزة. أرى أنه من الصعب جداً إرضاؤك حقاً. تريدين في كلِّ يومٍ شيئاً جديداً. من المؤكّد أن الوقتَ قد حان لكي تتزوجي. وإذا كنتِ ترغبين بالزواج من هذا الرجل الذي اخترته، فهو سيوافقُ بالطبع على الزواج منك».

وهكذا أرسلَ الملكُ وراء الأمير علي ليخبره بقراره منحه شرف الزواج من الأميرة خلال فترة شهرٍ من الآن، وبجعله ولياً للعهد.

ولدى سماع الشاب ما قاله الملك، انحنى بوقار أمامه قائلاً إنّه قام وسيقوم بكل ما يأمره به الملكُ فيما عدا هذا الطلب الصغير. شعرَ الملك فجأة بالغضبِ الشديدِ لدى سماعِ ذلك وهو الذي يعتقد بأن يدَ ابنته تعدّ جائزة بالنسبة لأي رجلٍ. وشعرت ابنته الأميرة أيضاً بالغضبِ الشديد لدرجة الجنون.

ألقى الملك بالشاب على الفور في غياهبِ أسوأ السجون الموجودة في المملكة، وأمرَ بأن يبقى هناكَ حتى يتوفر لدى الملك الوقت الكافي للتفكير فيما إذا كان سيعدمه. وفي هذه الأثناء قرّر الملك أنه يتعيّن على الأميرة الزواج بكل الأحوال ودون أي تأخير. وهكذا أرسلَ في البلدان المجاورة الرسلَ يعلنون يوماً محدداً لكل من يرى نفسه كفئاً للزواج من الأميرة وبأن يكون ولياً للعهد، أن يتقدّم لخطبتها في القصر.

ولمّا حلَّ هذا اليوم، اجتمع جميع أفراد الحاشية في البلاط الملكي. كما كان هناكَ حشدٌ كبيرٌ من الرجال اليافعين وكبار السن الذين اعتقدَ كلُّ واحدٍ منهم بأنه كُفء للتقدم للزواج من الأميرة، وأمامه فرصة حقيقية مثل بقية المتنافسين للفوز بيد الأميرة وبالعرش. وحالما استوى الملك على عرشه، طلبَ من الحاجب أن يدخل عليه أول المتنافسين. وما إن انتهى الملك من طلبِ ذلك حتى علا صوت شخصٍ يقفُ في مقدّمة الصفوف وهو يقول إنَّ لديه شكوى يريد أن يتقدّم بها إلى الملك.

فقال له الملك: «حسناً. أسرع إذنْ. فليسَ لدي وقتٌ أضيعه».

فتقدّمَ الشخص، الذي كان المزارع الطيّب في الغابة التي تركت فيها الملكة، وقال: «جلالة الملك. لقد عشتم وأقررتم العدل منذ أمدٍ بعيد في هذه المدينة. وتعلمونَ أن النمر وهو ملك السباع يصطادُ فقط في الغابة، بينما ابن آوى يصطادُ في أيّ مكان يجد فيه ما يلتقطه أو يصطاده».

فقال الملك متسائلاً: «ماذا تقولُ أيّها الرجل؟ من المؤكّد أنكَ قد فقدتَ عقلك».

فأجاب المزارع: «لا يا جلالة الملك. أردتُ فقط أن أُذكّر جلالتكم بأن الكثير من أبناء آوى يتجمعون هنا اليوم في محاولة للمطالبة بيد كريمتكم الأميرة وبالمملكة، وكلُّ مدينة أرسلتْ ما عندها، وهم ينتظرون في جوع وترقب. ولكن يا جلالة الملك لا تُعِد ارتكابَ خطئك القديم نفسه، وتصرُّ على أن عواء ابن آوى هو ضرضرة نمر».

هنا، أصبحَ وجهُ الملك شديد الحمرة شاحباً.

وأضاف المزارع العجوز:«هناك نمر ملكي وُلد وكَبر في الغابة وهو الأحقُّ بالمطالبة بوراثة العرش».

وقال الملك وهو يتلعثم في الكلام ووجه يزداد شحوباً: «أين؟ وماذا تقصد بذلك؟»

فأجاب المزارع: «في السجن. وإذا طلبَ الملك من الحاشية إخراج أبناء آوى الحاضرين اليوم هنا خارج القاعة الملكيّة، فسوف أوضحُ ذلك بمزيد من الشرحِ والتفاصيل».

وقال الملك: «أخلوا القاعة على الفور من الحضور». وتوجه الجميع بشيءٍ من التردد وعدم الرغبة نحو باب القاعة ومغادرة القصر.

وقال الملك: «أخبرني الآن ما هي هذه الأحجية؟».

أعلم المزارع الملك وأفراد الحاشية من الوزراء كيف أنقذ الملكة وكيفَ اعتنى بالأمير علي. ثمَّ خرجَ من القاعة وعادَ ومعه الملكة التي كانت تنتظره خارجاً. شعرَ الملكُ بالخجلِ الشديد، وبدأ يُقرّع ذاته لدى رؤيته للملكة، متمنياً لو أنها تغفرُ له خطأه بحقّها الذي أدّى إلى طردها من القصر وإلى زواجه من ملكة متعجرفة سبّبتْ له مشاكلَ لا تحصى حتّى ماتت وخلفّت وراءها ابنتها التي ورثت الخيلاء والغرور عن أمها.

وقالَ الملك: «لقد حان وقتُ إصلاح خطئي». وأخرج على الفور الأمير علي من السجن وولّاه أميراً على عرش المملكة.

ذهبَ الأمير علي بعدَ ذلكَ مباشرة إلى الغابة، ووقفَ ينادي حورية الغابة كي تساعده، ولكن ظهرتْ أمامه هذه المرّة المرأة العجوز التي أعطاها الإناء النحاسي، فقال لها إنه يريد أن يطلبَ منها يدَ الفتاة التي تعيش معها في الكوخ لكي تصبح زوجته وأميرة على البلاد. فقالت له العجوز إنها ستسأل الفتاة عن رأيها أوّلاً، التي أعطت موافقتها على الفور. وهكذا تزوّجا دون أي تأخير، وعاشا أمداً مديداً، وحكما المملكة بسعادة وغبطة كبيرين.

وبالنسبة للمرأة العجوز، فقد كانتْ في الحقيقة ساحرة طيّبة تكفّلتْ برعاية الفتاة من صغرها وتعليمها فنون السحر، وقد عادتْ إلى أرض السحرة مرّة أخرى بعدَ أن اطمأنت إلى أن الأمير علي سوف يعتني بالفتاة كما يجب.

ومنذ ذلك الوقت لم يعد الملك يخالفُ زوجته في أيّ شيء، وإذا حصلَ أن اختلف مع زوجته حول أمر ما، كانتْ زوجته تبتسمُ في وجه وهي تقول: «هل هو النمر إذنْ، أو ابن آوى؟»، فكانَ لا يجد ما يُجيبها به. وينتهي الأمر عند هذا الحد(*).

* * *

(*) **المصدر:** آندرو لانغ - باكستان.

كيف يصطاد والتر الشجاع الذئاب

هل يُسهم صيد الذئاب في الحفاظ على البيئة حقاً؟

تأليف: آندرو لانغ

الهيئة العامة السورية للكتاب

كان هناك، ليسَ ببعيدٍ عن الطريق السريع الذي يمتدُّ عبر القرى والغابات، بيتٌ يُسمى هيمغراد. ربّما كنتم تتذكّرون شجرتي الرماد الجبلي الجميلتين باللونين البني والأحمر، والبوابة العالية، والحديقة التي تحتوي على شجيرات التوت البري الجميلة

التي تكونُ دائماً أول ما ينمو في الربيع، وتكون أغصانها مثقّلة بحبّات توت حلوة المذاق في فصل الصيف.

وهناك خلفَ الحديقة سياجٌ من أشجار الحور الطويلة يصدر عنها حفيف أوراقها عندما تهبُّ نسائم الصباح. وخلفَ هذا السياج يوجد طريق متعرّج، وخلفَ هذا الطريق توجدُ غابة كثيفة الأشجار، وخلف هذه الغابة يمتدُّ العالم الواسع بلا حدود.

ولكن على الجانب الآخر من السياج بحيرة يسكنها عفريتٌ صغير، وبعدها قرية صغيرة تنتشر فيها وحولها مروجٌ وحقولٌ مترامية الأطراف، أصبحت الآن خضراء.

وفي المنزلِ الجميلِ، الذي يحتوي على نوافذ زرقاء بلون السماء، وشرفة أنيقة ودرجاتٍ نظيفة، يتناثر فوقها دائماً أوراق العرعر، يعيشُ شخصٌ اسمه والتر مع والديه إضافةً إلى شقيقه فريدريك، وشقيقته لوتا، ولينا العجوز، ويوحنا، وكارو وبرافو، وبوتي ومور، وكوكيليكو.

وآخر خمسة مما سلف ذكرهم هم حيوانات، حيث يعيش كارو في بيت الكلب، وبرافو في الإسطبل، وبوتي مع سائس الخيل، ومور

يعيشُ قليلاً هنا وقليلاً هناك، ويعيشُ كوكيليكو في مملكته في قن الدجاج.

يبلغُ والتر من العمر ستَّ سنوات، وعليه أن يبدأ قريباً في الذهاب إلى المدرسة. فهو لا يستطيع القراءة بعد، لكنه يستطيعُ القيام بأشياء أخرى كثيرة. ويُمكنه تدوير عجلات العربة، والوقوف على رأسه بثبات، وركوبَ الأرجوحة، ورمي كرات الثلج، واللعب بالكرة، والصياح مثل الديك، وتناولَ الخبز والزبدة وشربَ اللبن الرائب، وتمزيقَ سرواله، وثقبَ أكمام قميصه، وكسرَ الأواني الفخارية، ورمي الكرات من خلال زجاج النوافذ، ورسمَ العجائز على أوراق مهمة، والممشى فوق زهور الحديقة، وأكلَ كمّيات كبيرة من التوت البري حتى يصاب بالتخمة والمرض.

وبالنسبة للآخرين، فهو صاحبُ قلبٍ طيّبٍ ولكن ذاكرته سيئة، فهو سرعان ما ينسى تحذيراتٍ والده ووالدته، وغالباً ما يقعُ في مشاكل تودي به إلى مغامرات شائقة كما سنرى بعدَ قليلٍ، ولكن قبلَ كل شيء يجبُ أن أخبركم كم كان والتر شجاعاً وكيف كان يصطاد الذئاب.

وفي إحدى المرات في فصل الربيع، وقبلَ منتصف فصل الصيف بقليل، سمعَ والتر من أهل القرية أن هناكَ الكثيرَ من الذئاب تعيش في الغابة، فقالَ لرفاقه وأهله: «الذئب الواحد لا يعني شيئاً، يجب أن يكون هناك أربعة على الأقل».

ومنذُ ذلكَ الحين، أصبح والتر كلّما تصارعَ مع كلاس بوغينستروم أو فريثوف وادرفيلت وضربهم على الظهر، كان يقول: «هذا ما سأفعله بالذئب!» وكلّما رمى سهامه على يوحنا الذي كان يرتدي معطفه المصنوع من جلد الغنم المصبوغ قال: «هذه هي الطريقة التي يجب أن أقتلك بها إذا كنت من الذئاب!».

في الواقع، قد يعتقدُ البعض أن والتر الشجاع يتفاخر قليلاً بنفسه أمام الآخرين، ولكنَّ رفاقه كانوا يصدّقونه لما يعرفونَ عنه من جرأة وإقدام. ولذلك اعتادَ يوحنا ولينا أن يقولا عنه: «هذا هو والتر الذي يصطاد الذئاب». وكان الفتيان والفتيات الآخرون يقولون عنه أيضاً: «هذا والتر الشجاع الذي يستطيع أن يُواجه أربعة ذئابٍ دفعة واحدة».

وفي أحد الأيام، أعدَّ والتر نفسه للذهاب إلى الغابة لصيد الذئاب. أخذ معه طبلته التي كان فيها ثقوب في أحد طرفيها منذ

أن صعد عليها للوصول إلى مجموعة من حبات التوت البري الوردي، وسيفه المصنوع من القصدير الذي كان مكسوراً قليلاً. كما حملَ معه بندقية الفلين ، وقوسه، وبندقية الصيد الخاصّة بوالده. إضافة إلى فلين محترق وضعه في جيبه ليلطّخ وجهه ويديه باللون الأسود للتمويه، وريشة ديكٍ حمراء اللون وضعها في أعلى قبعته ليجعلَ نفسه يبدو شرساً. وكان معه أيضاً في جيب سرواله سكيناً قابلاً للطيّ ذات مقبضٍ من العاج ليقطعَ آذان الذئاب بمجرد أن يقتلهم، لأنه كان يعتقد أنه سيكون من القسوة القيام بذلك وهم لا يزالون أحياء.

وسارَ والتر باتجاه الغابة مع كارو، الكلب الذي يعيش معه وعائلته في المنزل، وفي الطريق التقيا يوحنا الذي كان ذاهباً بكيسٍ من الذرة إلى المطحنة القريبة من الغابة. فقَّرر الذهاب معه إلى هناك لسؤال صاحب المطحنة عمّا إذا شاهدَ ذئاباً في الجوار. وبمجرّدِ وصولهم إلى المطحنة قرب الغابة، نظرَ والتر حوله بحذرٍ لرؤية ما إذا كان هناكَ ذئبٌ يختبئ بين الشجيرات. ثمَّ سألَ يوحنا عمّا إذا كانت الذئاب تخافُ من قرع الطبول. فقال يوحنا «بالطبع تخاف ذلك فهو دليلٌ على وجود صيّادين

مع كلابهم في مكان قريب». عندها بدأ والتر في قرع الطبل بكل قوته بينما كانوا يواصلون طريقهم إلى المطحنة.

وعندما وصلوا إلى الطاحونة سألَ والتر صاحبها على الفور عما إذا ظهرتْ أي ذئابٍ في الأماكن القريبة من المطحنة مؤخراً.

فأجابَ الطحان: «واحسرتاه! نعم. في الليلة الماضية أكلت الذئاب كبشنا الأسمن هناك عند التّنّور غير بعيد من هنا».

وقال والتر: «آه. هل تعتقد أن هناك الكثير من الذئاب هناك؟».

وأجاب الطحان: «لا أحدَ يعرف ذلك».

وقال والتر: «ياه. لا فرق بالنسبة إلي. كان سؤالي مردّه أن أعرف إذا كان يتعيّن عليَّ أن أصطحب يوحنا معي. أستطيع أن أواجه ثلاثة ذئاب بمفردي وبشكل مريح. ولكن إذا كان هناك الكثير، فقد لا أستطيعُ أن أقتلهم جميعاً قبل أن يهربوا بعيداً».

وقال يوحنا: «لو كنتُ محلَّ والتر لذهبتُ بمفردي، وذلك لأنها إشارة لا تخطئ عن الشجاعة والرجولة». وقال والتر: «لا. من الأفضل لك أن تأتي معي أيضاً. فقد يكون هناك بالفعل الكثير من الذئاب».

وأجاب يوحنا: «لا. ليس لدي الوقت الكافي. إضافة إلى ذلك، من المؤكّد أنه لا يوجدُ هناك أكثر من ثلاثة ذئاب. وأنتَ تستطيع مواجهتهم بمفردكَ على أحسن ما يرام. لا خوفَ عليك».

وقال والتر وهو يشعرُ بشيءٍ من الفخر والزهو: «نعم. أنا أستطيعُ ذلك بكل تأكيد. وكما ترى يا يوحنا، فقد يتمكّن أحدهم من عضّي في ظهري، وسيكون بعد ذلك من الصعب عليَّ قتلهم جميعاً. وحالما أتأكدُ أنه لا يوجد هناك أكثر من ذئبين فلنْ تكونَ هناكَ مشكلة، إذْ سأمسك واحداً بيد والآخر باليد الأخرى وأهزهما بعنف مثلما فعلت بسوزانا في إحدى المرات».

وقال يوحنا: «أعتقدُ لدرجة اليقين أنه لا يوجد هناك أكثر من ذئبين. وأظنّكَ يا والتر تستطيعُ أن تواجههما دون مساعدتي».

وقال والتر: «ولكن كما ترى يا يوحنا. إذا كان هناك ذئبان فقط كما تقول، ففرصة أن يهربَ أحدهما ويقومَ بعضِّ قدمي لا تزال قائمة. وكما تعلم فإن يدي اليسرى ليستْ بنفس قوة يدي اليمنى. ولذلك تستطيع أن تأتي معي أيضاً، وتأخذ معك هراوة غليظة في حال كان هناك بالفعل ذئبان. ولكن إذا كان هناك ذئبٌ واحد فسوف أمسكه بقوة بكلتا يدي وأقذفُ به في

الهواء ليقع على ظهره. هنا لا يستطيع الذئب أن يقاوم كما يريد وسأقوم بالإمساك به بثبات وعزم».

وأجاب يوحنا: «في الواقع عندما أمعنُ النظر في ذلك الأمر، أصبحُ متأكداً لدرجة كبيرة أنه لا يوجد في الغابة في الحقيقة سوى ذئب واحد. قل لي ماذا ستفعلُ بذئب واحد؟ أنا متأكد أنه لن يكونَ هناك أكثر من ذئب واحد».

وقال والتر: «نعم. ولكن رغم كل هذا يتعين عليك أن تذهب معي. وكما ترى أستطيع بسهولة أن أتعامل مع ذئب واحد، ولكني في الواقع لستُ متعوداً بعد تماماً على صيد الذئاب، والتي من الممكن أن تمزّقَ سروالي الجديد».

وقال يوحنا: «حسناً. اسمعني الآن جيداً. لقد بدأتُ أعتقد أنكَ يا والتر لستَ شجاعاً كما يقول الناس. ففي البدء، كنتَ ستقوم بمواجهة أربعة ذئاب، وبعدها صاروا ثلاثة، وبعدها أيضاً صاروا اثنين، والآن تريدُ مساعدتي في مواجهة ذئب واحد. ما ينبغي أن تكون الأمور على هذا النحو. ماذا سيقول الناس عنك؟ ربما سيعتقد الناس أن والتر جبان ليسَ إلا».

فأجاب والتر: «هذا كذب. أنا لا أشعر أبداً بالخوف، ولكن إذا كنا اثنين فسيكون ذلك مصدراً أكبر للمتعة والتسلية. أريدُ فقط أن يكون هناك رجل معي ليرى كيف أضربُ الذئب وكيف يتطايرُ من جسمه الغبار من شدة وعزم الضربة».

وقال يوحنا: «حسناً. في هذه الحالة يمُكنك أن تأخذ معك ليزا الصغيرة ابنة الطحّان حيثُ يمكنها أن تجلسَ على صخرة وتراقب ما يجري».

فأجاب والتر: «لا. ستصابُ بالرعب بكل تأكيد. إضافة إلى ذلك، كيف يُمكنُ لفتاة أن تذهبَ إلى صيد الذئاب؟ تعال معي يا يوحنا وسوف أعطيك جلد الذئب، وأنا سوف أكتفي بذنب وأذني الذئب».

فأجاب يوحنا: «لا. شكراً لك. يُمكنكَ أن تحتفظ بجلد الذئب لنفسك. أرى الآن بوضوح أنك خائف. يا للعار!».

تأثر كبرياء والتر بما سمع إلى درجة كبيرة. وقال في نفسه: «سوف أظهر للآخرين بأنني لستُ خائفاً على الإطلاق». وهكذا حمَلَ طبله وسيفه وريشة الديك وسكينته المطوية وبندقية الصيد الهوائية وبندقية الفلين، وتوجه وحده نحو الغابة لصيد الذئاب.

كان الوقت جميلاً يقترب من المساء بهوائه العليل، والطيور تغنّي على جميع الأغصان. اقترب والتر ببطء وحذرٍ شديدين. وكان يلتفتُ في كل الاتجاهات مع كل خطوة يخطوها ليتأكد من عدم وجود أي خطر يختبئ وراء الصخور. واعتقد بشكل جازم بأن شيئاً ما يتحرّكُ في داخل إحدى الحفر. فقد يكون ذلك أحدَ الذئاب. ولذلك رأى والتر أنه من الأفضل أن يقرعَ الطبل قليلاً قبل أن يقترب من الحفرة ليرى ما في داخلها.

وهكذا قرع الطبل ويده ارتجفت من الخوف والترقب. وفجأة تحرك شيءٌ ما مرة ثانية، وإذ بغرابٍ أسودَ يطير من الحفرة وهو يطلق صيحاته المعتادة. استعاد والتر على الفور شجاعته، وقال: «كان أمراً حسناً أن حملت الطبل معي». وتابعَ طريقه بخطوات شجاعة. ولم يمضِ وقت طويل حتى وجدَ نفسه يقتربُ من التنور حيث قتلت الذئاب الكبش السمين منذ يومين. وكان كلما اقترب من التنور بدا له منظره مرعباً.

كان التنور قديماً ولونه ضارباً إلى الرمادي. وقال والتر لنفسه إنه لا أحد يدري عدد الذئاب التي تختبئ هناك. ولعل الذئب الذي فتكَ بالكبش لا يزال يوجد هناك في زاوية من التنور. نعم.

لم يكن المكان آمناً أبداً. وشعرَ والتر بالخوف على سلامته ولا سيَّما أنه لم يكن يرى أيَّ أناس بالقرب منه، واعتقد والتر أنه سيكون أمراً مروعاً أن تلتهمه الذئاب في رابعة النهار.

وكان كلما واصل التفكير بذلك كان منظرُ التنور القديم يصبح كريهاً أكثر فأكثر ولونه الرمادي يزداد قتامة، وأصبحتْ فكرة أن يتحول المرءُ إلى طعامٍ للذئاب مرعبة ومخيفة أكثر فأكثر.

وفكر والتر في نفسه: «هل أعود وأقول إنني تمكنت من إصابة ذئب لكنه تمكّن من الهرب؟» فأجابه عقله الباطن: «يا لها من فكرة خاطئة للأسف. وهل نسيتَ أن الكذب هو أسوأ أنواع الخطايا عند الناس وفي السماء. وتأكّدْ يا والتر أنه إذا ما كذبتَ اليوم وقلتَ إنَّك تمكّنت من صيد ذئب، فسوف يأكلكَ الذئب في يوم الغد بكل تأكيد».

وقال والتر لنفسه: «لا. سوف أذهب إلى التنور». وهكذا فعل. ولكنه لم يفضل الاقتراب كثيراً منه. واكتفى بالاقتراب بما يكفي لرؤية دم الكبش الذي سفحه الذئب والذي كان يلوثُ العشبَ باللون الأحمر، وبقايا من صوف ظهر جلد الكبش المسكين الذي انتزعها الذئب بأسنانه القوية.

كان المنظر مخيفاً بالفعل.

وقال والتر: «أتساءل ماذا كانت مشاعرُ الكبشِ والذئابُ تنهشُ في لحمه». وسرتْ في جسمه في هذه الأثناء قشعريرة من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه.

وفكر والتر إنه: «سيكون من الأفضل أن أقرع الطبل». وهكذا قرعَ الطبل. ولكن صوته كان مخيفاً وكان الصدى العائد من التنور يبدو تقريباً مثل هرير الذئب. وتجمّدتْ يد والتر الماسكة لعصا الطبل، واعتقد أن الذئاب قد خرجت من مخبئها متوجهة إليه...!

وبالفعل ظهر أمامه من تحت التنور رأسٌ بني أشعث لم يستطع أن يميّزَ ملامحه. فماذا فعل والتر الآن؟ نعم. والتر الشجاع الذي يستطيع أن يواجه أربعة ذئاب بمفرده، ألقى بعصا الطبل من يده، وركض بأقصى سرعته عائداً نحو المطحنة.

ولكن للأسف ولسوء حظ والتر الذئبُ جرى وراءه. نظرَ والتر وراءه للحظة، فرأى الذئب يعدو وراءه بسرعة أكبر منه حتى أصبح على بعد خطوات قليلة منه. فجرى والتر بسرعة أكبر. ولكن الخوف تغلب عليه حتى لم يعد يرى أو يسمع أي شيء. كانَ يركض فوق

جذوع الأشجار المتكسرة والأحجار والحفر، وسقط منه أثناءَ ركضه عصا الطبل والسيف والقوس وبندقية الصيد الهوائية، ولم يلبثْ أن تعثّر وهو يصعدُ فوق رابية يكسوها العشب الأخضر ويسقط أرضاً، تجمّدَ والتر من الخوف الذي يملأ صدره بينما يسمع خطوات الذئب وهو يقترب منه أكثر فأكثر.

ثمَّ قفز كائنٌ ما فوق والتر الذي بدأ بالصراخ من الرعب، ولحسنِ الحظ سمعَ يوحنا أصوات استغاثة والتر لأنه كان قريباً من المطحنة، فأسرع إليه لتقديم يد المساعدة. وقالَ متسائلاً: «ماذا حدث؟ ولماذا يصرخ والتر بهذا الشكل المخيف والمرعب؟».

فأجاب والتر: «الذئب... الذئب». وكان هذا كل ما استطاع قوله.

وقال يوحنا: «وأين هذا الذئب. إنني لا أرى أيّ ذئب».

وقال والتر وهو يئن بقوة: « انتبه أنه هنا وقد عضّني لحد الموت».

عندها بدأ يوحنا بالضحك. نعم. ضحك حتى كاد يمزّق حزام سرواله المصنوع من الجلد.

حسناً. حسناً هل كان هذا هو الذئب؟ هل كان هذا هو الذئب الذي كان والتر يعتزم أن يُمسكَ بخناقه ويهزّه بقوة ويلقيه عالياً ليسقط على ظهره؟ في الواقع لقد كان الكائن الذي لاحق والتر وقفز عليه هو كارو الكلب، لقد دخلَ كارو إلى التنور وهو يلاحقُ رائحة عظمة من بقايا الكبش، وعندما قرعَ والتر الطبل، خرج كارو من التنور، ولكنَّ والتر الذي كان خائفاً لم يستطع تمييز صاحبه كارو وظنّه الذئب. وعندما بدأ والتر في الجري بأقصى سرعته عائداً للمطحنة، كان من الطبيعي أن يركضَ وراءه كما كان يفعل دائماً عندما كان والتر يريد أن يلهو ويمرح.

وقال يوحنا لكارو: «اجلس يا كارو! يجب أن تخجلَ من نفسك لأنك أجبرتَ مثل هذا البطل الكبير على الهرب».

نهض والتر وهو يشعرُ بحرجٍ وغيظٍ شديدين.

وقال لكارو وهو يشعرُ بالراحة وبالغضب في الوقت نفسه: «اجلس على الأرض يا كارو».

وأضافَ: «لقد كان مجرّدَ كلبٍ ليسَ إلا ولو كان ذئباً لكنتُ قد قتلته بكل تأكيد».

وقال يوحنا لوالتر مهوّناً عليه: «كم كنتُ أتمنّى لو أنك استمعتَ إلى نصيحتي، وتباهيتَ بشكل أقلّ وعملت بشكل أكثر».

وقال والتر: «سترى يا يوحنا في المرة القادمة عندما نقابلُ الدبَّ كيف أنني سأتعاملُ معه بشكلٍ أفضلَ من الذئاب».

وقال يوحنا وهو يضحك: «نعم هذا صحيح. ها قد عدتَ الآن يا والتر لغيّك القديم؟ وتذكرْ دائماً يا صديقي والتر أن الجبناء هم فقط الذين يتفاخرون أمام الآخرين بالشجاعة والإقدام، وهم بكل تأكيد ليسوا كذلك. الرجل الشجاع حقاً هو الذي لا يتحدث أبداً أمام الآخرين عن شجاعته»(*).

* * *

(*) المصدر: آندرو لانغ - فنلندا.

صاحبُ الملابس

الرثّة والأسمال البالية

هل الزواج قسمة ونصيب أم قرار واختيار؟

تأليف: آن ماكدونل

كان الملكُ يحتضر على فراشِ الموت، ويحيطُ به بعضُ أفراد الحاشية. كان وجهه يشي بالقلق والوهن. فطلبَ على الفورِ رؤية ابنه، وعندما حضر الابن قالَ له بصوتٍ هادئ مفعم بالثقة والأمل: «يا بني. ستصبحُ قريباً ملكاً على البلاد من بعدي. وأعلم أنه لا يوجد لشقيقاتك الثلاث من راعٍ ومعينٍ سواك.

«وعندما يحين وقتُ زواجهن، لا تقمْ بالبحث عن كبار الأمراء في العالم ليكونوا أزواجاً لهن. إنكَ تعرف بلا شكٍّ شجرة الزهور البيضاء الموجودة في حديقة القصر التي تعطي زهوراً جميلة وعطرة على مدار العام. اقطف منها زهرة واحدة وألقها في وسط الطريق. وسيكونُ أول من يلتقط هذه الزهرة زوجاً لشقيقتك الكبرى، وقمْ بالشيء نفسه في اليومين التالين لأجل شقيقتيك الأُخريين».

كانتْ تلكَ الرغبة الأخيرة للملك قبلَ أن يفارق الحياة، وكان ابنه مطيعاً له، ولذلك عندما بلغت الشقيقة الكبرى سن الزواج وأصبحتْ أميرة جميلة، قال مستشارو البلاط الملكي إن الوقت قد حان لكي تتزوج، فأعلمها الأمير الشاب بوصيّة والدها. فقالتْ على الفور: «أفضّلُ في هذه الحالة ألّا أتزوجَ على الإطلاق». ولكن المستشارين في البلاط الملكي أصرّوا على أنه يجب عليها أن تتزوج كما أوصى أبوها. وهكذا قطف الأميرُ الشاب في أحد الأيام الزهرة وألقاها في وسط الطريق، وطلبَ من الحراس عند باب القصر أن يراقبوا من سيلتقط الزهرة من مكانها، وأن يرسلوه إلى داخل القصر ليمثلَ أمامَ الملك في

البلاط الملكيّ. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى ظهرَ شابّ وسيمٌ من النبلاء يسير على طول الطريق وهو يرتدي الملابس الفاخرة ويتقلّدُ سيفاً مرصّعاً بالجواهر، وتبدو عليه إمارات الفروسية والمرح. شاهدَ الزهرة ملقاة في وسط الطريق فالتقطها ودسّها في قبعته المخملية.

اقترب منه أحد الحراس وهو يقول: «الملكُ يريد أن يتحدث معك. تعال معي». دخلَ الشاب القصرَ وهو يشعرُ بالقلق والترقب، وانحنى أمام الملك الشاب الذي قالَ له: «لقد جرى اختيارك لتكون زوجاً لشقيقتي الكبرى». وانحنى الشاب لدى سماعه ذلك أكثر فأكثر أمام الملك وهو يشعر بعظيم الفرح. ولكن الأميرة قالتْ في تذمّرٍ واضح وبصوت منخفض: «يجبُ عليّ أن أتزوج ملكاً أو أميراً على الأقل». ولكن شقيقها الملك كان قد أعطى موافقته على الزواج. ومع مرور الزمن كانت تهوّن الأمرَ على نفسها بالقول عن زوجها المقبل: «حسناً. إنه على الأقل شابّ وسيمٌ وشجاعٌ ومرحٌ أيضاً. وكان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك بكثير». وهكذا تزوجت في النهاية هذا الشاب.

وبعد مرور بعض الوقت حلَّ موعدُ زواج الأميرة الوسطى. وكانت مثل شقيقتها غير راضية على القبول بأول قادم يلتقط الزهرة من وسط الطريق، ولكن شقيقها الملك ذكّرها برفقٍ ولينٍ بأمر والدهم قبل وفاته. وهكذا قطف الملك زهرة وألقاها خارجاً في وسط الطريق، وطلبَ من الحراس أن يراقبوا من يلتقط الزهرة. وشيئاً فشيئاً ظهر من بعيد تاجرٌ غني يسيرُ على طول الطريق.

كانتْ ملامحه تدلُّ على الرزانة والجدّية والشجاعة والصلابة والوقار. رأى الزهرة ونظرَ إليها ملياً وبدا وكأنه مندهش بعض الشيء من أن تُرمى مثل هذه الأشياء الجميلة على قارعة الطريق. فالتقطها، وتوقّفَ لبعض الوقت ريثما يتمكّن من وضعها بدقّة في ثقب زرِّ صدريته الفاخرة.

اقترب منه أحد الحراس وهو يقول: «الملك يريد أن يتحدث معك. تعال معي».

فأجابه على الفور: «إنه شرفٌ كبيرٌ لي حقاً أن أَمْثُلَ أمام جلالة الملك. وسأُلبي طلبه على الفور». وهكذا دخل التاجر القصر، وسمعَ عرضَ الملكِ عليه بالزواج من شقيقته الوسطى. فقالَ الرجل معترضاً:

«ولكني لستُ حتّى من النبلاء. ومن المؤكّد أن الأميرة يجب أن تتزوج رجلاً أرفع مقاماً مني».

فقال الملك: «ولكن هذه هي وصيّة والدها قبل وفاته». ولذلك فإن هذا الأمر يعدُّ محسوماً ولا رجعة عنه.

أبدت الأميرة في البدء بعض التذمّر لتزويجها لتاجرٍ، ولكنها أخذتْ تهوّن الأمر على نفسها بالقول: «إنه على الأقل غني وصادق وليس سيّء المظهر أبداً. وكان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك بكثير». وهكذا تزوجت الأميرة الثانية من التاجر، وذهبت معه إلى بيتها الجديد.

وأخيراً حل موعد زواج جانيت الأميرة الصغرى، وقطف الملك كالمعتاد الزهرة وألقاها في وسط الطريق كما فعل مع الأميرتين الكبرى والوسطى، وطلبَ من الحراس أن يراقبوا من يلتقط الزهرة وإرساله إلى داخل القصر. ولكنَّ الذي حدثَ هذه المرة أن جاء من بعيد سَقّاء رثُّ الثياب فقيرُ الهيئة ينوء بحمل قربة الماء الجلدية على ظهره لتوصيلها لعامة الناس مقابل دريهمات قليلة. كان من المؤكد أنه رجلٌ فقيرٌ وضيعُ النسب تفوحُ منه رائحة الطرقات. رأى الزهرة فالتقطها ووضعها بين شفتيه.

اقترب منه أحد الحراس وهو يقول له: «الملك يريد أن يتحدث معك. تعال معي».

نظر السَقَّاء إلى الملابس الرثة والأسمال البالية التي يرتديها وإلى نعليه المهترئين وهو يشعرُ بالحزن الشديد على حاله. كيف يُمكنُ له أن يَمثلَ أمام الملك وهو على هذه الحالة المزرية.

وبينما هو على هذا الحال، سمع فجأة صوت الملك يأمره بالدخول، فصعد درجات الرخام بهدوء ودخلَ القاعة الملكيّة.

فقالَ الملك وهو ينظر إليه في ازدراء: «أأنت من التقط الزهرة؟».

فأجاب السَقَّاء: «نعم يا سيدي. ولكن من فضلك يا سيدي لم أكن أقصد بذلك أن أوذي أحداً».

وقال الملك: «إذنْ في هذه الحالة يجب عليك أن تتزوج الأميرة الصغرى جولييت».

فأجاب السَقَّاء: «ماذا قلت؟ لا بدَّ أنك تستهزئ بي يا سيدي».

وقال الملك: «لا أبداً. أبداً». ووضَّح المسألة للسَقَّاء وأخبره بوصيّة الملك الراحل التي يجب أن تُنفَّذَ في كل الأحوال.

«ولكني يا جلالة الملك، وكما ترى، رجلٌ فقيرٌ إلى حد البؤس، ومصابٌ بعاهة جسدية في قدمي اليسرى. كما أنني دميمُ الوجه ولا يُمكن بأي حال من الأحوال أن أكونَ مناسباً للأميرة. هذا مستحيل يا جلالة الملك».

تنهّدَ الملكُ الشاب طويلاً قبل أن يقول: «كم كنتُ أتمنى ذلك. ولكن لا مناصَ من طاعة وصية الملك الراحل».

وقال السَقَّاء الفقير: «أنا رجلٌ فقيرٌ لدرجة البؤس ولا أكاد أستطيع أن أؤمّنَ قوتَ يومي. ولكن حسناً. إذا كان ولا بد من ذلك، فلا ترسلوا معها أي صِداقٍ للزواج لأن ذلك سيجعلُ الأمر أكثر سوءاً بالنسبة لها".

شعرت الأميرة الصغيرة بالحزنِ الشديدِ حتّى كادَ ينفطر قلبها. وأخذتْ تندبُ حظّها وتبكي كما لم تبكِ من قبل. وبكى معها شقيقها الملك، وكان حفلُ الزواج بائساً وتعيساً. ولكن لم يكن هناك طريقة لتجنّبِ ذلك. وهكذا غادرت الأميرة الصغرى القصر وتوجهّتْ نحو كوخ السَقَّا الرثّ والمتهالك على سفح تلة في أقصى المدينة.

وكان الناس على طول الطريق يقولون بأصوات مرتفعة، وهم يشيرون بأيديهم نحو سقاء الماء وزوجته الأميرة: «انظروا. هذه هي الأميرة مع صاحب الملابس الرثّة والأسمال البالية». وهكذا وصلت الأميرة أخيراً إلى منزلها البائس لتعيشَ مع زوجها الجديد صاحب الملابس الرثّة والأسمال البالية، ومع أمه العجوز الشمطاء.

وقالت المرأة العجوز: «هذا المكان غير مناسب للملابس الفاخرة». ودفعتْ لجولييت بثيابٍ خشنة لتلبسها. وبحذاءٍ خشبي، وجعلتها تقومُ بجميع أعمال المنزل اليومية من تنظيفٍ وغسيلٍ وطهي الطعام وصنعِ الخبز ورتقِ الثياب، إضافة إلى الاعتناء بقدمِ زوجها العرجاء، وكان في البيتِ فقط خشنُ الطعام وحتى القليل منه وكان لا يكاد يكفي الجميع.

وكانت جولييت المسكينة تبكي وتبكي كلَّ يوم ولم تجدْ ما يواسيها في محنتها هذه. وكان زوجها صاحب الملابس الرثّة والأسمال البالية، الذي لم يكن يريدُ منذ البداية أن يكون لديه مثل هذه الزوجة الرائعة جداً، يشعرُ بالإشفاق على حالها. ولكن ماذا يستطيع أن يفعلَ لإرضائها؟ وكان الوقت الوحيد الذي

كانتْ فيه جولييت تشعرُ فيه بالسعادة هو عندما تكون نائمة، وترى أحلاماً سعيدة وجميلة.

وفي إحدى الليالي شاهدتْ في المنام أنها في قصرٍ كبيرٍ واسعٍ ودافئٍ والأنوار تشعُّ في كل مكان. وكانتْ ترتدي الملابس الجميلة وتضعُ المجوهرات على رأسها للزينة، وأمامها طاولات كبيرة يتوزع عليها أطباق طعامٍ مختلفة ساخنة وشهية. وبأنها تجلس على الطاولة مع عددٍ من أصدقائها الذين كانوا يرتدون ملابس جميلة مثلها، وكان الجميع يشعرون بالسعادة لوجودهم معاً.

وعندما استيقظت جولييت، أخذت تقصُّ على زوجها كل ما رأته في المنام. اكتفى زوجها صاحب الملابس الرثّة والأسمال البالية بهزّ رأسه وهو يقول: «الأحلام يا زوجتي تبقى مجرد أحلام. وليس من المفيد أن تفكري بها مرة أخرى».

وقالت العجوز لجولييت: «استيقظي أيتها النائمة. حان وقت الاستيقاظ من النوم وإشعال النار في الموقد».

وبعد انقضاء أسابيع أخرى قليلة عاودتها الأحلام نفسها. وكان من الطبيعي أن تُحدِّثَ زوجها بها عند الصباح.

وقال لها زوجها: «من الأفضل أن تنسي كل شيء حولَ هذه الأحلام. إنها تجعلُ حياتك صعبة هنا».

وقالت لها المرأة العجوز: «تعوّدي أيتها الفتاة على العيش في عالم واقعي. هاكِ وعاء الغسيل. هيا قومي وابدئي العمل على الفور».

في تلك الليلة وجدت جولييت نفسها تسير في الحلم نفسه مرة أخرى في هذا القصر الجميل يحيطُ بها الخدم والأتباع، وهي تلبسُ الملابس المزيّنة بالمجوهرات. وكانت المأدبة الملكية كالعادة رائعة وغنيّة بجميع أنواع الطعام. وكانت الزهور متناثرة في أماكن عدة وتفوحُ منها الروائح الجميلة، والفرقة الموسيقية تصدحُ بأجمل وأعذب الألحان. ولكن بينما كانوا يغادرون الطاولة نظر أحدهم إلى أعلى السقف الذهبي.

وكان هناك في الفتحة الموجودة في وسطه رجلٌ صغير الحجم يحدّقُ في الحضور من الأعلى، وقال أحد الحضور بصوت مرتفع: «انظروا! انظروا. ها هو هناك صاحب الملابس الرثّة والأسمال البالية». وفجأة توقّف الحلم واستيقظت الأميرة، وجلستْ على سريرها بالقرب من موقد التدفئة في الكوخ على التل، مرتدية ثياب النوم القديمة.

واشتكت لزوجها كلَّ الأشياء الجميلة التي افتقدتها وتركتها وراءها في القصر. شعرَ الزوجُ بالأسف الشديد لحالها من كل قلبه وقالَ لها: «لا نستطيعُ يا زوجتي أن نغيّرَ من واقع الحال شيئاً. علينا أن نتعلّم من دروس الماضي، ونحاول الاستفادة منها في المستقبل بقدر ما نستطيع».

وكانت الأميرة جولييت تبكي كل يوم وهي تندب حظّها العاثر. وفي إحدى الليالي عاودتها الأحلام الجميلة نفسها في القصر مرة أخرى، ولكنَّ الحلم انتهى بمجرد أن شاهدت هي والبقية صاحب الملابس الرثّة والأسمال البالية في فتحة السقف، وأخذوا ينادون عليه باسمه.

وفي حلم الليلة التالية وجدتْ نفسها تسير في القصر وهي ترتدي الثياب الفاخرة ويحيطُ بها الخدم والأتباع. كانت المأدبة الملكية هذه المرّة رائعة أكثر مما سبقها ولدرجة كبيرة. ولكن في هذه المرة وقبلَ أن تجلسَ على الكرسي المخصص لها، وقفت جولييت لتخاطبَ الضيوف المجتمعين وقالت: «استمتعوا بوقتكم يا أصدقائي. هناك شيء واحد فقط ممنوع. لا أريد أيّاً منكم أن ينطقَ باسم، وخفضت صوتها هنا لدرجة الهمس، صاحب الملابس الرثّة والأسمال البالية».

وجلسَ الجميع على الطاولة، وشربوا وأكلوا وتسامروا على أنغام موسيقا ساحرة كانت تصدحُ في كلِّ مكان. وفجأة نظر أحد المدعوين إلى أعلى السقف الذهبي ليجد مرة ثانية صاحب الملابس الرثّة والأسمال البالية يحدّقُ في جميع المدعوين من الأعلى، وكان يوشك أن ينطقَ باسمه ولكنّه تمكّنَ من أن يلجمَ نفسه في آخر دقيقة. ونظرت الأميرة نفسها إلى أعلى السقف، ورأت زوجها في الفتحة. وفجأة دخل في قلبها شعاعٌ من المحبّة والعطف أنارَ جوانب قلبها.

وقالتْ في نفسها: «يا لك من رجل مسكين. يا لك من صديق وفيّ. كم مرة أدخلتُ إلى قلبكَ الحزنَ والغمَّ وأنا أشكي إليك سوء حالتي. كم أتمنى أن تتمكّنَ يا صاحبَ الملابس الرثّة والأسمال البالية من النزول إلينا لنستمتع بوجودك معنا وسط كل المدعوين».

وبعد ذلك، هل اختفت الأنوار والموسيقا والزهور والضيوف والقصر وكلُّ شيء كما حدث في الأحلام السابقة؟ لا أبداً. ففي نهاية المأدبة الملكية ظهر في القاعة عرشان ملكيّان مصنوعان من الذهب جلس على أحدهما أميرٌ شاب وسيمٌ يرتدي الملابس المخملية المزيّنة بالمجوهرات. وكان شعره يلمع مثلَ الشمس

وعيناه زرقاوين بلون الياقوت الأزرق، وأدخلت ابتسامته البهجة على قلوب الجميع.

وبينما كانوا يقفون في دهشة وحيرة، وقفَ الأمير الشاب وقال: «أهلاً بضيوفي الأعزاء. لقد استضافتكم زوجتي بكلِّ ما يلزمُ لإدخال السعادة والبهجة إلى قلوبكم خلال فترة غيابي. وآمل أن تستمروا في الاستمتاع بهذه الدعوة الآن بعد عودتي». وتقدّم ليمسك بيد الأميرة جولييت ويسير نحو العرش ويدعوها للجلوس إلى جانبه. ومن ثم رقصا وغنّيا معاً، وكانا في غاية السعادة.

وفجأة استيقظت الأميرة، ولكنّها لم ترَ أمامها زوجها صاحب الملابس الرثّة والأسمال البالية، بل رأت الأمير الوسيم التي شاهدته في المنام، وكان ينظرُ إليها بسعادة وحبٍّ شديدين. وعندما سألته أينَ زوجي صاحبُ الملابس الرثّة والأسمال البالية، قال لها: «أنا هو، أو بالأحرى كنتُ هو، دعيني أشرح لكِ الموضوع».

وقالَ لها إن اسمه الحقيقي هو الأمير فلوريو ابن ملك البرتغال، وقد أصابته تعويذة ساحرة شريرة أرادتْ أن تنتقمَ من ملكِ البرتغال الذي طردها من مملكته، وحوّلته إلى شخصٍ ذي مظهرٍ مرعبٍ

وكريه يظهرُ فقط بملابس رثّة وأسمال بالية. وكانت الطريقة الوحيدة لإبطال سحرها هو أن تحبّه حسناء مثل الأميرة جولييت، وأن ترضى بالعيش معه بهذه الحالة المتواضعة، وهي ترتدي في الوقت نفسه الملابسَ الأنيقة والفاخرة. وقد تمكنّت جولييت من إبطال مفعول التعويذة عندما نظرتْ إليه في المنام بحبٍّ وهي في أوج روعتها وهو يظهرُ في ملابس رثّة وأسمال بالية.

الآن وماذا عن أمه العجوز؟ في الواقع لم تكنْ هي أمه الحقيقة بل كانتْ هي نفسها الساحرة الشريرة التي طردها الملك. وقد هربتْ بمجرّدِ زوال التعويذة عن الأمير.

وهكذا، غادر الأمير والأميرة عائدين إلى البرتغال، وعاشا هناكَ بقية حياتهما سعيدين(*).

* * *

(*) **المصدر:** آن ماكدونل - إيطاليا.

حورية في ساعة وقواق

أول ساعة تدق أجراسها في التاريخ

تأليف: وليم إيليوت غريفز

ملكة الحوريات وهي ترفع ساعة الوقواق

أمام ناظري سوفت بادنغ في المنام.

يُعدّ البشر بشكل عام بالنسبة لمعظم الحوريات مخلوقات غبية جداً. وفي عالم الخيال، تعدّ أيضاً سمعة البشر، بوصفهم مخلوقات مملة وبطيئة في الفهم، تقليداً ثابتاً.

وقبل القيام بشيء جديد، يجب على الرجال والنساء التفكير فيه. وهم عادة ما يتحدثون كثيراً عن العلاقة الجدلية بين «السبب والنتيجة»؛ بينما الأمر مخلف تماماً بالنسبة للحوريات، إذ لا توجد أسباب، ولكن مجرد أشياء وأحداث تحدث فقط. وإذا لم تحدث هذه الأشياء من تلقاء نفسها، فإن الحوريات تصنعها هي بنفسها. وبالطبع هناك في بعض الحالات أشياء لا يُمكن تغييرها مثل الشمس والقمر والأرض والسماء، والصيف والشتاء. ومع ذلك، يُمكن للحوريات أن تقوم بالكثير من العجائب التي تفاجئ الرجال. كما يُمكنهم لعب الحيل التي تحيرهم بشكل يفوق التصور.

وقبل مئة عام تقريباً، وقبل أيام السياح، وهواية تسلق الجبال، والفنادق وقاطرات السكك الحديدية الكهربائية وغيرها من المستجدات الحمقاء، كان الحراس وجميع أهل القرية يؤمنون بالحوريات وبقدرتهنّ على القيام بكل شيء تقريباً. وكانوا يشعرون على وجه اليقين بوجود العمالقة والأقزام، والجان والتنين تماماً

مثل أهل القرية اليوم الذين لم يروا المخلوقات التي انقرضت على مر التاريخ مثل طائر الدودو، أو الزاحف المجنح، أو أوروخ، أو الحصان ذي خمس قوائم، التي يعتقدون أنها كانت موجودة بكثرة على الأرض في غابر الزمن.

في الواقع، كان هناك وقت، عندما لم يكن لدى الرجال ساعات جدارية أو ساعات يد، ولم تكن الفتيات يحملن في خصرهن ما هو عليه اليوم من ساعات مصنوعة من الذهب أو النيكل الجميل. كما أن الأجراس الكبيرة في الأبراج لم تكن تقرع معلنة قدوم رأس الساعة طوال اليوم، ولم يُشاهد ميناء أو عقارب الساعة الضخمة في النهار أو في الليل.

وفي قلاع سويسرا حيث يعيش الرجال الأثرياء أو النبلاء، لم يعرف هؤلاء شيئاً عن تحديد الوقت بالساعة والدقائق بأي طريقة كانت مثل سطح مستدير وعليه أرقام أو أشكال مختلفة. وكانت إحدى الطرق للإعلان عن الوقت هو باستخدام شمعة، بها كرتان صغيرتان من النحاس الأصفر على جوانب متقابلة من الشمعة مربوطتان معاً بخيط. وعندما تحرق شعلة الشمعة، على سبيل المثال، بوصة واحدة، أو أي مساحة أخرى مَقيسة،

تسقط الكرات في حوض نحاسي محدثة ضجيجاً عالياً ورنيناً يدل على الوقت. أو، عندما تضرب مطرقة صغيرة جرساً من النحاس، وهذا هو السبب في أن الساعة، كما كان اسمها في البداية، كانت تسمى كلوك (كلمة هولندية تعني جرس) أو الجرس.

وفي السفن، كانت الأجراس تقرع على رأس كل ساعة ونصف الساعة، ولا تزال هذه هي الطريقة التي اعتادها البحارة. «ثمانية أجراس» تشير إلى نهاية واحدة من الفترات الثلاث التي يبلغ طول كل منها أربع ساعات، والتي قُسِّم اليوم عليها. كان بإمكان الحوريات دائماً معرفة الوقت، مثل معرفة الرجال من خلال الشمس، لكنهم كانوا مهتمين أكثر بالقمر والنجوم لأن الليل كان بالنسبة لهم وقت الفرح. ولم يكن لدى عامة الناس كلمة متداولة للإشارة إلى الدقيقة أو الثانية أو أي شيء أقل من ساعة. كانوا يعرفون متى تشرق الشمس وتغرب، ويخمنون الوقت في النهار من مكان الشمس في السماء - جهة الشرق عندما تشرق في الصباح، وأثناء فترة ما بعد الظهر، وجهة الغرب عند حلول المساء.

وبعد تألق بريق جبال الألب، أو الضوء الوردي الذي يغمر الجبال مثل خدود العذارى، تخرج الحوريات للرقص فوق المروج

الخضراء. كانوا دائماً يبتعدون ويختفون عند شروق الشمس، لأن الحوريات الراقصة ستتحول إلى حجر إذا ضربتهن أشعة الشمس. وكان الأمر أسوأ بالنسبة لهن منه بالنسبة للبشر، الذين، حتى وسط الجليد والثلج، عندما يتسلقون الجبال العالية، قد يصابون بضربة الشمس ويموتون. عائلة واحدة من الزهور أطلقوا عليها اسم الساعة الرابعة ولكن شيئاً فشيئاً تعلم الناس أنه يُمكنهم وضع وتدين في خط شمال وجنوب، وسوف يلامس خط الظل أحد هذين الوتدين. واتفقوا على تسميه ذلك الوقت بالساعة الثانية عشرة أو الظهر.

كما لاحظ كبار السن أن الشمس تبقى في السماء مدّةً طويلة خلال أيام الصيف، وخلال فصل الشتاء البارد تكون ظلال الشمس قصيرة. وهكذا تمكنوا من عد الأيام التي تسبق تفتح الأزهار في فصل الربيع. عندها ستسمع صوت موسيقا اليودل الشعبية، وتدافع الأبقار للرعي في الجبال العالية. ومن ظل الشمس هذا عند الظهيرة، حصل الناس على فكرة المزولة الشمسية (المشتق اسمها من الزوال). ووضعوا قرصاً دائرياً، أو صفيحة مصنوعة من النحاس الصافي أو من سبيكة من النحاس المزوج بمعادن

أخرى، على حجر أو عمود، كما وضعوا وتداً معدنياً على أحد جوانبه، ولاحظوا أن ظل الشمس يدور حول الوتد في شكل دائرة. فحدّدوا الساعات في الفراغات، وسرعان ما أصبح من المألوف أن يكون هناك ساعات شمسية في الحدائق.

ومع ذلك، كانت الحوريات تضحك طوال الوقت على البشر لأنهم، حسب ظنهم، إذا استطاعوا العيش على الأرض، خلال ساعات الشمس المشرقة، فسيكونون قادرين على معرفة الوقت في اليوم من الزهور ومن موقع الشمس في السماء. ولذلك، من أجل المتعة فقط، كانوا كلما لاحظوا ساعة شمسية جديدة، من النحاس أو الحجر، موضوعة في حديقة، أمسكوا بالكرة بثبات ورقصوا حولها طوال الليل.

وفي بعض الأحيان كانوا يذهبون إلى الكنيسة عندما لا يكون هناك أحد، وكانوا يمشون ويمارسون الرياضة حول الساعة الزجاجية الموضوعة على منبر الوعظ. وأصبحت الحوريات في النهاية واثقين تماماً وبشكل نهائي من الغباء المطلق لبعض البشر عندما اجتمعوا ذات ليلة لرقصة مرح حول ساعة شمسية جديدة

وُضعت في ذلك اليوم في حديقة يملكها رجل عجوز اشتهر من قبل جيرانه أنه رجل حكيم للغاية.

اضطرت الحوريات إلى تغير خطتهن للعب ليلتها على أنغام أغنية حزينة قديمة تُغنى للأطفال في دور الحضانة تعود لأيام انتشار الطاعون في لندن، عندما رأى حارسهم الذي كان مكلفاً بالمراقبة مشهداً غريباً، فأطلق إنذاراً بصوت عالٍ. الآن هذا الرجل العجوز المضحك كان اسمه، إذا تمت ترجمته حرفياً إلى الإنكليزية، فسيكون «حلوى طرية/طيبة». كان شاباً طيب القلب يحب الطيور وحيواناته الأليفة والأطفال، لكنه كان شخصاً غريب الأطوار شارد الذهن في معظم الأوقات. فلم يكن يتذكر أبداً مكان قبعته، فكان عندما يخرج من البيت تربط زوجته قبعته بخيط بفتحة زره، كما كانت تربط قفازات الأطفال الصغار بشريط لاصق على أكتافهم. ومع ذلك، كان أباً رائعاً، وقد أحبه كثيراً جميع الصغار.

دفع السيد سوفت بودينغ ثمن الساعة الشمسية الجديدة بكل سرور. وأصبح يشعر بسعادة غامرة لفكرة معرفته للوقت بمقدار طول الظل على ميناء الساعة، لدرجة أنه تحدث عنها

لساعات. في الواقع، كان مستغرقاً في ذلك، لدرجة أنه نسي كل شيء عن الشمس وضرورة إشراقها، أو أن ضوء النهار كان ضرورياً بالمطلق لاستمتاعه بالساعة الشمسية الجديدة عند النظر إليها، وفي إحدى ليالي الخريف الباردة، ارتدى العجوز سوفت بودنغ عباءته، وأضاء فانوسه، وخرج إلى الحديقة ليرى ما هو الوقت! إنه أحمق بلا شك، فقد وجد أنه عندما كان يغير موضع الفانوس، فإن أشعته تلقي بظلال جديدة في كل مرة بدلاً من إظهار وقت واحد، وبدا الأمر كما لو كان هناك عدة أوقات مختلفة يحددها الوتد في منتصف ميناء الساعة، وكأن كل شيء في الساعة أصبح لا يعمل كما يجب. ثم ولأول مرة، فكر في أن الساعات الشمسية مخصصة للاستخدام أثناء النهار فقط. وقال بصوت مملوء بالأسى وهو يعود أدراجه إلى داخل البيت: «من كان يظن ذلك؟». كان يأمل ألا تعرف زوجته سبب خروجه من البيت ليلاً وتضحك عليه.

لكنه لم يخبرها، واعتقدت هي أنه خرج لرعاية الأبقار. لكن الحوريات كانت غاضبة وفي مزاج سيئ، لأن هذا المتطفل طردهم بعيداً عن حفلة سمرهم. لقد سخروا من غبائه، لكن

استياءهم كان واضحاً للعيان. «ربما كان لديه رأس خشبي لا يفقه شيئاً، أو رأس مصنوع من نبات الكوسا».

وقالت حورية إلى أخرى «هذا يظهر فقط كم هم حمقى هؤلاء البشر». وقالت حورية عجوز كانت مشهورة باختراعاتها لدى الجميع: «أوه، لا تغضبوا ولا تسخروا منه. وعلى الرغم من كونه غبياً، كان وزوجته دائماً لطفيين معنا. اتركوه لي. سأضع فكرة أخرى في رأسه. وسأعلمه من أجل أهل القرية كيف يقلب الساعة رأساً على عقب، ويدير ميناءَها للخارج، ويضع يديه وأصابعه على الميناء مع وجود عجلات بالداخل وأوزان تحتها. ثم بعد ذلك، يُمكنه دائماً أن يفعل ما كان يتوقعه هذا المساء من معرفة الوقت في الليل والنهار. كما سأجعل هذا الاختراع الجديد يغني بحيث لم يعد من الممكن أن يُطلق على الساعة اسم الجرس ليعلن الأوقات بالساعات بعدد الضربات على الجرس. سأضع طائراً في الداخل ليخرج مغرداً عوضاً عن ذلك ويعلن الوقت».

ولذلك استشارت ملكة الحوريات البومة أحكم الطيور والعادلة أيضاً مثل القاضي الذي يعامل الجميع بسواسية ولا يفضل أحد على أحد آخر. قررت البومة أن اختيار طائر الوقواق سيكون

الأنسب والأفضل بسبب جمال ريشة وعذوبة صوته، ويمكن الاعتماد عليه بشكل أكبر دائماً للخروج، ورفرفة جناحيه، وزقزقة الأرقام المناسبة للساعات. فوجئت ملكة الحوريات، وقالت: «كيف يُمكنك يا سيدي القاضي ترشيح طائر سيئ الخلق؟ الوقواق طائر قرصان. ألا تضع بيضها في أعشاش الطيور الأخرى؟ كما أنه، إضافة إلى سرقة أعشاش الطيور الأخرى، يرمي بيض أصحابها الشرعيين خارج العش، وبسبب هذا السرقة، تموت العصافير».

فقالت البومة: «صحيح، لقد فكرت في هذا في الواقع، لكن الوقواق طائر صيفي، يأكل يرقات الفراشات المكسوة بالشعر التي لا تلمسها الطيور الأخرى. وبهذه الطريقة، تساعد الأشجار على النمو والثمار على النضج، بحيث يكون لدى الناس مكان نظيف لتلعب فيه الحوريات. إضافة إلى ذلك، في موسم الزواج والتكاثر، كما تعلم، تكون ذلك رسالة حب من ذكر الطائر، وهذا يبدو جميلاً جداً ولطيفاً في أشهر نيسان وأيار وحزيران مع أغنية، «كوكوكو كوكوكو» التي نحب جميعاً سماعها».

فكرت ملكة الحوريات في هذه الإجابة المقنعة. لقد تأثرت بالفعل بحكمة البومة، وإلى جانب ذلك، أرادت أن تحب الحوريات

بعضها البعض. ولذلك انتهى بها الأمر إلى دعوة طائر الوقواق الذكر ليكون نموذجها المفضل والمختار للساعة الجديدة التي كان من المفترض أن تجعل سويسرا غنية ومشهورة. وبالتأكيد، ستكون مثل هذه الساعات مطلوبة في جميع أنحاء العالم. ونظراً لكون الأرض غنية بأشجار الجوز، لم تكن هناك مشكلة في الحصول على الكثير من الخشب، الداكن والجميل، ليتم صنع صندوق الساعات منها.

ولذلك، عندما ظهرت ملكة الحوريات في منام «الحلوى الطيبة» العجوز، قالت له: «على الرغم من أننا ضحكنا عليك كثيراً عندما رأيناك تخرج من منزلك في الليل، ومعك فانوس، لتعرف الوقت في الساعة الشمسية، وأدى ذلك من ثمَّ إلى تفرقنا وفساد حفلتنا في تلك الليلة، ولكن نظراً لأنك كنت دائماً لطيفاً جداً مع الطيور، وتحب الحوريات والأطفال، سأريك كيفية صنع نوع جديد من الساعات. ولن يقتصر الأمر على تحديد الساعات على الميناء بدون مساعدة الشمس، بل سيخرج طائر الوقواق على رأس كل ساعة، ليرفرف بجناحيه ببهجة. ثم سيقول هذا الطائر الخشبي «كوكوكو. كوكوكو»، كما لو أنه كان طائراً حياً بريش ولحم وهو يتواصل مع رفيقته. ألا تعتقد أنت شخصياً أن العاطفة

التي يبديها هذ الطائر المحبوب، على النحو الذي ذكرناه، ستزيد من المودة المتبادلة في منزلك وتضيء كل منزل سويسري، والعديد من المنازل فيما وراء البحار؟».

فقال سوفت بادنغ العجوز: «أنا واثق تماماً من أنها ستفعل ذلك». ثم رفعت ملكة الحوريات أمام ناظريه ساعة الوقواق الجميلة المصنوعة من الجوز الأسود، مع عقارب الساعة والأشكال المحفورة على الميناء من خشب شجرة البتولا البيضاء. وعندما استيقظ في الصباح من نومه، بسط العجوز يديه لتلقي الهدية، ولكن كان ضوء النهار يعم أرجاء الغرفة، وبالطبع كانت الحورية قد اختفت.

كان الضوء الساطع في الغرفة هو ضوء الشمس العادي لكنه كان سعيداً جداً على الرغم من أنه كان يحلم فقط. وشرع على الفور في تحويل الحلم إلى حقيقة من خلال بناء الساعة. وفي غضون أسبوع، كان قد انتهى من صنعها ثم وضعها داخل علبة من خشب الجوز الأسود عليها أشكال عاجية على الميناء.

وبعد عدة محاولات، نجح في صنع الوقواق الخشبي الذي كان يخرج وهو يرفرف بجناحيه ويزقزق عدد الساعات، ثم

يعود ثانية الى داخل الصندوق المغلق، في حين أن ميناء الساعة يشير أيضاً إلى النقطة المناسبة على القرص. ثم أحضر عائلته كلها ذات صباح قبيل اللحظة التي اقترب فيها عقرب الدقائق من النقطة المناسبة على القرص.

وكان أشد ما أدهشهم عندما رأوا أن الأبواب قد فتحت بدون أن يلمس أحد الصندوق الأسود الصغير المثبت على الحائط ويندفع الوقواق إلى الخارج، وهو يرفرف بجناحيه. ويزقزق عشر مرات قبل أن ينحني ويدخل الصندوق مرة أخرى وتنغلق الأبواب الصغيرة. صفق الأطفال بأيديهم وعانقت الأم زوجها بفرح. وبالنسبة للعاج، الذي كان مُكلفاً للغاية، استخدم السيد سوفت بادنغ خشب البتولا الأبيض لصنع عقارب الساعة. ثم أقام مصنعاً وفر للعديد من القرويين فرص عمل جيدة، رجالاً ونساء، أولاداً وبنات. وسرعان ما جمع ثروة من هذا العمل، والآن، لم يعد أحد يلقبه بسوفت بادنغ، وأصبح كل واحد يحيه بلقب الاحترام. وعندما وافته المنية ترك كامل ثروته لأسرته.

وحتى يومنا هذا، ترفرف طيور الوقواق بأجنحتها وهي تحيي قدوم مطلع كل ساعة طوال اليوم في كل بقاع الأرض.

ونظراً لأن الساعة الجدارية الخشبية وطائر الوقواق من اللون الأسود، فإن هذا الوقواق الذي يحسب الوقت، الذي كان يتم ربطه أحياناً بمقياس ضغط الدم أو وضعه في دمية للتنبؤ بالطقس، كان يسمى «غراب المطر». ولكن مع هذه البداية، التي صنعتها ساعة الوقواق، أصبحت سويسرا أرضاً للساعات الجدارية وساعات اليد وصناديق الموسيقا(*).

*   *   *

(*) المصدر: وليم إيليوت غريفز ١٩٢٠ - سويسرا.

المتسولون الثلاثة الظرفاء

نُبُوءَة تحققت بمصادفات غريبة

تأليف: الأخوان غريم

كان هناك في قديم الزمان تاجر يدعى مارك يعيش في بلدة كبيرة، وكان الناس يطلقون عليه اسم «مارك الغني». كان قاسي القلب لأنه لا يتحمل الفقراء وإلحاحهم في طلب الصدقات. وإذا ما لمح أحدهم بالقرب من بيته كان يأمر الخدم بإبعاده على الفور أو يطلق عليه الكلاب لتطرده بعيداً.

وفي يوم من الأيام وقف أمام بابه ثلاثة متسولين فقراء جداً عجائز، وبينما كان التاجر يستعد لإطلاق الكلاب الشرسة عليهم

لإبعادهم، زحفت ابنته الصغيرة، ستانا، إلى القرب منه وقالت: «يا أبي العزيز، دع هؤلاء الفقراء العجائز ينامون عندنا الليلة واعمل على إدخال البهجة والسعادة إلى قلبي».

لم يتمكن الأب من رفض طلب ابنته الصغيرة، وسمح للمتسولين الثلاثة أن يناموا في الطابق العلوي (علّية) من المنزل. وخلال الليل بينما كان الجميع يغط في نوم عميق، صعدت ستانا إلى الدور العلوي واسترقت النظر.

وقف المتسولون الثلاثة في منتصف الطابق العلوي وهم يتكئون على عصيهم ويمسدون لحاهم البيضاء الطويلة، وأخذوا يتحدّث بعضهم إلى بعضٍ ولم يشعروا قط بوجود الطفلة ستانا بالقرب منهم.

وسأل كبيرهم: «هل من أخبار جديدة؟».

فقال الثاني: «لقد رُزق البارحة الفلاح إيفان في القرية المجاورة بولده السابع. فماذا نسميه؟ وماذا نقدم له من عطية بهذه المناسبة؟

وهمس المتسول الثالث: «دعونا نطلق عليه اسم فاسيلي، ونقدم له كل ممتلكات الرجل قاسي القلب الذي ننام في الطابق العلوي من بيته، والذي كان يريد أن يطردنا من بيته».

وبعد أن استمر حديثهم بعضهم مع بعض مدّة أخرى من الوقت استكمل الثلاثة استعداداتهم وتسللوا بهدوء خارج البيت ليذهبوا في طريقهم.

أسرعت ستانا، التي سمعت كل كلمة في حديثهم، مباشرة إلى والدها لتخبره بكل ما جرى في حديث هؤلاء المتسولين الثلاثة.

أصابت الدهشة التاجر مارك وحار ماذا يفعل. وبعد أن أمعن التفكير توجه في الصباح إلى القرية المجاورة يريد أن يعرف إذا كان قد ولد بالفعل هذا الطفل الذي تحدث عنه المتسولون الثلاثة. فذهب أولاً إلى كاهن الكنيسة ليسأل عن المواليد الجدد للأبرشية وإذا كان من بينهم طفل يدعى فاسيلي».

فقال الكاهن: «ولد البارحة طفل سيئ الحظ لأفقر عائلة في القرية. وقد سميته فاسيلي. وهو الولد السابع لهذه الأسرة، والأكبر عمره سبع سنوات فقط، لا يجدون ما يأكلون. من منكم يقبل أن يكون عراباً لمثل هذا الولد المتسول الصغير؟

أخذ قلب التاجر يخفق بسرعة، كما أخذت تساوره الأفكار السيئة حول ذلك الطفل الصغير المسكين. فقال للكاهن إنه يقبل

أن يكون عراباً لهذا الطفل البائس، وأمر بإقامة وليمة فاخرة بهذه المناسبة. وهكذا أُحضر الطفل وعُمَّدَ، وأبدى مارك الكثير من الود والعطف نحو أبويه. وبعد انتهاء الحفل، أخذ التاجر مارك والد الطفل إيفان جانباً وقال:

«انظر هنا يا صديقي، أنت رجل فقير. كيف يُمكنك تحمل تربية الصبي؟ أعطه لي وسوف أربيه وأعلمه لأجعل منه شخصاً مرموقاً بين أقرانه، وسأعطيك مقابل ذلك هدية مقدارها ألف قطعة ذهبية، فما رأيك؟».

أخذ إيفان يحك رأسه مراراً وهو يمعن التفكير في هذا العرض المغري وغير المتوقع. ثم سرعان ما وافق وقبل بالعرض المقدم. عدَّ التاجر مارك ألف درهم من حزمة النقود التي يحملها دائماً في حقيبته الصغيرة وقدمها لإيفان، ولفَّ الطفل فاسيلي في جلد ثعلب، ووضعه بجانبه في مقدمة العربة، وانطلق عائداً إلى بيته.

وبعد مسيرة ساعة، أوقف التاجر مارك العربة على طرف الطريق وحمل الطفل إلى حافة واد شديد الانحدار ووضعه بعيداً عند أسفله وهو يتمتم قائلاً لنفسه: «سنرى الآن كيف ستستطيع أخذ ممتلكاتي!».

بعد ذلك بوقت قصير سافر بعض التجار الأجانب على طول الطريق نفسه في طريقهم لرؤية مارك ودفع اثني عشر ألف قطعة ذهبية مستحقة له. وعندما كانوا يمرون بالقرب من حافة الوادي، سمعوا صوت بكاء، فتوقفوا ليروا مصدر الصوت. فرأوا مرجاً أخضر صغيراً يقع بين كومة كبيرة من الثلج، وكان على هذا المرج طفل يبكي بين الزهور.

حمل التجار الطفل، ولفوه بعناية، وساروا به. وعندما رأوا مارك أخبروه بهذا الشيء الغريب الذي وجدوه. خمّن مارك في الحال أن هذا الطفل يجب أن يكون الولد نفسه الذي وافق على رعايته ودفع لولديه ألف قطعة ذهبية. فطلب منهم رؤيته، وقال:

«هذا طفل صغير ولطيف، أود الاحتفاظ به. وإذا وافقتم على ذلك، فأنتم في حلٍّ من المبلغ المستحق لي لديكم».

كان التجار سعداء للغاية لهذا العرض، وتركوا الطفل مع مارك، وانطلقوا عائدين إلى ديارهم.

وعندما هبط الليل، أخذ مارك الطفل، ووضعه في داخل برميل، ووضع عليه الغطاء بإحكام، وألقى به في البحر. طاف

البرميل على سطح الماء، وأخذت الأمواج والريح تدفعه بعيداً عن الشاطئ لمسافة كبيرة، وفي النهاية وصل بالقرب من دير. كان الرهبان ينشرون شباكهم لتجف على الشاطئ، عندما سمعوا صوت بكاء متواصل يبدو أنه يصدر عن البرميل الذي كان يتمايل بالقرب من حافة الماء. سحبوا البرميل إلى الشاطئ وفتحوه ليجدوا في داخله طفلاً صغيراً يكاد يموت من الجوع والعطش. وعندما سمع رئيس الدير الأخبار، قرر تربية الصبي، وأطلق عليه اسم فاسيلي.

عاش الصبي مع الرهبان، ونشأ ليُصبح شاباً ذكياً ولطيفاً ووسيماً. لا أحد يستطيع أن يقرأ أو يكتب أو يرتل أفضل منه، وكان يقوم بعمل كل شيء بشكل متقن لدرجة أن رئيس الدير جعله حارس خزانة ملابس الرهبان.

الآن، صدف في ذلك الوقت بالذات أن توقف التاجر مارك في هذا الدير أثناء رحلة يقوم بها سنوياً إلى عدة مناطق مجاورة للتجارة والترفيه. كان الرهبان مهذبين للغاية حيث رحبوا بمارك واعدوا له جولة سريعة للتعرف على صوامعهم وكنيستهم. وعندما دخل إلى الكنيسة كانت الجوقة ترتل بأصوات جميلة كان من بينها

صوتاً مميزاً وجميلاً للغاية، فسأل عن صاحب الصوت، فأخبره رئيس الدير عن المصادفة الجميلة التي جاءت به إليهم، وأن اسمه فاسيلي، وأدرك مارك على الفور أن هذا يجب أن يكون ابن إيفان الفقير الذي تبناه وحاول قتله مرتين.

قال التاجر مارك لرئيس الدير: «لا أستطيع أن أخبرك كم استمتعت بغناء هذا الشاب فاسيلي. وإذا كان بإمكانه القدوم معي فسوف أجعله يُشرف على جميع أعمالي التجارية. وكما تقول، فهو شاب جيد جداً وذكي. دعه لي يا سيدي. وسوف أقدم للدير مبلغاً مقداره عشرون ألف قطعة ذهبية مقابل ذلك».

تردد رئيس الدير في قبول مثل صفقة جيدة كهذه، فاستشار جميع الرهبان الآخرين، وقرروا في النهاية أنهم يجب ألّا يقفوا عثرة في طريق الحظ الجيد الذي أخذ يبتسم لفاسيلي.

ثم كتب مارك رسالة إلى زوجته وأعطاها لفاسيلي ليأخذها، وهذا ما كان في الرسالة: «عندما يصل حامل هذه الرسالة، خُذيه إلى مصنع الصابون، وعندما تمري بالقرب من المرجل العظيم، ادفعيه إلى داخله. وإذا لم تطيعي أوامري فسأكون غاضباً جداً

منك، لأن هذا الشاب هو رجل تافه وسيّئ، ومن المؤكد أنه سيدمرنا جميعاً إذا ما بقي على قيد الحياة».

ركب فاسيلي البحر. وكانت رحلته هادئة وجيدة، وعندما وصل الميناء نزل من السفينة وتوجه على الفور سيراً على الأقدام نحو منزل التاجر مارك. وفي الطريق التقى بثلاثة متسولين استوقفوه برهة من الزمن ليسألوه: «إلى أين أنت ذاهب يا فاسيلي؟».

أجاب فاسيلي: «أنا ذاهب إلى منزل التاجر مارك، وأحمل رسالة منه لزوجته».

فقال المتسولون الثلاثة: «أرنا من فضلك الرسالة».

سلمهم فاسيلي الرسالة كما طلبوا. فنفخوا فيها وأعادوها إليه قائلين: «اذهب الآن وأعط الرسالة لزوجة مارك. وأعلم أننا لن نتخلى عنك أبداً».

وصل فاسيلي إلى المنزل وأعطى الرسالة إلى زوجة التاجر مارك. وعندما قرأتها كانت لا تكاد تصدق عيناها ودعت إليها على الفور ابنتها. وفي الرسالة بوضوح تام: «عندما تتلقي هذه الرسالة، استعدي لإقامة حفل زفاف، ودعي حاملها يتزوج

في اليوم التالي ابنتي ستانا. وإذا لم تطيعي ما أمرك به فسوف أغضب منك كثيراً».

نظرت ستانا إلى حامل الرسالة وأسعدها مرآه كثيراً. وفي اليوم التالي ألبسوه أفخر أنواع الثياب وزوجوه ستانا.

ولمّا حان موعد عودة التاجر مارك من رحلته، استعدت زوجته لاستقباله، وخرجت مع ابنته وصهره لاستقباله عند رصيف الميناء وتهنئته بالعودة سالماً. وعندما وقعت عينا التاجر مارك على فاسيلي طار عقله من شدة الغضب، وسألها وهو يكاد يموت من الغيظ: «كيف تجرأت على زواج ابنتي بدون موافقتي؟».

فقالت زوجته وقد اعترتها دهشة كبيرة: «لقد نفذت أوامرك فقط. وهذه هي رسالتك».

قرأ مارك الرسالة. كانت بالتأكيد بخط يده، ولكن ليس فيها بأي حال من الأحوال رغباته.

وقال التاجر مارك: «لا بأس. لقد نجوتَ مني ثلاثَ مرات، لكنني أعتقد أني سأتمكن منكَ الآن في المرة الرابعة لا محالة». انتظر مارك شهراً كاملاً كان خلالها لطيفاً وودوداً للغاية مع ابنته وزوجها.

وفي نهاية تلك المدَّة قال التاجر مارك لفاسيلي: «هل لك أن تذهب لرؤية صديقي الملك الثعبان في بلده الجميل في نهاية العالم. فقبل اثنتي عشرة سنة، بنى قلعة على قطعة أرض من أملاكي الخاصة. وأريدك أن تطالبه بالإيجار المستحق عن تلك السنوات الاثنتي عشرة الماضية، وأن تعلم منه ماذا حل بالسفن التجارية الاثنتي عشرة التي أبحرت إلى بلاده قبل ثلاث سنوات وهي محملة بمختلف أنواع البضائع».

لم يجرؤ فاسيلي على العصيان. فقام مودعاً زوجته ستانا التي بكت بمرارة عند الفراق، وعلقت كيساً من البسكويت على كتفيه ليقتات عليه خلال رحلته، وانطلق بعدها لا يلوي على شيء.

لا يُمكن لأحد أن يعلم إذا كانت الرحلة ستكون طويلة أم قصيرة. وبينما كان يسير على طول الطريق سمع فجأة هاتفاً يقول: «فاسيلي! إلى أين أنت ذاهب؟».

نظر فاسيلي حوله ليعرف من يناديه، وعندما لم يَرَ أحداً حوله، قال: «من كان يتحدث معي؟»

فقالت شجرة البلوط العجوز التي تنتشر على طول الطريق: «هذا أنا. قل لي الآن إلى أين أنت ذاهب».

فأجاب فاسيلي وهو يشعر بالدهشة: «أنا ذاهب إلى الملك الثعبان لأستلم منه إيجارات اثني عشر عاماً لقطعة أرض بنى عليها قلعته الخاصة».

فقالت شجرة البلوط القديمة: «عندما تصل إلى هناك اذكرني هناك واسأل الملك: «لا تزال شجرة البلوط القديمة واقفة على الأرض بعد أن وصل التعفن حتى إلى الجذور، وأصبحت نتيجة لذلك نصف ميتة ولكنها لا تزال خضراء يانعة». فهل ستتمكن الشجرة من الوقوف لفترة أطول على الأرض؟».

تابع فاسيلي طريقه حتى وصل إلى ضفة نهر عريض، وصعد إلى ظهر المركب للوصول إلى الضفة المقابلة للنهر. فسأله المراكبي العجوز: «هل رحلتك طويلة أم قصيرة يا صديقي؟».

فأجاب فاسيلي: «أريد لقاء الملك الثعبان».

فقال المراكبي العجوز: «اذكرني عندما تصل إلى هناك. وقل للملك: ثلاثون عاماً انقضت والمراكبي يجدف بالمركب عبر النهر ذهاباً وإياباً. فهل سيضطر هذا المراكبي العجوز الذي أنهكه التعب أن يواصل تجديف المركب لفترة أطول من ذلك؟».

وعد فاسيلي المراكبي العجوز بسؤال الملك كما طلب منه، وقال له: «حسناً. سوف أفعل ذلك بكل تأكيد».

واصل فاسيلي سيرة على طول الطريق المؤدي إلى نهاية العالم حيث يوجد الملك الثعبان حتى وصل الى مضيق ضيق في البحر. كان هناك حوت كبير يتمدد على طول هذا المضيق يسير الناس على ظهره بأقدامهم وعلى عرباتهم لعبور المضيق كما لو كان جسراً أو طريقاً. وما إن وضع فاسيلي قدمه على ظهر الحوت حتى سأله بصوت خفيض: «أخبرني إلى أين أنت ذاهب».

فأجاب فاسيلي: «أريد لقاء الملك الثعبان».

فقال له الحوت: «اذكرني عندما تصل إلى هناك وقل للملك إنه: «مضى على وجود الحوت المسكين مستلقياً عبر المضيق ثلاث سنوات، والرجال والخيول تدوس ظهره بلا هوادة حتى كادت أضلاعه تتكسر. فهل سيبقى على هذا الحال لفترة أطول من ذلك؟»».

فقال فاسيلي: «سأتذكر ذلك»، ومضى في سبيله.

واصل فاسيلي السير لأيام عدة حتى وصل إلى مرج أخضر فسيح. وكان في وسط هذا المرج تقف قلعة كبيرة ورائعة جدرانها

مبنية من الرخام الأبيض تتلألأ تحت أشعة الشمس. وسقفها مغطى بالصدف واللؤلؤ الذي يلمع مثل قوس قزح، والشمس تلمع كالنار المتوهجة على النوافذ البلورية. دخل فاسيلي القلعة، وأخذ يتنقل من غرفة إلى أخرى وهو يشعر بذهول كبير لروعة ما يراه.

وعندما وصل إلى الغرفة الأخيرة للقلعة، وجد فتاة حسناء تجلس على السرير.

وبمجرد أن رأيته قالت: «أوه، فاسيلي، ما الذي أتى بك إلى هذا المكان اللعين؟».

فأخبرها فاسيلي على الفور عن سبب قدومه، وعن كل ما رآه وسمعه في الطريق.

قالت الفتاة: «لم تُرسل هنا لتحصيل الإيجارات المستحقة، ولكن لهلاكك ذلك لأن الملك الثعبان قد يلتهمك ويقضي عليك».

لم يكن لدى الفتاة الوقت الكافي لقول المزيد، عندما اهتزت القلعة بأكملها، وسُمع صوت حفيف، وهسهسة، وأنين متواصل.

وسرعان ما وضعت الفتاة فاسيلي في داخل صندوق أغلقته بإحكام ودفعته بسرعة تحت السرير وهي تقول له بصوت أقرب إلى الهمس: «استمع جيداً إلى ما سنتحدث عنه أنا والملك الثعبان».

ثم نهضت من فورها لاستقبال الملك الثعبان.

اندفع الوحش العملاق إلى الغرفة وألقى بنفسه على السرير وهو يلهث: «لقد طرتُ حول نصف العالم. أنا متعب، متعب للغاية حقاً، وأريد أن أنام. فهل لك أن تحكي لي رأسي؟».

جلست الفتاة الحسناء بالقرب منه، وأخذت تحك رأسه الكريه، وقالتْ له بصوت حلو محبوب: «أنت تعرف بلا شك كل شيء في العالم. فبعد أن غادرتَ، كان لدي حلم رائع. فهلا أخبرتني ماذا يعني ذلك بعد أن أقصه عليك؟».

فقال لها: «هيا إذنْ. أفصحي عنه بسرعة! ما هو هذا الحلم؟».

فقالت: «حلمتُ أنني أسير على طريق واسع تنتشر على طرفيه أشجار بلوط قديمة قدم الدهر. فقالت لي إحداها: «اسألي لي الملك من فضلك هذا السؤال: «لا تزال شجرة البلوط القديمة واقفة على الأرض إلى أن وصل التعفن حتى إلى الجذور، وأصبحت نتيجة

لذلك نصف ميتة ولكنها لا تزال خضراء يانعة». فهل ستتمكن الشجرة من الوقوف لفترة أطول على الأرض؟».

فأجاب الوحش العملاق: «يجب أن تبقى واقفة حتى يأتي شخص ما ويدفعها لتسقط على الأرض. ويجد تحت جذورها قطعاً من الذهب والفضة أكثر مما يملكه التاجر مارك الغني».

وتابعت الفتاة الحسناء قائلة: «ثم حلمتُ أني جئت إلى النهر، وقال لي المراكبي العجوز الذي ينقل الناس بين ضفتيه: «إنني أجدف القارب منذ ثلاثين عاماً بين ضفتي النهر ذهاباً وإياباً». فهل سيضطر هذا العجوز الذي أنهكه التعب إلى مواصلة عمله في تجديف القارب لفترة أطول من ذلك؟».

فأجاب الوحش العملاق: «هذا يعتمد على المراكبي نفسه. يُمكنه عندما يصعد أول شخص ما إلى داخل القارب أن يكتفي بدفعه إلى الأمام وهو لا يزال على ضفة النهر، وأن ينصرف بعد ذلك لشأنه ولا يلتفت إليه أبداً. عندئذ يتعين على ذلك الشخص داخل المركب أن يأخذ مكان المراكبي ويقوم بالتجديف حتى يصل إلى الضفة الأخرى، ويصبح بذلك المراكبي الجديد».

واختتمت الفتاة حديثها بالقول: «وأخيراً رأيت نفسي في المنام بأنني أسير فوق جسر مصنوع من ظهر الحوت، وتحدث معي الجسر الحي وقال: «مضى على وجود الحوت المسكين مستلقياً عبر المضيق ثلاث سنوات، والرجال والخيول تدوس ظهره بلا هوادة حتى كادت أضلاعه تتكسر. فهل سيبقى على هذا الحال مدَّةً أطول من ذلك؟»».

فقال الملك الثعبان: «سيضطر للبقاء هناك حتى يلفظَ سفن التاجر مارك الغني الاثنتي عشرة التي ابتلعها. ثمّ يعود مرة أخرى إلى جوف البحر ويُشفي ظهره».

وأغلق الملك الثعبان عينيه، واستدار إلى جانبه الآخر، وبدأ في الشخير بصوت عالٍ لدرجة أن النوافذ كانت تهتز.

ساعدت الفتاة الجميلة فاسيلي على الخروج من الصندوق. شكرها فاسيلي بأدب شديد، وسارع بمغادرة القلعة.

وعندما وصل إلى المضيق سأل الحوت: «هل لديكَ جوابٌ على سؤالي؟».

فقال فاسيلي: «نعم، بمجرد أن أكون في الجانب الآخر سأخبرك بما تريد أن تعرفه».

وعندما أصبح فاسيلي على الجانب الآخر قال للحوت: «الفظ تلك السفن الاثنتي عشرة التي ابتلعتها قبل ثلاث سنوات، وسوف تصبح حرّاً».

ولفظ الحوت العظيم ما في جوفه وخرجتْ جميع السفن الاثنتي عشرة وأطقمها. ثم أخذ يتراقص في الماء فرحاً، وغاص في أعماق البحر، وأصبحتْ السفن ملكَ فاسيلي لأنه حررها من جوف الحوت.

ثمَّ أكمل فاسيلي طريقه حتى وصل إلى المراكبي العجوز على ضفة النهر، إذ سأل الرجل العجوز: «هل لديكَ جواب عن سؤالي؟».

فقال فاسيلي: «نعم، وبمجرد أن تنقلني إلى الضفة الأخرى سأخبرك بما تريد أن تعرفه».

وعندما عبرا إلى الضفة الأخرى، قال فاسيلي: «يُمكنك عندما يصعد أول شخص إلى داخل القارب أن تكتفي بدفعه إلى الأمام وأنت لا تزال على ضفة النهر، وأن تنصرف بعد ذلك لشأنك ولا تلتفت إليه أبداً. عندئذ يتعين على ذلك الشخص

داخل المركب أن يأخذ مكانك ويجدّف حتى يصل إلى الضفة الأخرى، ويصبح بذلك المراكبي الجديد».

ثم مضى فاسيلي في طريقه حتى وصلَ إلى شجرة البلوط القديمة، ودفعها بقدمه، وسقطت. وفي أسفل الجذور، كان هناك المزيد من الذهب والفضة أكثر مما كان لدى مارك نفسه.

والآن أصبحَ لدى فاسيلي اثنتا عشرة سفينة، إضافة إلى كم هائلٍ من الذهب والفضة والمجوهرات. وعندما ذهب فاسيلي إلى السفن ليأمر بحارتها بتحميل ما وجده أسفل شجرة البلوط القديمة، رأى ثلاثة أشخاص يقفون أمام السفن. لقد كانوا المتسولين الثلاثة الذين التقينا بهم في بداية القصة، وقالوا له: «بارك الله فيك يا فاسيلي». ثم اختفوا ولم يرهم مرة أخرى أبداً. وأبحرت السفن حاملة فاسيلي والكنوز عائدة إلى بيت فاسيلي وزوجته الشابة ستانا.

كان مارك غاضباً أكثر من أي وقت مضى لعودة فاسيلي سالماً. فأخذ حصانه وسافر بنفسه لرؤية الملك الثعبان لكي يعرف منه لماذا لم يقتل فاسيلي. وسرعان ما وصلَ مارك إلى النهر وصعد القارب، ولكنه كان أول شخص يأتي إلى هناك بعد فاسيلي، فقام

المراكبي العجوز بدفع القارب ومارك على متنه بمفرده إلى الأمام وهو لا يزال على ضفة النهر. ولذلك كان يتعين على مارك أن يأخذ مكان المراكبي العجوز ويجدّف حتى يصل إلى الضفة الأخرى، وأصبح بذلك المراكبي الجديد.

عاش فاسيلي حياة طيبة وسعيدة مع زوجته العزيزة، وعاشت حماته اللطيفة معهم. وعلى عكس مارك، ساعد فاسيلي - الذي أصبحتْ ثروة مارك ملكه - الفقراء وأطعمهم وألبس العرايا. بينما بقي مارك إلى آخر أيامه ينقل الناس عبر النهر حتى أصبح وجهه مملوءاً بالتجاعيد كالأرض العطشى ولحيته بيضاء كالثلج(*).

* * *

(*) المصدر: الأخوان غريم - ألمانيا.

رجل عجوز بأجنحة كبيرة

سيرك بشري في القرية

تأليف: غبرائيل غارسيا ماركيز

كانت الأمطار تنهمر بغزارة فوق البلدة لليوم الثالث على التوالي. وتمكن الزوجان بيلايو وإيليسندا من الإمساك بالكثير من السرطانات البحرية الحمراء التي دخلت دارهما قادمة من شاطئ البحر لدرجة أن بيلايو اضطر إلى عبور فناء الدار المملوء بالوحل ليتمكن من إلقائها في البحر ثانية. وكان الطفل

ابنهما حديث الولادة يُعاني ارتفاعاً في درجة حرارته طوال الليل بسبب الرائحة الكريهة كما يعتقد أبواه.

كان الطقس كئيباً منذ يوم الثلاثاء. والبحر والسماء أصبحا شيئاً واحداً رمادياً، كما أصبحت رمال الشاطئ، التي تلمع عادة في ليالي آذار مثل الضوء المنتشر في كل مكان، مزيجاً من الطين والأصداف البحرية المتعفنة.

وكان الضوء ضعيفاً جداً في وقت الظهيرة لدرجة أن بيلايو عندما كان يعود إلى المنزل بعد رمي السرطانات البحرية الحمراء في البحر، كان من الصعب عليه أن يرى ما كان يتحرك ويئن في مؤخرة فناء الدار. كان عليه أن يقترب كثيراً ليرى أنه كان هناك عجوز، بل عجوز جداً، مستلقٍ في الوحل لم يتمكن من النهوض على الرغم من محاولاته المتكررة بسبب ضخامة جناحيه.

شعر بيلايو بالخوف الشديد مما رآه، وأسرع لإحضار زوجته إليسيندا التي كانت تضع كمادات باردة على جبهة الطفل المريض لخفض درجة حرارته. وعندما أخذها إلى مؤخرة الفناء. نظر كلاهما إلى الرجل وسط الوحل بذهول صامت. كان يرتدي الأسمال البالية. ولم يبق سوى عدد قليل من الشعر الباهت على

رأسه الأصلع وعدد قليل جداً من الأسنان في مؤخرة فمه. كانت حالته مثيرة للشفقة إلى حد كبير تنزع عنه أي مظاهر بالوقار وبالعظمة قد تكون لديه.

كانت أجنحته الضخمة المتسخة بالوحل التي سقط نصف ريشها تقريباً متشابكة بشكل دائم في الوحل. لقد أمعنا النظر في حال هذا الرجل العجوز لفترة طويلة وبشكل دقيق لدرجة أنهما سرعان ما تغلبا على مفاجأتهما ووجداه في النهاية مألوفاً. ثمَّ تجرَّأا على التحدث معه، فأجاب بصوت بحار قوي وبلهجة غير مفهومة.

وبهذه الطريقة تخطيا إزعاج الأجنحة وخلصا بشكل منطقي إلى أنه لا بدَّ أن يكون أحد الناجين من سفينة عابرة دمرتها العاصفة. ومع ذلك، طلبا من جارتهما، التي كانت تعرف الكثير عن الحياة والموت، الحضور لرؤيته، وكان كل ما تحتاج إليه هذه المرأة هو نظرة واحدة لتُظهر لهما خطأهما.

وقالت لهما: «إنه ملاك. لا بدَّ أنه جاء من أجل الطفل، لكن هذا الملاك المسكين عجوز جداً لدرجة أن المطر أسقطه من السماء».

وفي اليوم التالي، عرف الجميع أن هناك ملاكاً حقيقياً من لحم ودم مُحتجزاً في منزل بيلايو. كانت المرأة الجارة ترى الملائكة في تلك الأوقات أنهم الناجون والهاربون من مؤامرة سماوية. ولذلك شعر أهل القرية نحو هذا العجوز بالرأفة والرحمة ولم يأتوا ليضربوه حتى الموت. راقبه بيلايو طوال فترة ما بعد الظهر من نافذة المطبخ، وهو يُمسك طوال الوقت بهراوة غليظة. وقبل الذهاب إلى الفراش، أخرجه من الوحل ووضعه في قن الدجاج المصنوع من الأسلاك المعدنية.

وفي منتصف الليل، عندما توقف المطر، كان بيلايو وإليسيندا لا يزالان يُمسكان بسرطانات البحر الحمراء ليلقياها ثانية في البحر. وبعد وقت قصير استيقظ الطفل بدون حمى وبرغبة في تناول الطعام. ونتيجة لذلك شعرا بالرحمة والشفقة على هذا الملاك العجوز المسكين، وقررا وضعه على طوافة مصنوعة من أعواد القصب مع ماء عذب وطعام طازج يكفي لمدَّة ثلاثة أيام وتركه يواجه مصيره في أعالي البحار.

ولكن عندما خرجوا إلى فناء الدار مع ضوء الفجر الأول، وجدا جميع الجيران أمام قن الدجاج يلهون مع الملاك دون أدنى

احترام أو توقير، ويُلقون إليه بأشياء ليأكلها من خلال الفتحات في الأسلاك المعدنية كحيوان سيرك وليس كمخلوق سماوي.

وصل الأب غونزاغا قبل الساعة السابعة صباحاً وقد أفزعته الأخبار الغريبة. في ذلك الوقت كان المتفرجون أقل سخفاً ودعابة من أولئك الذين كانوا عند الفجر، وكانوا يقومون بجميع أنواع التخمينات المتعلقة بمستقبل الأسير. وكان أبسط هؤلاء المتفرجين يعتقدون أن اسمه يجب أن يكون عمدة العالم. آخرون أصحاب العقول الأكثر جدية يعتقدون أنه يجب ترقيته إلى رتبة جنرال من فئة الخمس نجوم من أجل الفوز في جميع الحروب.

وكان بعض الحالمين يأملون أن يبقى في مكانه كقصبة سباق بين الرجال الحكماء المجنحين الذين يُمكنهم تولي مسؤولية الكون. لكن الأب غونزاغا، قبل أن يُصبح كاهناً، كان حطاباً قوياً. وقام باستعراض جميع التعاليم المقدسة في لحظة وهو يقف أمام الأسلاك المعدنية لقن الدجاج، ثم طلب فتح الباب حتى يتمكن من إلقاء نظرة فاحصة على ذلك الرجل المثير للشفقة الذي بدا أكثر مثل دجاجة ضخمة عاجزة وسط الدجاجات في القن.

ووجد الرجل المسكين مستلقياً في الزاوية وهو يجفف جناحيه تحت أشعة الشمس بين قشور الفاكهة وبقايا الفطور الصباحي التي رماها الجيران الذين تجمعوا عليه مع ضوء الفجر الأول. وعندما دخل الأب غونزاغا إلى قن الدجاج وقال للرجل المسكين صباح الخير باللغة اللاتينية. اكتفى برفع عينيه الباهتتين المليئتين بالحزن وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة للآخرين.

ساور الشك على الفور الأب غونزاغا أنه يقف أمام دجال عندما رأى أنه لا يفهم لغة الله أو يعرف كيف يحيي رجال الدين. ثم لاحظ عندما اقترب منه أكثر فأكثر بأنه مجرد بشر لدرجة كبيرة: كانت تفوح منه رائحة الطرقات بشكل لا يطاق، وكان الجانب الخلفي من جناحيه مليئاً بالطفيليات، وريشه عصفت به رياح قوية، ولا يبدو عليه شيء من وقار ومهابة الملائكة السماوية.

ثم خرج الأب غونزاغا من قن الدجاج وحذر الفضوليين من أهل القرية في موعظة قصيرة من مخاطر أن يكونوا ساذجين. وذكرهم بأن الشيطان لديه عادة سيئة في استخدام حيل الكرنفال من أجل أن يصيب غير الحذرين بالحيرة والارتباك. وأكد أنه إذا لم تكن الأجنحة هي العنصر الأساسي في تحديد الاختلاف بين

الصقر والطائرة، فإنها تكون حتى أقل من ذلك في التعرف على الملائكة. ومع ذلك، وعد بكتابة رسالة إلى كبير الأساقفة حتى يكتب بدوره إلى الحبر الأعظم من أجل الحصول على الحكم النهائي من أعلى المحاكم.

سقطت حصافته على قلوب عقيمة. وانتشرت أخبار الملاك الأسير بهذه السرعة لدرجة أنه بعد بضع ساعات حدث في فناء الدار صخب وضوضاء الأسواق العامرة، واضطروا إلى استدعاء قوات عسكرية بالحراب المثبتة فوق فوهات البنادق لتفريق الغوغاء الذين كانوا على وشك تدمير الدار. وأصيبت إليسيندا بالتواء في العمود الفقري بسبب الإرهاق الشديد الذي أصابها بعد تنظيف المكان من النفايات المنتشرة في كل مكان مثل الأسواق العامة، ثم خطر على بالها وضع سياج حول فناء الدار وفرض رسم دخول بمقدار خمسة سنتات لرؤية الملاك.

وجاء الفضوليون من أماكن بعيدة عندما علموا بوصول كرنفال متنقل مع بهلوان طائر كان يمر فوق المتفرجين عدة مرات، ولكن لم يبد أحد اهتماماً به لأن جناحيه لم تكن أجنحة ملاك، بل أجنحة خفاش فلكية. وجاء أكثر المُعوّقين سوءاً على

وجه الأرض بحثاً عن الصحة والعافية: امرأة فقيرة تحسب منذ الطفولة نبضات قلبها، وبعد أن نفدت الأرقام لديها لمواصلة العد؛ رجل برتغالي لم يستطع النوم لأن ضجيج النجوم أزعجه. نائم يمشي في الليل ليُنقض الأشياء التي قام بها أثناء اليقظة؛ والعديد من الأمراض الأخرى الأقل خطورة.

وفي خضم هذا الاضطراب الذي يحدث في فناء الدار والذي جعل الأرض تهتز، كان بيلايو وإليسيندا سعداء بالإرهاق الذي أصابهما، لأنهما في غضون أسبوع اكتظت غرف الدار بالمال الوفير، وكان طابور الفضوليين الذين ينتظرون دورهم للدخول لا يزال يصل إلى ما وراء الأفق.

وكان الملاك هو الوحيد الذي لم يُشارك بأي عمل يجري في فناء الدار. كان يمضي وقته في محاولة للراحة في عشه المستعار والذي جعلته الحرارة الجهنمية للمصابيح الزيتية والشموع المقدسة التي وُضعت على طول أسلاك الحظيرة المعدنية مكاناً لا يطاق.

في البداية حاولوا جعله يأكل بعض كرات النفتالين، التي كانت، حسب آراء المرأة الجارة الحكيمة، الطعام الموصوف للملائكة. لكنه

رفض تناولها تماماً كما رفض وجبات الغداء البابوية التي أحضرها له التائبون سعياً وراء المغفرة، ولم يكتشفوا أبداً ما إذا كان ذلك لأنه كان ملاكاً أم لأنه رجل عجوز لم يأكل في النهاية سوى عصيدة الباذنجان الطرية.

وبدا أن فضيلته الخارقة هي الصبر. لا سيَّما خلال الأيام الأولى عندما نقرت عليه الدجاجات، بحثاً عن الطفيليات النجمية التي تكاثرت في جناحيه، وقام المعاقون والعجزة بنزع الريش عنه ليقوموا بوضعها فوق عاهاتهم مباشرة بقصد الشفاء، وحتى أكثرهم رحمة رشقوه بالحجارة في محاولة لدفعة للنهوض حتى يتمكنوا من رؤيته واقفاً. المرة الوحيدة التي نجحوا فيها في إثارته كانت عندما أحرقوا جانبه بمكواة لطبع العلامات التجارية ليمكث بعدها بلا حراك لعدة ساعات لدرجة أنهم اعتقدوا أنه قد مات.

استيقظ في البداية، وصرخ بلغته غير المفهومة والدموع في عينيه، ورفرف بجناحيه عدة مرات، مما أدى إلى حدوث زوبعة من روث الدجاج والغبار الفضي وعاصفة من الذعر لا يبدو أنها من هذا العالم. وعلى الرغم من أن الكثيرين اعتقدوا أن رد فعله لم يكن غضباً بل كان ألماً، فقد حرصوا منذ ذلك الحين على

عدم إزعاجه، لأن الأغلبية فهمت وقتها أن سلبيته لم تكن عبارة عن استراحة محارب، بل كانت عاصفة تجري في سكون ورباطة جأش.

وعمد الأب غونزاغا إلى الحد من سخف ورعونة الحشد من خلال الحديث عن أشياء مملة وغير مترابطة كالتي تُروى للخادمات لتمضية الوقت في انتظار وصول الحكم النهائي حول طبيعة الأسير. لكن البريد من روما لم يُظهر أي مؤشر على العجالة. وهكذا أمضوا وقتهم في معرفة ما إذا كان الأسير لديه سرة في وسط البطن، أو إذا كانت لهجته لها أي صلة بالآرامية، أو عدد المرات التي يُمكن أن يوضع فيها على رأسه دبوس، أو ما إذا كان في النهاية مجرد رجل نرويجي بأجنحة. ربما كانت تلك الرسائل الضئيلة تأتي وتذهب حتى نهاية الوقت إذا لم يكن هناك حدث من لدن العناية الإلهية لوضع نهاية لمحن ومعاناة الأب غونزاغا.

وحدث خلال تلك الأيام، من بين العديد من عوامل الجذب الكرنفالية الأخرى، أن وصل المدينة عرض متنقل للفتاة التي تحولت إلى عنكبوت لأنها عصت والديها. ولم يكن رسم الدخول

لرؤيتها أقل من رسم الدخول لرؤية الملاك فحسب، بل سُمح للناس بطرح جميع أنواع الأسئلة حول حالتها الغريبة وفحصها من أخمص قدميها حتى أعلى رأسها حتى لا يشك أحد في حقيقة حياتها المرعبة.

كانت عنكبوت ذئبية مخيفة بحجم كبش ولها رأس عذراء حزينة. ومع ذلك، لم يكن أكثر ما يثلج الصدر هو شكلها الغريب، بل بلاؤها الصادق الذي روت فيه تفاصيل سوء حظها. فبينما كانت لا تزال طفلة، تسللت من منزل والديها للذهاب إلى حفلة راقصة، وبينما كانت تعود عبر الغابة بعد أن رقصت طوال الليل بدون إذن، شق رعد خائف السماء إلى قسمين وعبر التصدع جاءت صاعقة كبريتية حولتها إلى عنكبوت.

وجاء غذاؤها الوحيد من كرات اللحم التي قدمها المحسنون برميها في فمها. مشهد من هذا القبيل، المليء بالكثير من الحقيقة البشرية مع درس مخيف، كان كافياً لإلحاق الهزيمة، حتى بدون محاولة ذلك، بملاك مغرور يتعالى عن النظر إلى البشر.

إلى جانب ذلك، أظهرت المعجزات القليلة المنسوبة إلى الملاك اضطراباً عقلياً معيناً، مثل الرجل الأعمى الذي لم يستعدْ بصره

لكن نما له ثلاث أسنان جديدة في فمه، أو المشلول الذي لم يتمكن من المشي ولكنه كاد يربح اليانصيب، أو الأبرص الذي تنمو قروحه سريعاً مثل بذور عباد الشمس.

هذه المعجزات التي تواسي الجميع، والتي كانت أشبه بالدعابة الساخرة، دمرت بالفعل سمعة الملاك عندما سحقته في النهاية المرأة التي تحولت إلى عنكبوت. وبهذه الطريقة تم شفاء الأب غونزاغا إلى الأبد من أرقه، وعاد فناء دار بيلايو فارغاً كما كان خلال فترة هطول المطر لمدَّة ثلاثة أيام متتالية حيث سارت السرطانات البحرية الحمراء في غرف نوم الدار.

لم يكن لدى أصحاب المنزل أي سبب للحسرة والندب. فمن خلال المال الذي وفروه، بنوا بيتاً واسع الأرجاء مُكوناً من طابقين مع شرفات وحدائق وشبكة عالية بحيث لا تدخل السرطانات البحرية الحمراء خلال فصل الشتاء، ومع قضبان حديدية على النوافذ حتى لا تدخل الملائكة.

كما بنى بيلايو حظيرة كبيرة لتكاثر الأرانب بالقرب من البلدة، وتخلّى عن وظيفته كوكيل مزرعة بشكل نهائي، واشترت إليسيندا بعض الأحذية الخفيفة المصنوعة من الساتان ذات الكعب العالي

والعديد من الفساتين من الحرير المتلألئ، وهو النوع الذي ترتديه يوم الأحد أكثر النساء الجذابات في تلك الأوقات.

وكان قن الدجاج هو الشيء الوحيد الذي لم يحظ بأي اهتمام. وإذا ما غسلوه بمواد مطهرة، وحرقوا أعواد البخور في داخله في كثير من الأحيان، فهذا لم يكن لتكريم الملاك ولكن لطرد رائحة روث الدجاجات التي لا تزال عالقة في كل مكان مثل الشبح وتُحوّل المنزل الجديد إلى منزل قديم.

في البداية، عندما تعلم طفل بيلايو وإليسيندا المشي، كان حريصاً على عدم الاقتراب من قن الدجاج. ولكن بعد ذلك تبددت مخاوفه تدريجياً واعتاد على شم الرائحة، وقبل أن ينمو له السن الثاني، أخذ يذهب إلى داخل قن الدجاج للعب حيث كانت الأسلاك المعدنية تتداعى. لم يكن تحفظ الملاك في مواجهة الطفل أقل مما كان عليه مع البشر الآخرين، لكنه تحمّل أكثر الأعمال الشريرة بصبر كلب لم يكن لديه أوهام. وكلاهما أصيب بجدري الماء في الوقت نفسه.

لم يستطع الطبيب الذي اعتنى بالطفل مقاومة إغراء الاستماع إلى قلب الملاك، ووجد صفيراً كثيراً في القلب والعديد من الأصوات

في كليتيه بحيث بدا من المستحيل عليه أن يكون على قيد الحياة. لكن أكثر ما فاجأه هو الغرض من جناحيه. بدوا طبيعيين جداً على هذا الكائن البشري تماماً لدرجة أنه لا يستطيع أن يفهم لماذا لم يكن لدى الرجال الآخرين أجنحة مثلها أيضاً.

ولمّا بدأ الطفل في الذهاب إلى المدرسة، مر وقت طويل منذ تسببت الشمس والأمطار في انهيار قن الدجاج. فكان الملاك يجر نفسه هنا وهناك مثل الرجل المحتضر الضال. كانوا يُخرجونه من غرفة النوم بعصا المكنسة، وبعد لحظات يجدونه في المطبخ. بدا أنه يوجد في العديد من الأماكن في الوقت نفسه لدرجة أنهم ظنوا أنه يكرر نفسه عدة مرات، وأنه كان يعيد إنتاج نفسه في جميع أنحاء المنزل، وصاحت إليسيندا الغاضبة والقلقة أنه أمر فظيع فعلاً العيش في هذا الجحيم الممتلئ بالملائكة. كان لا يكاد يأكل وابيضت عيناه من شدة الدمع وأصبحت ضبابية حتى إنه كان يصطدم بكل ما كان يعترض طريقه. وكان كل ما تركه وراءَه هو الحظيرة العارية من ريشه الأخير.

ألقى بيلايو بطانية عليه وتكرم عليه في السماح له بالنوم في العلّية، وعندها فقط لاحظوا أنه كان يُعاني ارتفاع درجة حرارته

في الليل، وكان مَهُوْساً بمشكلة اللسان الملتوي لعجوز نرويجي. وكانت تلك واحدة من المرات القليلة التي شعروا فيها بالقلق، لأنهم اعتقدوا أنه سيموت، وحتى جارتهما الحكيمة لم تكن قادرة على إخبارهما بما يجب عليهما فعله مع الملائكة الموتى.

ومع ذلك، لم ينجُ من أسوأ شتاء له فحسب، بل بدا أنه يتحسن مع الأيام المشمسة الأولى. وبقي بلا حراك لعدة أيام في أقصى زاوية في فناء الدار حيث لن يراه أحد. وفي بداية شهر كانون الأول بدأ بعض الريش الكبير والقاسي ينمو على جناحيه. كان أشبه بريش فزاعة الطيور الذي يبدو أشبه بمصيبة أخرى للضعف. ولكن لا بدَّ أنه كان يعرف سبب هذه التغيرات لأنه كان حريصاً تماماً على ألا يلاحظها أحد، وألّاَّ يسمع أحد أغاني البحارة التي كان يغنيها أحياناً تحت النجوم.

وفي صباح أحد الأيام، كانت إليسيندا تقطّع بعض مجموعات البصل لتناول طعام الغداء عندما هبت رياح إلى المطبخ بدت قادمة من أعالي البحار. ثم ذهبت إلى النافذة، ورأت الملاك في محاولاته الأولى للطيران. كانت محاولات خشنة للغاية لدرجة أن أظافره أحدثت خدوشاً في كل مكان، وكان يوشْك أن يهدم العلّية بهذه

الرفرفة غير المألوفة، ولكنه نجح في الارتفاع عن الأرض، وتمكن من البقاء في الهواء لمدّة قصيرة.

تنفست إليسيندا الصعداء، لنفسها ولهذا الملاك، عندما شاهدته يمر فوق المنازل المجاورة بعد أن تمكن من رفع نفسه بطريقة ما مع الرفرفة الخطيرة نظراً لشيخوخته. واستمرت في التحديق به حتى وهي تقطّع البصل إلى شرائح إلى أن لم يعد من الممكن رؤيته، لأنه في ذلك الوقت لم يعد مصدر إزعاج في حياتها، بل كان نقطة وهمية في أفق البحر البعيد(*).

* * *

(*) **المصدر:** غبرائيل غارسيا ماركيز - كولومبيا.

لماذا تكون مياه البحر مالحة؟

طاحونة يدوية تشبه مصباح علاء الدين السحري الذي يحقق الأمنيات.

تأليف: بطرس كريستين إسبجورنسن وجورغن ماو

كان هناك في غابر الزمان شقيقان نال أحدهما حظاً وافراً من الغنى والثروة والثاني لم يحالفه الحظ، فكان فقيراً إلى حد الفاقة

والعوز. وعندما حلت ليلة عيد الميلاد، لم يكن في بيت الشقيق الفقير شيء ولا حتى كسرة خبز أو قطعة من اللحم، فذهب إلى بيت شقيقه ليسأله أن يعطيه لله شيئاً للاحتفال بعيد الميلاد. ولم تكن هذه المرة هي الأولى التي يجد فيها الشقيق الغني نفسه مرغماً على أن يقدم شيئاً لشقيقه الفقير أكثر مما تسمح به نفسه عادة على سجيتها.

فقال الشقيق الغني: «إذا فعلت ما أطلبه منك فسوف تحصل على قطعة كبيرة من لحم الضأن المدخّن». وافق الشقيق الفقير المسكين على الفور وشكره على ذلك.

وأضاف الشقيق الغني، وهو يلقي بقطعة كبيرة من لحم الضأن المدخّن: «خذها. هي لك. ويجب عليك الآن أن تذهب مباشرة إلى قاعة الرجل الميت». فأجاب الشقيق الفقير: «حسناً. سأفعل ذلك بكل تأكيد». وأخذ قطعة اللحم وانطلق بها نحو المكان الذي حدده له شقيقه. وظل يسير ويسير طوال اليوم حتى وصل عند حلول الليل إلى مكان يصدر عنه ضوء ساطع.

وقال لنفسه: «لا بدَّ أن هذا هو المكان المقصود». كان هناك في حديقة القاعة رجل ذو لحية بيضاء طويلة يقطّع الأخشاب

للاحتفال بعيد الميلاد المجيد. فقال الرجل الفقير وهو يمسك بقطعة اللحم: «مساء الخير يا سيدي».

فرد الرجل قائلاً: «مساء الخيرات. إلى أين أنت ذاهب في هذه الساعة المتأخرة من المساء؟» فقال الرجل الفقير: «إلى قاعة الرجل الميت هذا إذا كنت أسير على الطريق الصحيح». فأجاب الرجل ذو اللحية البيضاء الطويلة: «آه. نعم أنت على الطريق الصحيح تماماً». لأنك أنت الآن في هذا المكان الذي ذكرت.

«وعندما تصل إلى الداخل ستجد أن الجميع يريد شراء قطعة اللحم التي تحملها في يدك لأنهم لا يحصلون هنا عادة على ما يكفي من اللحوم، ولكن يجب عليك ألّاَّ تبيعها إلا إذا حصلت مقابلها على المطحنة اليدوية الموجودة خلف هذا الباب. وعندما تخرج من القاعة وتحصل عليها سوف أعلمك قبل أن تعود من حيث جئت كيف يمكنك أن تستخدم المطحنة المفيدة تقريباً لكل شيء وكيف توقفها عن العمل متى أردت».

شكر الرجل الفقير الذي يحمل قطعة اللحم في يده الرجل ذا اللحية البيضاء الطويلة، وطرق على الفور باب القاعة برفق. وعندما دخل إلى وسط القاعة وجد أن كل شيء فيها كان على

النحو الذي ذكره له الرجل ذو اللحية البيضاء. وسرعان ما هرع كل من في القاعة، صغاراً وكباراً، نحوه مثل أسراب النمل على الكثيب يُحاول كل واحد منهم أن يعرض ثمناً أعلى من الآخر لقاء قطعة اللحم.

فقال الرجل الفقير: «في الحقيقة كنت أريدها لتحضير عشاء الاحتفال بعيد الميلاد المجيد لي ولزوجتي العجوز. ولكن بما أنكم أظهرتم بشكل واضح رغبة حقيقية في شرائها، فيجب علي في هذه الحالة أن أقدمها لكم. ولكن إذا كان ولا بدَّ أن أبيعها لكم فأنا أريد مقابلها الطاحونة اليدوية الموجود هناك خلف هذا الباب».

في البدء لم يصغي أحد لما قاله الرجل الفقير، وظلوا يتدافعون حوله وهم يساومون وكل واحد يحاول أن يعرض سعراً أعلى من الآخرين لقطعة اللحم. ولكن الرجل الفقير تمسك بإصرار بما حدده مقابل تنازله عن قطعة اللحم. وهكذا عندما وجد هؤلاء إصرار الرجل على ما طلبه وافقوا في النهاية مرغمين على إعطائه الطاحونة اليدوية.

وعندما خرج الرجل الفقير إلى حديقة القاعة وهو يحمل المطحنة في يده سأل على الفور الحطاب ذا اللحية البيضاء الطويلة أن يعلمه كيف يستخدم المطحنة اليدوية وماذا يفعل لإيقافها عن العمل. وبعد أن تعلم ذلك، شكر الحطاب وانطلق على الفور عائداً إلى بيته بأسرع ما يستطيع. ولكنه لم يصل إلى هناك إلا بعد أن دقت الساعة منتصف الليل في ليلة الميلاد المجيد.

فقالت له زوجته العجوز: «أين كنت بحق السماء طيلة هذه المدّة، لقد جلست الساعات الطوال في انتظارك وليس عندي ولا حتى قطعة حطب واحدة أضعها تحت وعاء الحساء». فأجاب الرجل الفقير: «لم أستطع أن آتي قبل هذا الوقت. كان عندي عملٌ مهمّ يجب عليّ أن أقوم به في مكان بعيد بالفعل. والآن سوف ترين ذلك بنفسك».

وضع الرجل الطاحونة اليدوية على الطاولة، وأمرها أولاً بأن تطحن ضوء شمعة، وبعدها غطاء للطاولة، وبعدها قطعة لحم كبيرة، وبعدها عصائر متنوعة وكل المستلزمات الأخرى للاحتفال بليلة عيد الميلاد المجيد وتحضير العشاء الخاص بهذه المناسبة. وطحنت الطاحونة على الفور كل الأشياء التي طلبها الرجل الفقير.

وقالت المرأة العجوز في دهشة كبيرة وهي ترى الطاحونة اليدوية تطحن هذه الأشياء الواحد تلو الآخر: «يا إلهي. ماذا أرى بحق السماء!». وأرادت أن تعرف من زوجها من أين حصل على هذه الطاحونة الرائعة، لكنه رفض في بادئ الأمر أن يُخبرها بذلك.

وقال لها: «لا يهم من أين حصلت عليها طالما أنها طاحونة جيدة تقوم بعمل ما نريد منها، كما أن الماء الذي يُدير الرحى لن يتجمد أبداً في الشتاء القارص. وهكذا طحن الرجل الفقير اللحوم والعصائر وكل الأشياء الأخرى الجميلة التي يحتاج إليها طيلة فترة عيد الميلاد المجيد. وفي اليوم الثالث دعا جميع أصدقائه إلى وليمة فاخرة في المنزل».

الآن عندما رأى الشقيق الغني كيف كانت الوليمة غنية بالمأكولات الفاخرة والعصائر اللذيذة شعر بالغضب والانزعاج الشديدين، وحسد شقيقه على كل ما بات يملكه الآن. وقال في نفسه: «عشية عيد الميلاد كان فقيراً لدرجة كبيرة لا يملك شيئاً، وجاء يطلب مني بإذلال شديد أن أعطيه لوجه الله القليل من الطعام، واليوم أجده يقيم الولائم الفاخرة ويدعو إليها الكثير من أصدقائه كما لو أنه كان أميراً أو ملكاً». وقال لشقيقه: «ولكن

بحق السماء قل لي من أين حصلت على كل هذا الثراء لدرجة الترف؟».

فقال الآخر الفقير وهو لا يريد أن يُعطي جواباً شافياً لشقيقه: «من خلف الباب». ولكن عند المساء، وبعد أن أسرف في شرب الجعة، لم يستطع التهرب من إخبار شقيقه كيف حصل على المطحنة: «هناك تستطيع أن ترى بنفسك ما جلب لي الثروة والغنى». وأحضر المطحنة ووضعها أمام شقيقه، وطلب منها أن تطحن في البدء شيئاً واحداً وبعدها أشياء كثيرة.

وعندما شاهد شقيقه ذلك أصر على أن يأخذها لنفسه، وتمكّن من ذلك بعد طول جدال لإقناع شقيقه، ولكن مقابل ثلاثمئة دولار، وأن يكون موعد التسليم بعد انتهاء فترة الحصاد وتجميع التبن في الحظائر، ذلك لأن الشقيق الفقير اعتقد أنه: «إذا تمكنت من الاحتفاظ بالمطحنة طيلة هذه الفترة فسوف أتمكن لا محالة من أن أجعلها تطحن لي اللحوم والعصائر ما يكفيني طوال العام».

ويُمكن للمرء أن يتخيل أن المطحنة الرائعة لن يصيبها الصدأ خلال هذه الفترة. وهكذا عندما حل موعد الحصاد أخذ الشقيق

الغني المطحنة حسب الاتفاق مع شقيقه الفقير الذي حرص على عدم تعليم شقيقه الغني كيفية استخدام الطاحونة.

كان الوقت مساءً عندما أخذ الشقيق الغني الطاحونة. وفي الصباح طلب من المرأة العجوز أن تحمل القش بعد أن تدرسه الحصادات وتضعه في مخزن الحبوب على أن يقوم هو بالاعتناء بشؤون البيت في هذا اليوم.

وهكذا عندما اقترب موعد وجبة العشاء، وضع الطاحونة فوق طاولة المطبخ وقال: «اطحني لي سمك الرنجة وحساء اللبن وقومي بهذين العملين بسرعة وبشكل جيد». وهكذا بدأت الطاحونة بطحن ما طلبه منها، وامتلأت الأطباق والأواني، وبعدها واصلت الطاحونة طحن المطلوب حتى سال بكثرة، وغطى كامل أرض المطبخ.

وأراد الشقيق الغني أن يوقفها على العمل فثناها وغيَّر مكانها بدون جدوى. وكان مهما أدارها وضغط عليها لإيقافها تستمر في الطحن. ولم يمضِ وقت طويل حتى طاف المطبخ بحساء اللبن حتى كاد الشقيق الغَني يغرق. ففتح باب غرفة الجلوس.

ولم يمض وقت طويل حتى غمر حساء اللبن غرفة الجلوس أيضاً، وتمكنَ الشقيق الغني بصعوبة بالغة من السير عبر الغرفة

ليمسك بقبضة الباب. وعندما فتحه لم يمكث طويلاً في داخل الغرفة، بل هرب إلى الخارج وسمك الرنجة وحساء اللبن يطاردانه عن قرب حتى غطيا المزرعة والحقول المجاورة.

الآن بدأت المرأة العجوز، التي كانت تدرس القش وتضعه في مخزن الحبوب، تشعر بتأخر دعوة سيدها لها وللعاملين معها لتناول وجبة العشاء. وقالت لهم: «على الرغم من أن صاحب العمل لم يدعُنا إلى البيت لتناول وجبة العشاء، فإننا نستطيع رغم ذلك الذهاب إلى هناك. ربما لم يستطع أن يُعد حساء اللبن كما يجب ويتعين علي من ثَمَّ أن أساعده في ذلك».

وبدأ بصعوبة رحلة العودة إلى البيت. وما إن اقتربا قليلاً من التلة حتى وجدا الكثير والكثير من سمك الرنجة وحساء اللبن والخبز وهي تتدفق إلى الأمام كالطوفان وتلف وتدور حول نفسها مثل دوامة الريح، وصاحب العمل يركض بكل قوته هرباً منها لكيلا يغرق فيها.

وقال لهم عندما وصل إليهم وسوء الحظ يلاحقه بلا هوادة مكان بيت شقيقه الفقير: «هل من الممكن بحق السماء أن يكون

لكل واحد منكم مئة معدة! احرصوا على ألا تغرقوا في حساء اللبن!». ثم توسل لشقيقيه بحق السماء أن يستعيد منه الطاحونة وعلى الفور وهو يقول: «إذا استمرت الطاحونة في الطحن لساعة أخرى فسوف تطوف المنطقة بكاملها بسمك الرنجة وحساء اللبن وتدمر كل ما في فيها من مزروعات وغلال».

وافق الشقيق الفقير على استعادة الطاحونة مقابل أن يدفع له رغماً عنه ثلاثمئة دولار أخرى أيضاً. الآن استعاد الشقيق الفقير طاحونته مع المال. وبذلك تمكن بعد فترة قصيرة من الزمن من شراء مزرعة أجمل وأكبر من المزرعة التي يعيش فيها شقيقه الغني. وظلت الطاحونة تطحن له كل ما يريد من المال الوفير حتى إنه غطاها بأطباق الذهب. وكانت هذه المزرعة الجديدة تقع بالقرب من شاطئ البحر، ولذلك كانت أطباق الذهب تلمع وتتلألأ بعيداً على سطح البحر.

وهكذا أصبح يتعين على كل من يعبر البحر هناك أن يزور الرجل الغني في المزرعة الذهبية، والجميع يريد أن يرى المطحنة الرائعة لأن أخبارها انتشرت على نطاق واسع، ولم يكن هناك من

لم يسمع بخبرها. وبعد مضي فترة طويلة جاء ربان سفينة يريد رؤية الطاحونة الرائعة، وسأل إذا كان باستطاعتها أن تصنع الملح. فقال صاحبها: «نعم. تستطيع أن تصنع الملح بكل تأكيد».

وعندما سمع ربان السفينة ذلك، رغب بامتلاك الطاحونة مهما بلغ ثمنها لأنه أعتقد أنه إذا امتلكها فهو لن يكون في حاجة للقيام برحلات محفوفة بالمخاطر لجلب شحنات الملح. في البدء لم يحبذ صاحب الطاحونة أو لم يستسغ فكرة التخلي عنها لأيِّ سبب، لكن الربان توسل إليه بإصرار ودعا الله سبحانه أن يستجيب صاحبها لطلبه.

وأخيراً تمكن الربان من شراء الطاحونة مقابل آلاف الدولارات. وعندها حمل الربان الطاحونة على ظهرة وأسرع في المغادرة خشية أن يغير صاحب الطاحونة رأيه. ولم يكن لديه الوقت ليسأل كيف يمكن أن يطلب من الطاحونة التوقف عن طحن ما قد يطلبه منها، وأسرع في صعود السفينة والمغادرة على الفور.

وما إن أبحر قليلاً في عرض البحر حتى وضع الطاحونة على سطح السفينة وقال لها: «هيا اطحني لي الملح وقومي بهذين

العملين بسرعة وبشكل جيد». وهكذا بدأت الطاحونة في صنع الملح حتى بدأ يخرج منها مثل الماء الدافق. وعندما امتلأت عنابر السفينة بالملح أراد أن يوقف الطاحونة، ولكنه لم يعرف ماذا يفعل وما هو الشيء الذي يستطيع إيقافها. ولم تفلح كل المحاولات التي قام بها لإيقاف الطاحونة.

وتراكمت أكوام الملح على سطح السفينة وتعلو وتعلو حتى غرقت السفينة وسقطت الطاحونة الرائعة في قاع البحر، وهي لا تزال حتى اليوم تطحن الملح يوماً بعد يوم، وهذا هو السبب في كون مياه البحار مالحة منذ ذلك الوقت(*).

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

(*) **المصدر:** بطرس كريستين إسبجورنسن وجورغن ماو - النرويج.

كريستوفر كولومبوس

ورحلة البحث عن بديل لطريق التوابل

تأليف: إليزابيث هاريسون

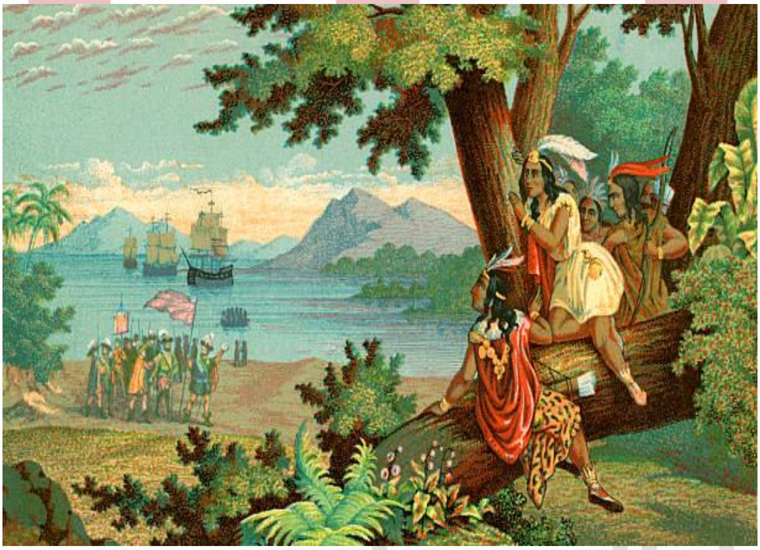

الحكاية

كان ياما كان في قديم الزمان، فتى اسمه كريستوفر يعيش على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي الكبير في مدينه ساحلية

تسمى جنوة في إيطاليا. كان يرنو بعينيه كل يوم صوب البحر كأنه يناديه. كان هذا الشاب يتذكر من وقت لآخر رؤيته لأول مرة لسفن كبيرة ذات صوارٍ عالية تبحر بمحاذاة الشاطئ في طريقها إلى موانئ بحرية أخرى.

ولا أشك أبداً في أن يكون لدى هذا الشاب سفن صغيرة كان يحاول الإبحار بها باستخدام المجداف في البحيرات الصغيرة المجاورة التي تحيط ببيته. وبعد مضي فترة من الزمن تمكن خلالها من الاطلاع على الكتب والخرائط البحرية التي كانت في زمانه نادرة وذات قيمة عالية جداً، وأن يُكوّن لديه فكرة واضحة وكافية عن الرحلات الاستكشافية الرائعة التي قام بها بحار يسمى ماركو بولو.

وقرأ الشاب كريستوفر هذه القصص الرائعة التي رواها بولو العجوز عن أسفاره مراراً وتكراراً والتي تتضمن وصفاً لما رأى خلال هذه الأسفار من مدن غريبة وبشر ذوي بشرة داكنة كالغلس. ومنازل غريبة، وحيوانات برية جميلة، وجواهر وعطور وزهور بديعة الألوان.

كانت هذه الأماكن البعيدة والغريبة التي وصفها البحار بولو قد استحوذت على تفكير الشاب كريستوفر طوال الوقت.

وكان يحلم في كل ليلة بهذه المناظر الخلابة التي يمكن أن يراها على هذه الشواطئ البعيدة. وفي كثير من الأحيان كان يقف على حافة شاطئ البحرَّ وهو يرقب هذه السفن الغريبة وهي تشق عباب البحر بعيداً عن الشاطئ حتى تختفي كلياً في الأفق البعيد حيث تلتقي السماء بصفحة الماء، ليبدأ من بعدها صراع السفن مع الأمواج المتلاطمة في أعالي البحار. كان يستمع باهتمام وشغف كبيرين لكل تفاصيل قصص الرحلات التجارية البحرية التي كان يرويها البحارة من حوله.

البدايات

وعندما بلغ كريستوفر الرابعة عشرة من عمره ركب البحر مع أحد أعمامه الذي كان يعمل رباناً لإحدى السفن كانت تقوم برحلات دورية بين جنوة وبين موانئ البحر المتوسط. وهكذا بقي الشاب على هذا المنوال لعدة سنوات تعلم حلالها كل ما يستطيع أن يتعلمه حول البحر. وفي إحدى المرات نشب قتال عنيف بين السفينة التي كان يُبحر فيها مع سفينة أخرى حيث شبت النيران على ظهر السفينتين واحترقتا بالكامل.

وتمكن كريستوفر كولومبوس، وهذا هو اسمه الكامل، من النجاة مع بقية بحارة السفينة بالقفز منها في آخر لحظة قبل غرقها، وبالسباحة نحو الشاطئ بسلام. ومع ذلك، لم تُشْفِه هذه التجربة المميتة من حبه لعالم البحر الغامض وأسراره رغم ما يرافقها من أهوال.

ونجد بعد ذلك أنه في وقت من الأوقات، وهو لا يزال في عمر الصبا، يُغادر إيطاليا ليعيش في بلاد البرتغال الواقعة على الشواطئ الغربية للمحيط الأطلسي، التي يتصف سكانها بكونهم أكثر حباً للمغامرة من سكان بلدته جنوة. وهناك تزوج من فتاة جميلة جمع والدها عدداً كبيراً من الخرائط والمخطوطات تُظهر شكل الأرض السائد في معتقدات الناس في ذلك الوقت، وتروي قصص الرحلات الجميلة التي غامر في القيام بها بحارة شجعان، من وقت لآخر، في خضم بحار مظلمة ومجهولة في ذلك الوقت. وكان اعتقاد معظم الناس في ذلك الوقت بأن الموت المحقق سيُحيق بكل من يتجرأ على الإبحار بعيداً في أعالي البحار المظلمة.

اعتقادات خاطئة

كان يسود في أذهان الناس في ذلك الوقت تصورات غريبة وسخيفة من كل نوع حول شكل الأرض. فالبعض كان يعتقد

أن الأرض مسطحة مثل الفطيرة، وأن الماء المحيط بها قد تحول تدريجياً إلى ضباب وبخار، وكل من يُغامر بشق عباب البحر عبر هذا البخار فسوف يقع لا محالة في وسط الضباب والغيوم إلى مكان سحيق ومجهول لا يعرفون قراره.

واعتقد آخرون أن هناك مخلوقات عملاقة تعيش في أعالي البحر تبتلع البحارة الحمقى بما فيه الكفاية الذين يتجرؤون على المغامرة في الاقتراب منهم. لكن كريستوفر كان حكيماً جداً وعميق التفكير بما كان يقرؤُه كل يوم من كتب وخرائط عمه والد زوجته، ومن الأحاديث المطولة مع أناس آخرين متعلمين، فأصبح بعد ذلك متيقناً أكثر فأكثر بأن الأرض في الحقيقة كروية مثل البرتقالة، وبأنه لو أبحر من ساحل البرتغال فأنه سيجد نفسه تدريجياً يدور حول العالم، ويصل في نهاية المطاف إلى بلاد الصين، البلد العجيب الذي يقع بعيداً ما وراء البحار والذي كان يرعبه كثيراً ما يروى عنه من حكايات عندما كان صغيراً.

كنا نعرف بالطبع أنه كان محقاً في اعتقاده بكروية الأرض، لكن من حوله في ذلك الوقت كان يضحك لدرجة الازدراء من اعتقاده هذا، ومن حديثه عن عزمه القيام برحلة في أعالي البحار المحيط

الواسع والمخيف. وكان يحاول مخاطبه من حوله بروح العقل والمنطق والتفكير السليم، وهو يشرح لهم هذه الأمور. وكان كلما ازدادت قناعته بأن الأرض في حقيقتها كروية، زاد كل من حوله هز رؤوسهم في استغراب شديد ووصفه بالمجنون.

كان يتذكر من قراءته لكتاب رحلات ماركو بولو أن الناس الذين التقى بهم خلال هذه الرحلات كانوا وثنيين يعرفون القليل عن الله سبحانه خالق الكون، ولا شيء البتة عن السيد المسيح عليه السلام. ونظراً لكون كريستوفر كولومبوس يحب كثيراً الديانة المسيحية التي يعتنقها، فإنه كان يتوق كثيراً لأن ينقل معه تعاليم هذا الدين العظيم عبر البحار الواسعة إلى هذه البلدان البعيدة. وكان كلما فكر بهذا الأمر بالذات، كانت تزداد رغبته ويصبح أكثر تصميماً على المضي قدماً في رحلة بحرية تأخذه إلى هذه البلاد حتى استحوذت هذه الرغبة وحدها على مجمل تفكيره، وانصب كل اهتمامه حول كيفية الحصول على بعض السفن للإبحار بها، وإثبات كروية الأرض، ومن ثمَّ إمكانية الوصول إلى الصين هذا البلد الوثني البعيد.

وتمكن كريستوفر بمساعدة بعض أصدقائه المتنفذين والمقربين من البلاط الملكي من دخول بلاط ملك البرتغال، إذ أعلم الملك الثري بمشروعه الكبير الذي يملأ عليه قلبه وجوانحه. كان الملك منشغلاً بشؤون أخرى، ولذلك لم يُعر الاهتمام الكافي لما كان يقوله كريستوفر. وكان يستمع له فقط من باب المجاملة كمن كان يستمع للريح حيث تدخل الكلمات الأذن لتخرج من بعدها بسرعة الريح من الأخرى.

وهكذا مضت الأيام والسنون تباعاً، إذ توفيت خلالها زوجة كولومبوس، وأصبح ابنهما دياغو شاباً في مستهل الصبا. وأخيراً قرر كولومبوس مغادرة البرتغال والانتقال للعيش في إسبانيا المجاورة المليئة بالثروات وبالفرص الواعدة، ليقف بنفسه على مدى استجابة ملكها لطلبه بتقديم بعض السفن، ليقوم برحلته التي كان يفكر فيها طيلة السنوات الماضية.

بداية عصر الاكتشافات في التاريخ الأوروبي

كان يحكم إسبانيا في تلك الفترة الملكان فيرديناند وإيزابيلا. وعندما حضر إلى البلاط الملكي أخذ يشرح لهما قناعته بكروية

الأرض بوضوح وبثقة عالية، وعن رغبته في إنقاذ الوثنيين في بلاد الصين بحملهم على اعتناق تعاليم المسيحية، كان الملكان يصغيان جيداً لكل كلمة يقولها لهما. فقد كانا بحق ملكين جادين جداً ومخلصين للدين المسيحي، ويرغبان لدرجة كبيرة نتيجة لذلك أن تسود المسيحية في جميع أرجاء العالم، لكن مستشاري المملكة تمكنا من إقناع الملكين مع الأسف بأن ما قاله كريستوفر لا يعدو كونه حلماً أحمق لرجل حالم، وإن كان يبدو قوياً صاحب همة ونشاط.

وهكذا أصيب كريستوفر مرة ثانية بخيبة الأمل في الحصول على مساعدة ملكية لتحقيق أمله في الوصول إلى بلاد الصين. ومع ذلك لم يتطرق اليأس أبداً إلى داخل كريستوفر، وبقي مصمماً على تحقيق هدفه الطموح. كانت أفكاره أكبر من أن تهزمها محاولة واحدة أو اثنتين لم تتكلّلا بالنجاح. ولذلك أرسل شقيقه إلى ملك بريطانيا لنفس الغرض، وليرى إذا كان سيستمع اليه ويقدم المساعدة المطلوبة. ولكن مع الأسف الشديد لم تتكلل هذه الزيارة مرة أخرى بالنجاح، وأدت إلى خيبة أمل جديدة لكريستوفر.

كانوا قلائل جداً هنا وهناك من يعتقدون بصواب رأيه بكروية الأرض، وأنه من الممكن بالنسبة له الإبحار حول الأرض والوصول إلى الصين على الطرف الآخر من المحيط الكبير.

وهكذا مرت الأيام والسنون تباعاً مرة أخرى حتى أصاب الشيب رأس كريستوفر، وأصبح نحيلاً وشاحب الوجه، وهو ينتظر بفارغ الصبر فرصة تحقيق أمله الذي طالما كان يتطلع ويخطط لتحقيقه في أقرب الآجال. كان يسير في بعض الأحيان على غير هدى على طول طرقات العاصمة، وهو يُمعن التفكير في طريقة تحقيق أمله وإثبات كروية الأرض للآخرين الذين كانوا عندما يلتقون به في طرقات العاصمة الإسبانية، يشيرون بأصابعهم نحوه وهم يقولون: «ها هو ذا العجوز المجنون الذي يعتقد أن الأرض كروية».

حاول كريستوفر المرة تلو الأخرى إقناع الملكين فيرديناند وإيزابيلا بجدوى القيام برحلته عبر الأطلسي ليصل إلى بلاد الصين، وبأن هذه الرحلة ستحقق لإسبانيا المجد والثروة الكبيرين، وبأنهما سيصبحان المستفيدين الشخصيين في العالم من وراء المساعدة في التبشير بتعاليم الدين المسيحي في بقاع العالم الأخرى.

عندما جاء الفرج عند باب دير بالوس

لم يكن أحد مقتنعاً بكل ما كان يقوله، كما لم يكن أحد مهتماً أيضاً في ذلك. وهكذا تقدم كريستوفر في العمر وهو يزداد فقراً يوماً بعد يوم. وأخيراً أدار كريستوفر ظهره للبلاط الملكي الإسباني، وقام بصمت وبدافع من اليأس باصطحاب ابنه الشاب في رحلة طويلة وشاقة إلى ميناء بحري صغير يُسمى بالوس في إسبانيا، حيث كان هناك دير قديم غريب، كان الرهبان اللطيفون المقيمون فيه غالباً ما يهونون على الغرباء الزائرين ما هم فيه من هم وغم.

وبعد مسيرة ثلاثة أيام، وصل كريستوفر وابنه بأقدام دامية إلى باب الدير وقد أنهكهما التعب، وأخذ منهما كل مأخذ. طرق كريستوفر باب الدير، وفتح أحد الكهنة اللطفاء بوجه مبتسم الباب الذي أحدثت مفاصله صريراً متواصلاً من شدة الصدأ الذي عليه، بسبب رطوبة البحر التي تحيط بالمكان بشكل دائم. سأل كريستوفر الكاهن إذا كان يستطيع أن يقدم لابنه دياغو قطعة من الخبز يُقيم بها صلبه مع بعض الماء.

وبينما كان المسافران المتعبان من طول وشدة السفر يستريحان، والشاب دياغو يأكل ما قُدم له من الخبز الجاف، مر من أمامهما

رئيس الدير، وكان رجلاً متعلماً وصاحب فكر نيّر اسمه الأب خوان بيريس، وسرعان ما لفت انتباه مظهر هاذين المسافرين المتعبين اللذين تبدو عليهما وثاء السفر بشكل واضح، وأدرك على الفور أن مظهرهما لا ينطبق على أوصاف المتسولين العاديين الذين لا يكفون عن القدوم إلى الدير وطرق بابه طلباً للمساعدة.

دعا كريستوفر وابنه إلى داخل الدير، واستفسر بشكل دقيق وشامل عن سيرة حياة كريستوفر السابقة. وأخذ بعدها يصغي بهدوء بالغ وانتباه شديد إلى ما كان يقوله كريستوفر عن خطته لعبور المحيط الأطلسي، والتبشير بالدين المسيحي في أوساط الوثنيين فيما وراء البحار.

كان الأب بيرس صديقاً مقرباً جداً من الملكة إيزابيلا في وقت من الأوقات. في الواقع، كان الأب بيريس الكاهن الوحيد الذي تعترف له بكل آثامها طلباً للمغفرة، وتبوح له بكل أسرارها وأحزانها ومتاعبها. كان رجلاً هادئاً بطبعه وقليل الكلام. وبعد حديث مطول مع كريستوفر، اقتنع الأب بيريس أن كريستوفر على حق بالفعل، وأن ما يُنادي به قابل للتحقيق إذا ما توفرت له الوسائل اللازمة.

وفي اليوم التالي، استعار الأب بيريس دابة قوية لتقلّه عبر الأراضي الشاسعة المفتوحة إلى القصر الذي تقيم فيه في ذلك الوقت الملكة إيزابيلا. في الواقع لا أعرف تماماً كيف تمكن من إقناعها بصحة ما يقوله كريستوفر، في الوقت الذي كان فيه جميع أفراد الحاشية حولها من وزراء ومستشارين وأتباع يعتبرون خطة كريستوفر مجرد أحلام رجل عجوز متحمس، وأفكار حمقاء وسخيفة غير قابلة للتحقيق وصلت إلى عتبة الجنون. ومهما يكن فقد تمكن الأب بيريس بطريقة أو بأخرى من إقناع الملكة إيزابيلا بتمويل رحلة كريستوفر إلى ما وراء البحار وتقديم كل ما يحتاج إليه في هذه الرحلة.

عقبات غير متوقعة أمام تحقيق الحلم

عاد الأب بيريس بعد ذلك إلى ديره القديم على ظهر دابته في بلدة بالوس، وطلب من كريستوفر أن يعود من جديد إلى القصر الملكي للمثول بين يدي الملكة إيزابيلا وتقديم طلب الدعم المالي اللازم للقيام برحلته الاستكشافية إلى الطرف الآخر من الأطلسي. وعندما وصل كريستوفر إلى البلاط الملكي قال أمين الخزانة الملكية: إنَّ الملكة لا يتوفر لديها الآن أي أموال

يُمكن أن تنفقها على هذه الرحلة. لكن الملكة صاحبة القلب النبيل أدركت لأول مرة أن ما يرغب كريستوفر القيام به يُشكل سابقة مهمة ستعود على الملكة بالخيرات الوفيرة وبالمجد والفخر بين البلدان الأخرى. وأنها مستعدة لبيع مجوهرات تاجها الملكي لتوفير المال اللازم لتمكين كريستوفر من البدء في رحلته الخطرة عبر المحيط الكبير.

وكان قيام الملكة ببيع مجوهرات تاجها يعني الكثير في تلك الأيام لأن الملكة لا تكاد تكون موضع وقار واحترام بدون أن تكون تضع على رأسها التاج الملكي المرصع بالجواهر المتلألئة في جميع المناسبات الرسمية. وكانت الملكة إيزابيلا حريصة بشكل أكبر على إرسال الكتاب المقدس إلى الوثنيين أينما كانوا من اهتمامها بمظهرها الخارجي في عيون الرعية، أو بما قد يقول عنها الآخرون.

وهكذا أصبحت جواهر التاج الملكي مرهونة عند كبار التجار، وأرسلت الأموال إلى كولومبوس للبدء في رحلته. عاد كولومبوس بشكل سريع، وقلبه مملوء بالفرح والسعادة لرؤية آماله قد بدت تتحقق، إلى بلدة بالوس الصغيرة حيث ترك هناك ابنه الشاب في رعاية الأب العطوف خوان بيريس.

وفجأة ظهرت مشكلة أخرى كادت تطيح بأمله في البدء بالرحلة لكونه لم يعثر على ما يكفي من البحارة المتمرسين الراغبين في المشاركة في مغامرة بحرية غير معروفة النتائج، وتعريض أرواحهم للخطر مع رجل عجوز ومجنون، كما كانوا ينظرون إلى كولومبوس. وأخيراً أصدرت الملكة إيزابيلا عفواً عن عدد من السجناء المدانين بشرط أن يعملوا كبحارة على ظهر السفن التي سينطلق بها كولومبوس في رحلته الاستكشافية عبر المحيط. وهكذا كان.

وكما ترى عزيزي القارئ فإن البحارة الذين رافقوا كولومبوس في رحلته لم يكونوا أبداً بحارة عاديين بل مجموعة من السجناء المدانين بجرائم مختلفة، وكانوا يقضون فترات سجن مختلفة. ومع ذلك، كان هذا أفضل ما يُمكن أن يحصل عليه كولومبوس في ذلك الوقت. وكان لدى كولومبوس من الحماس الشديد ما يكفي للقيام بالرحلة مهما كانت الصعاب كبيرة والتحديات كثيرة. وهكذا امتلأت السفن بالبحارة وبالطعام وبالمؤن الأخرى اللازمة للقيام برحلة طويلة وشاقة عبر طرق بحرية لم يعرفها أحد من قبل.

لم يكن أحدٌ من البحارة يعرف مقدار الوقت الذي يتعين عليهم الإبحار خلاله بشكل متواصل لكي يصلوا إلى اليابسة على الطرف الآخر من المحيط. وبعضهم كان فاقداً للأمل بوجود اليابسة أصلاً والوصول إليها في نهاية مطاف الرحلة.

وفي أحد أيام الصيف (٣ آب ١٤٩٢)، ودّع كولومبوس في الصباح الباكر وقبل شروق الشمس، عدداً قليلاً من الأصدقاء تجمعوا على رصيف ميناء بالوس الصغير لوداعه والدعاء له بالسلامة في رحلته الطويلة والشاقة. ورفع البحارة أشرعة السفن وانطلقوا يخوضون عباب البحر لبدء رحلة طويلة لم يسبق أن قام بمثلها أحد من قبل.

رحلة كولومبس الأولى

شارك في الرحلة ثلاث سفن لا تعدّ كبيرة أو متينة بما يكفي بمقاييس اليوم للقيام بمثل هذه المغامرة بعيداً عن اليابسة، ولا عن إمكانية تلقي المساعدة عند الحاجة وتكون معرضة لمواجهة العواصف في وسط المحيط. كانت الأسماء التي تحملها هذه السفن الثلاث هي: سانتا ماريا، التي كان يقودها كولومبوس

بنفسه، وسفينتان أصغر حجماً تسمى الأولى بينتا والثانية نينا تقل جميعها ٩٠ رجلاً.

كانت محطتهم الأولى جزر الكناري حيث جمعوا الإمدادات قبل أن يُبحروا عبر المحيط الأطلسي في ٦ أيلول من العام نفسه. ويجب أن يكون البحارة يشعرون في الواقع بالغرابة الشديدة وهم يرون كيف تجرفهم الرياح ساعة بعد أخرى نحو مياه المحيط المجهولة التي لم يتجرأ أحد من قبل على المغامرة في الإبحار عبرها. وبعد مضي بعض الوقت تلاشت اليابسة وراءَهم حتى اختفت عن انظارهم بالكامل. وأخذوا يواصلون التقدم حثيثاً بدون أن يعرفوا كيف وأين يُمكن أن تنتهي الرحلة.

كان كولومبوس، الوحيد بين بقية البحارة، يشعر على وجه اليقين بأنه بمرور الوقت سوف يصل لا محالة إلى شواطئ العالم الجديد التي لم يطأها بشر من قبل، ويتمكن بذلك من نقل الدين المسيحي إلى هؤلاء الوثنيين المساكين الذين يجهلون الكثير عن العالم الذي يعيشون فيه. وهكذا واصلت السفن خوض عباب المحيط يوماً بعد يوم متجاوزة نهاية الحدود التي سبق أن وصلها

البحارة من قبل، وأخذت تتجه بعدها نحو عالم جديد واسع لا يعرف عنه أحد أي شيء.

تسللت ريح الرهبة والخوف من المجهول الذي يخوضون غماره الآن إلى قلوب جميع البحارة، وطلبوا من كولومبوس أن يعود أدراجه بهم إلى ميناء بالوس. لم يكلف كولومبس نفسه حتى عناء تطمين البحارة وتهدئة مخاوفهم. وواصل الإبحار بثبات في عمق المحيط متجاوزاً كل الأماكن التي كان البحارة يجبونها ووصلوا إليها سابقاً. وهكذا مرت الأيام والأسابيع وهم على هذه الحالة حتى مضى على بدء الرحلة شهران كاملان.

وسرعان ما أدرك كولومبوس أن الطعام والمؤن التي حملها معه على ظهر السفن الثلاث قد بدأت في النفاد، وأصبح البحارة يخشون الآن إمكانية الموت جوعاً، وأصبحوا غاضبين من كولومبوس، وهددوا بقتله إذا لم يعد بهم أدراجه إلى ميناء بالوس. لكن كولومبوس لم يفقد صبره مع هؤلاء البحارة، كما لم يفقد ثقته بتحقيق هدف الرحلة ولا قيد شعرة. كان يحاول قدر ما يستطيع أن يدخل السعادة والفرح إلى قلوب رجاله. وكان يقص عليهم الحكايات المسلية ويقوم أمامهم بحركات مضحكة، كي يُبعد

عنهم الفزع والخوف الشديدين من المجهول، الذي ينتظرهم في مكان ما على طول مسار الرحلة المحفوفة بالمخاطر، وقد أصبح الآن يستحوذ على تفكيرهم بالكامل.

رصد اليابسة في الأفق البعيد

وعد كولومبوس بتقديم جائزة مجزية لأي بحار من رجاله يكون أول من يرى ويُنبئ عن رؤيته لليابسة، وهذا ما رفع من معنوياتهم وشحن عزائمهم وقوى من شجاعتهم. وهكذا أخذ جميع البحارة يتجهون بأنظارهم طوال الوقت نحو الساحل الغربي، ويتناوبون على الوقوف في أعالي الصواري لمراقبة الأفق البعيد ورصد اليابسة.

وكثيراً ما كان البحارة يعتقدون بأنهم رأوا اليابسة ليكتشفوا...

بعدها بأن ما رأوه كان مجرد غيمة داكنة في الأفق عوضاً على الشاطئ الذي كانوا يتوقون لرؤيته والوصول إليه، وسرعان ما بدأ البحارة يرون أسراباً من الطيور وهي تحلق فوقهم وبالقرب منهم متجهة نحو الغرب. وهذا ما أعطى سبباً للأمل والتفاؤل لأنه من المؤكد أن أسراب الطيور هذه كانت تتجه نحو اليابسة

حيث يُمكن أن تجد غذاءَها لتحصل على طعامها، وأشجاراً لتبني فيها أعشاشها. وعلى الرغم من كل ذلك، كانت المخاوف ما تزال تنهب بشكل كبير قلوب جميع البحارة. وأدرك كولومبوس أنه في حال لم تظهر اليابسة أمامهم عما قريب سوف يرغمونه على الاستدارة بالسفن ليقتفي آثار طريق العودة إلى بالوس رغماً عن إرادته.

ثم فكر بكل هؤلاء الوثنيين الجاهلين الذين لم يسمعوا برسالة المحبة التي جاء بها للإنسان السيد المسيح عليه السلام، ويدعو الله بشكل دائم أن يمنحه ما يكفي من القوة والعزم لكي يتمكن من مواصلة رحلته. وكان كولومبوس يُلقي ببصرة ساعة بعد أخرى نحو الأفق الأزرق البعيد حتى تعبت عيناه وكلَّ بصره، وأصبح لا يكاد يرى أمامه.

ضوء خافت يلمع في الأفق البعيد

وأخيراً وفي إحدى الليالي شديدة الظلمة، وبينما كان يجلس على ظهر السفينة، رأى ضوءاً خافتاً يلمع للحظات أمامه في الأفق البعيد المظلم. كان يعتقد أنه وحيثما يكون هناك ضوء تكون اليابسة. ومع

ذلك لم يكن متأكداً تماماً مما رأى بسبب إرهاق عينيه. وكان يعاني الربو، وضعف الرئتين، وتصلب الشرايين، ولذلك نادى على أحد أكثر المخلصين من مساعديه البحارة وسأله عما يرى أمامه. فقال البحار في دهشة شديدة: «ضوء».

ثم نادى من جديد على بحار آخر ليسأله السؤال نفسه. ولكن الضوء الخافت كان قد تلاشى في ذلك الوقت، ولذلك لم ير البحار في الحقيقة أي شيء، ولذلك تلاشت آمال كولومبوس أيضاً في الوقت نفسه. ولكنَّ شعوراً غريباً أخذ يتملكه منذ ذلك الوقت أن لحظة الوصول إلى اليابسة قد اقتربت بالفعل. وفي نحو الساعة الثانية من صباح ذلك اليوم، أخذ ربان إحدى السفينتين يصرخ بأعلى صوته: «اليابسة! اليابسة أمامنا!».

يمكنك عزيزي القارئ أن تتصور مقدار تأثير هذا الصراخ على بقية البحارة، وكيف اندفع البحارة بشكل جماعي إلى مقدمة السفن، وهم يمطون أعناقهم، ويُجهدون عيونهم المتعبة لرؤية ما كان حتى هذه اللحظة بعيد المنال تقريباً.

وفي صباح ذلك اليوم التقط أحد البحارة من مياه المحيط غصن من شجرة غريبة كان يوجد عليه عش لطائر صغير. كان

هذا في الواقع دليلاً لا تخطئه العين على أنهم أصبحوا بالفعل قاب قوسين أو أدنى من اليابسة، وذلك لأن أغصان الشجر لا تنمو في مياه المحيط.

وشيئاً فشيئاً أخذت اليابسة تظهر أمامهم من بعيد، وتزداد وضوحاً بين لحظة وأخرى. في البدء بدت اليابسة أشبه بشبح شاطئ باهت اللون، ولكنه أخذ تدريجياً يكبر ويكبر ويصبح مميزاً وأكثر وضوحاً. وبحلول منتصف اليوم التالي أخذت سفينة كولومبوس تقترب من شاطئ اليابسة حتى لامست مقدمتها الرمال الذهبية لهذا البلد الذي اكتُشف للتو. لم يسبق لرجل أبيض أن وقع نظره على مثل ذلك من قبل على الإطلاق. كما لم يسبق لأيّ سفينة من قبل أن وصلت إلى هذا الشاطئ.

بدء تجارة العبيد عبر الأطلسي

وهكذا تمكن كولومبوس أخيراً من تحقيق حلمه بعد حياة طويلة من الدراسة والكفاح، ومن الأمل والتخطيط، ومن المحاولة من جديد بعد فشل المحاولة الأولى، ومن تكرار المحاولة المرة تلو الأخرى. واكتشف أسرار المحيط الأطلسي وظلماته.

وحقق بذلك كولومبوس مجداً خالداً لا يزال يُذكر حتى اليوم. وقدم للبشرية عالماً جديداً بعد أن تمكن من الوصول إلى بلد بعيد جداً عبر المحيط الأطلسي الذي لم يَكَدْ أيّ من أقرانه يحلم بالوصول إليه ناهيك عن إيمانهم بوجوده أصلاً. وبات يُدرك أن تعاليم السيد المسيح عليه السلام يُمكن أن تبلغ الآن ما بلغ الليل والنهار.

قفز كولومبوس ورجاله إلى الشاطئ، وخرّ على ركبتيه، وانحنى برأسه ليقبل الأرض، ثم استوى ليصلي باستغراق شديد حمداً لله سبحانه. وغرس محام كان من ضمن البحارة علم إسبانيا في هذه الأرض التي لم تكن معروفة من قبل، مما يُعطي الملكين فيرديناند وإيزابيلا حق المطالبة بملكيتها(*).

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

(*) المصدر: إليزابيث هاريسون - الولايات المتحدة.

امرأة عجوز بخيلة من ستافورين

ورحلة البحث بعيونٍ زائغة عن أشياءٍ لا وجودَ لها.

تأليف: فرانس ثيمرمانز

ستافورين مدينة ساحلية في هولندا كانت تضمُّ أحد أشهر موانئ أوروبا في العصر القديم. ومنذ زمن طويل عاش فيها تاجرٌ لديه أسطول من السفن التجارية تجوبُ البحار، وتعودُ محمّلة بالبضائع المختلفة لطرحها في الأسواق. ومع مرورِ الزمن

ازدهرت تجارته، وأصبح من أغنى أغنياء المدينة، وبنى قصراً رائعاً على شاطئ البحر كانت مقابض أبوابه ومفصلاته مصنوعة من الذهب. كان رجلاً لطيفاً وكريماً في الوقت نفسه يتعامل مع العاملين لديه برفقٍ وروية، ويكون دائماً على أتم الاستعداد لتقديم يد المساعدة إلى فقراء المدينة الذين يطرقون بابه.

ولَمّا حضرته الوفاة، أعلنت المدينة الحداد عليه لمدّة شهر كامل، وسارت وراءه حتى مثواه الأخير. ولكن مع الأسف الشديد، كان هناكَ شخصٌ واحد فقط شعرَ بالسعادة في أعماقه لوفاته، وكان هذا الشخصُ هو زوجته، التي أصبحت أرمله بوفاته. كانت امرأة أنانية تحبُّ نفسها وبخيلة لدرجة الشُحّ تشعر دائماً بانزعاج شديد كلما رأتْ زوجها وهو يمدُّ يد المساعدة للفقراء والمساكين لوجه الله سبحانه، ويقدّمَ لهم الطعام والملبس.

الآن أصبحتْ هذه المرأة هي وريثة زوجها التاجر ومن تدير أعماله التجارية وتتحكم بكل أمواله. ونظراً لغياب زوجها تمكّنتْ أن تقوم بذلك بطريقتها الخاصة وكما تريد. فكانت، كلما طرق بابها فقيرٌ يطلب مساعدة أو لقمة يسدُّ بها جوعه، تدفعه وهي تشتمه: «اذهب من هنا أيها المتسكّع الكسول. ابحث عن

عمل يكفيك السؤال. احصل على وظيفة. لن تحصل على أي شيء مني. لقد عملتُ بجدٍّ وبذلتُ الجهدَ والعرق حتّى حصلتُ على ما أملكه الآن وأنا لن أشاركَ أحداً من الرعاع أمثالك به».

وعندما لا تكون هذه المرأة سليطة اللسان في مكتبها في ميناء المدينة لإدارة تجارتها مع التجار الآخرين وربابنة السفن، تكونُ في قصرها الكبير في وسط البلدة تعدُّ نقودها التي ورثتها عن زوجها وتتلمّسها بيديها الباردتين طيلة الوقت خشية ضياعها. كانتْ تجدُ في بيتها الكبير كلَّ ما كانت ترغبُ في امتلاكه في يوم من الأيام: مكان جميل للعيش فيه، أفخرُ أنواع المفروشات والملابس ونقود لا تُعدُّ ولا تحصى. كانت غنية جداً لدرجة أن العامة كانت تقول إنَّها أغنى حتى من العائلة الملكية.

لم تعتقد الأرملة أن هذه الثروة قدْ تنفد في يومٍ ما. كانت امرأة من الصعب أن تصبحَ فقيرة لكثرة ما ورثته عن زوجها التاجر الطيب من ثروات طائلة. ومن المفترضِ أن يكون معظم من يكونُ لديه مثل هذه الثروة راضياً عن نفسه وعن الحياة، لكنَّ هذه المرأة لم تكن كذلك. لم تشعرْ يوماً بسعادة حقيقية. كان الأغنياء الآخرون يملكون مثلها البيوتَ الجميلة الكبيرة

والمفروشات الفاخرة والثياب المصنوعة من الحرير. لكنها كانت تتوق لامتلاك شيءٍ لم يمتلكه أحدٌ في العالم من قبل. ولكنها لم تكن تعرف بالضبط ما هو هذا الشيء.

وفي يوم من الأيام دعت الأرملة جميعَ ربابنة السفن إلى اجتماع في مكتبها في الميناء، وطلبتْ منهم أن يجوبوا بحار العالم، وأن يعودوا إليها محمّلين بكل النفائس التي يستطيعون العثور عليها لعلَّ ذلك يُدخلُ السعادة إلى قلبها.

وهكذا انطلق في صباح اليوم التالي أسطول كبير من السفن مبحراً في كلّ الاتجاهات للبحث عن المطلوب. ومضت الأيام والشهور دون أن ترى أو يصل إلى مسامع الأرملة أي أخبارٍ عن هذه السفن وأحوالها وهي تجوب أعالي البحار. وشيئاً فشيئاً بدأت طلائع هذه السفن تدخلُ ميناء المدينة، وكان أولها سفينة عادتْ من سواحل أفريقيا محمّلة بقطع العاج وعليها النقوش الجميلة. لم يسبقْ لأحد في العالم أن رأى مثل هذه القطع الثمينة والجميلة من قبل. ومع ذلك لم تشعر الأرملة العجوز بالرضا ولم تجد السعادة طريقها إلى قلبها.

ثمّ عادتْ سفينة أخرى من شواطئ الصين محمّلة بملابس الحرير الملونة الناعمة وبالأحجار الكريمة السوداء والخضراء. ومع كل ذلك لم تشعر الأرملة بالسعادة وهي تقلّبُ هذه الأحجار بيديها وتضع عليها ثياب الحرير الناعمة.

ثمَّ عادت سفينة أخرى من شواطئ الهند الشرقية محمّلة بمختلف أنواع التوابل والأعشاب الفاخرة لم يتذّوقها إنسان من قبل، لكن العجوز طلبتْ من ربان السفينة أن ينصرف من أمامها، وبأن يعودَ إلى هناك مرة ثانية. وعادتْ سفنٌ أخرى من شبه الجزيرة العربية محمّلة بالخيول البيضاء المطهمة وخناجرَ بديعة الصنع من الذهب الخالص مطعّمة بالأحجار الثمينة، ومنَ جنوب شرق آسيا محمّلة بجلود النمور والمجوهرات الفضية الفاخرة، ومن تركيا واليونان محمّلة بالسجّاد الملوّن المصنوع يدوياً من الحرير الطبيعي الفاخر، وبالأواني الخزفية الثمينة الملونة.

لم تتغير ردة فعل الأرملة العجوز نحو كل هذه الأشياء الثمينة والنادرة التي جاؤوا بها إليها. فلم تشعرْ بالرضا والسعادة على الرغم من كلِّ هذه الأشياء النادرة والجميلة التي جُلبت من أطراف الأرض إليها.

وهكذا عادتْ جميع السفن إلى الميناء فيما عدا سفينة واحدة. فجلست العجوز في قصرها ترقبُ عودتها بفارغ الصبر. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى ظهرت السفينة في الأفق البعيد وهي تبحر نحو الميناء الذي انطلقت منه من قبل. وقفت العجوز أمام رصيف الميناء تنتظر دخول السفينة التي جابت بحار العالم للحصول على شيءٍ صعب المنال يُمكن أن يُدخلَ السعادة أخيراً إلى قلب هذه العجوز.

وخلال هذه الرحلة الشاقة والطويلة تمكّن ربّان هذه السفينة في أحد الأيام من العثور في ساحل البلطيق على مستودع مملوءٍ بمواسم الحبوب الفاخرة والنقية لم تقعْ عليها عينُ بشر من قبل. كان لها لونٌ ذهبيّ جميل، وكل حبة مشكّلة بشكلٍ دقيقٍ مليئة بخير الحياة. وقالَ ربّان السفينة في استغراب شديد: «لم أرَ في حياتي شيئاً بديعاً مثلَ ذلك». وقد أيّدَ بحّارة السفينة هذا الرأي، ولذلك ملأَ الربان عنابر السفينة كلها بكميات كبيرة من هذه الحبوب الثمينة، وانطلق مسرعاً في رحلة العودة.

لكن العجوز سليطة اللسان عندما صعدتْ إلى ظهر السفينة لترى حمولتها من البضائع الثمينة التي عادتْ بها، ووجدت أنها مجرّدُ

غِلال حبوب صفراء، تملّكها غضبٌ شديدٌ وقالتْ لربان السفينة: «كيف تتجرأ على فعل هذا؟ يا لها من إهانة بالفعل ومضيعة للوقت والمال. ماذا تريدُ أن أفعل بهذه الحبوب عديمة الفائدة؟».

وأمرتْ ربان السفينة في ثورة غضبها بأن يُلقي بالحبوب في البحر. احتج ربان السفينة قائلاً إنَّ حمولة السفينة من الحبوب تكفي لإطعام البلدة لشهور عديدة، ولكنها لم تكترثْ لما قاله.

طلبَ أحدُ بحّارة السفينة يدلُّ مظهره على فقر حاله، بألّا يُلقى كاملِ حمولة السفينة في البحر، وأن يُحتفظ ببعض منها لتوزيعه على فقراء البلدة، ولكنها رفضتْ ذلك وقالتْ له: «لا تكنْ غبياً. الفقراء فقراء لأنهم لا يعملون لكسب قوتهم كما تفعل الطيور في غدوّها ورواحها عندما تسعى وراء طعامها».

لم يتمالك البحّار المسكين نفسه حيث لعنها على مسمع الجميع، وقالَ لها: «سوفَ تندمين يوماً ما على فعلك هذا عندما تجدين نفسكِ وأنت تستجدين كسرة خبز لتأكليها فلا تجدِيها».

أخذت العجوز تضحك على الفور، وكان من الواضح أنها لم تلقِ بالاً لما سمعته. ونزعتْ من إصبعها خاتمَ ياقوت كبيراً، وقالت للبحّار المسكين: «هل ترى هذا الخاتم. أفضِّلُ أن ألقيه في البحر

على أن أعطي حفنة من الحبوب لأي واحد من هؤلاء المتسكعين على رصيف الميناء والذينَ يمضون كل الوقت بلا عمل».

هزَّ البحّارُ المسكين رأسه في أسفٍ وحزن، في الوقت الذي قامتْ فيه العجوز بخلعِ الخاتم من يدها وهي تقول له: «انظر إلى هذا الخاتم الآن». وقذفت غير مباليةٍ خاتم الياقوت بعيداً في البحر بقدر استطاعتها.

نظرَ البحّارُ المسكين مباشرة في عينيها وقال: «سيعود هذا الخاتمُ إليك لا محالة، ويومها سوفَ تستجدين كسرة خبز لتأكليها فلا تجديها».

لم تظهر العجوز أيَّ ندمٍ أو تراجع عن إثمها. وقامت ثانية بإرسال قافلة السفن لتجوب أعالي البحار بحثاً عن أشياء فريدة. طلبتْ من ربابنة السفن البحثَ عن أثمن وأندر الأشياء التي يُمكن للنقود أن تشتريها.

وفي أحد الأيام كانتْ تقفُ الأرملة على طرفِ رصيف الميناء عندما رأتْ قاربَ صيد يحمل عدداً من الصيادين وهم يقومون بنقل ما جمعوه من البحرِ طيلة اليوم من مختلف أنواع الأسماك

ويضعونه على رصيف الميناء لينقل ويُباع في الأسواق. ولاحظتْ من بيِن الأسماك واحدة كبيرة مظهرها جميلٌ جدّاً من نوع ذئب البحر، ونادتْ على الصيادين في القارب قائلة: «أريد هذه السمكة». وقامتْ بدفع ثمنها دريهمات قليلة، وطلبتْ من الصياد أن يُوصلها إلى قصرها في وسط المدينة. وعندما عادتْ إلى البيت طلبت من الطباخ أن يطهو لها هذه السمكة على نار هادئة مع بعضِ الأعشاب وقليلٍ من البطاطا الطازجة.

وعندما حان وقت العشاء جلستْ بمفردها إلى الطاولة، وجاء الطباخ بطبقٍ من الذهب وقد وضعَ عليه السمكة الفاخرة بعدَ طهيها على نارٍ هادئة. قطعت العجوز طرف السمكة ونَزَعَت الجلد عنها وفصلتها عن عظامها. وفجأة شعرتْ بخوف شديد عندما ظهر أمامها خاتمها الكبير المصنوع من الياقوت الذي كانتْ قد ألقت به في البحر منذ مدّة ليستْ ببعيدة.

نادت العجوز على الطباخ وقد امتلأ صدرها برعب شديد، وطلبتْ منه أن يأخذ من أمامها السمكة ويُلقيها في القمامة بعدما تراءى لها وهي تنظر إلى الخاتم صورة هذا البحّار المسكين الذي أخبرها بأن خاتمها الذي ألقت به في مياه البحر سيعود إليها

يوماً ما، وبأنها أيضاً ستجدُ نفسها في يوم من الأيام تستجدي كسرة خبز لتأكلها فلا تجدها.

وقالتْ الأرملة العجوز بصوتٍ مرتفع: «أبداً. أبداً لن يحصل هذا. لن أستجدي أحداً كسرة خبزٍ ولا حتّى غير ذلك».

في تلك اللحظة أخذتْ غيومٌ سوداء تحملُ نذرَ الخطرِ والموتِ تركضُ في الفضاءِ الرحبِ ركضَ الخائفين حتّى غطّت السماء وحجبت الشمس. وسرعان ما هبّتْ عاصفة هوجاء، وأخذت السماء تمطرُ كأفواه القِرب بلا توقّفٍ لعدة أيامٍ حتى غمرت مياه المطر جميع غرف القصر إضافة إلى كل أنحاء المدينة والحقول المجاورة. وأدت قوة المياه والريح الشديدة إلى انهيار أقسام عديدة في أرجاء القصر الذي سرعان ما اختفى بالكامل في مياه البحر مع كل محتوياته من المفروشات الفاخرة المطرّزة بالحرير الناعم والتحفِ الثمينة وأكياسِ النقود الذهبية والفضّية التي حرصت العجوز على الاحتفاظ بها عبرَ السنين لعلّها تجلبُ لها السعادة بطريقة أو بأخرى.

وعندما هدأتْ العاصفة وتوقّفَ سقوطُ المطرِ وانحسرت المياه نحو البحر، كان القصر قد تلاشى تماماً، وأصبحَ أثراً بعد

عين. وامتدَّ الدمارُ ليشملَ تقريباً أكثرَ من نصفِ البلدة. وهكذا فقدت العجوز كل شيءٍ كانتْ تملكه ما عدا الملابس التي كانت ترتديها على جسمها. كانتْ تشعر بالبردِ وبالجوعِ الشديدين، وأحسّتْ فجأة بتقدّمها بالعمر وبأنها أصبحتْ عجوزاً لا تعرفُ من أينَ تحصلُ على ما يسدُّ رمقها ويُسكتُ جوعها. فبدأت تسير الهُوينى على طول طرقات المدينة تبحث عن باب لتطرقه طلباً للمساعدة.

لكنَّ أهل البلدة كانوا يعرفونها جيداً ولم ينسوا بعد وضاعة نفسها وقسوتها في رفضها لمساعدة الغير، وكيف كانتْ تصفع الأبواب في وجه كلِّ من يطرقُ بابها طلباً للمساعدة قبلَ أن يحلَّ بها هذا العقاب السماوي لتكونَ عبرة للآخرين. ولذلكَ رفضَ أهلُ البلدة مساعدتها ووجدتْ نفسها من ثمَّ مرغمة على مغادرة البلدة. فأخذتْ تهيِّم على وجهها في الأرياف وهي تستجدي كسرة خبز من حيث استطاعت فلا تجدها(*).

* * *

(*) **المصدر** فرانس ثيمرمانز - هولندا.

روابط قصص الكتاب

١	الفتى غوليش وأميرة فرنسا - إيرلندا.	https://storiestogrowby.org/story/guleesh/
٢	الأم العجوز - اليابان.	https://americanliterature.com/author/matsuo-basho/short- story/the-aged-mother
٣	شقيق الباشا في بغداد - ألبانيا.	http://www.albanianliterature.net/folktales/tale_17.html
٤	وفاة موظف حكومي - روسيا.	https://en.wikisource.org/wiki/The_Death_of_a_Government_Clerk
٥	مئزر الحذّاء - التشيك.	https://fairytalez.com/shoemakers-apron-story-man-sits-near-golden-gate/
٦	الفتى الفقير - رومانيا.	https://fairytalez.com/the-poor-boy/
٧	صيّادُ الطيور - صربيا.	https://fairytalez.com/the-birdcatcher/

٨	الساحر آيسنكومبف - هنغاريا.	https://fairytalez.com/eisenkopf/
٩	العبد الأسود - البرتغال.	https://fairytalez.com/the-black-slave/
١٠	الجندي والموت - روسيا.	https://fairytalez.com/the-soldier-and-death/
١١	الأصدقاء الستة - التبت.	https://www.storiestogrowby.org/story/six-friends
١٢	الساحر مدشون - تركيا.	https://fairytalez.com/madschun/
١٣	الوريث المفقود - نيجيريا.	Allfolktales.com/wafrica/lost_heir.php
١٤	الجندي الصغير - فرنسا	https://fairytalez.com/the-little-soldier/
١٥	رامي الحصى الماهر - لاوس.	https://www.storiestogrowby.org/story/pebble- -shooter/
١٦	الحملات الصليبية في مصر وبلاد الشام - بريطانيا	https://www.writing.com/main/view_item/item_id/1399932-A-Story-of-the-Crusades
١٧	ابن آوى أو النمر؟ - باكستان.	https://fairytalez.com/jackal-or-tiger/
١٨	كيف يصطاد والتر الشجاع الذئاب - فنلندا.	https://fairytalez.com/how-brave-walter-hunted-wolves/

١٩	صاحبُ الملابس الرثّة - إيطاليا.	https://www.storiestogrowby.org/story/rags-tatters/
٢٠	حورية في ساعة وقواق - سويسرا.	https://fairytalez.com/the-fairy-in-the-cuckoo-clock/
٢١	المتسولون الثلاثة الظرفاء - كرواتيا.	https://fairytalez.com/the-story-of-three-wonderful-beggar
٢٢	رجل عجوز بأجنحة كبيرة - كولومبيا.	https://www.ndsu.edu/pubweb/~cinichol/CreativeWriting/323/MarquezManwithWings.htm
٢٣	لماذا تكون مياه البحر مالحة؟ - النرويج.	https://fairytalez.com/why-the-sea-is-salt/
٢٤	كريستوفر كولمبوس - الولايات المتحدة.	https://digitalcommons.nl.edu/cgi/viewcontent.cgi?article=1009&context=harrison-writings
٢٥	امرأة عجوز من ستافورين - هولندا.	http://fairytalesoftheworld.com/quick-reads/the-mean-old-lady-of-stavoren

السورية للكتاب

فهرس

الصفحة

مقدّمة ٩
الفتى غوليش وأميرة فرنسا ١٣
الأم العجوز ٣٨
شقيق الباشا في بغداد ٤٧
وفاة موظف حكومي ٦١
مئزر الحّذاء ٧٠
الفتى الفقير ٨٢
صيّادُ الطيور ١٢٠
الساحر آيسنكومبف ١٣٦
العبد الأسود ١٥٧
الجندي والموت ١٧٠
الأصدقاء الستة ٢٠٤
الساحر مدشون ٢٢٠

الصفحة

الوريث المفقود ٢٣٢
الجندي الصغير ٢٣٨
رامي الحصى الماهر ٢٦٣
الحملات الصليبية في مصر وبلاد الشام ٢٧٢
ابن آوى أم النمر؟ ٢٨٥
كيف يصطاد والتر الشجاع الذئاب ٣١١
صاحبُ الملابس الرثّة والأسمال البالية ٣٢٦
حورية في ساعة وقواق ٣٤٠
المتسولون الثلاثة الظرفاء ٣٥٤
رجل عجوز بأجنحة كبيرة ٣٧٣
لماذا تكون مياه البحر مالحة؟ ٣٨٩
كريستوفر كولومبوس ٤٠١
امرأة عجوز بخيلة من ستافورين ٤٢٣
روابط قصص الكتاب ٤٣٤
فهرس ٤٣٧

محمد نجدة راجي شهيد

- مترجم سوري.
- إجازة في اللغة الإنكليزية وآدابها، من جامعة دمشق - كلية الآداب والعلوم الإنسانية عام ١٩٧٨م.
- ماجستير في العلاقات العامة من جامعة سينت جونز في نيويورك عام ١٩٨٥م.
- عمل في وزارة الخارجية السورية خلال الفترة (١٩٨٠-٢٠١٤)م.
- شغل منصب مدير إدارة الدراسات والترجمة في الوزارة خلال الفترة (٢٠١١-٢٠١٢م).
- أُوفد بعدها للعمل رئيساً للبعثة الدبلوماسية في بلغراد.
- حصل على شهادة ترجمان محلّف من وزارة العدل السورية في عام ٢٠١٦م.
- يُعَدُّ هذا الكتاب أهم أعماله المترجمة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

٢٠٢٣م

الهيئة العامة السورية للكتاب